#المقاطعة_مستمرة

مكتبة

كونستانسين باوستوفسكي

# الوردة الذهبية

ترجمة: عدنان مدانات

انضم لـ مكتبة .. امسح الكود

انقر هنا .. اتبع الرابط!

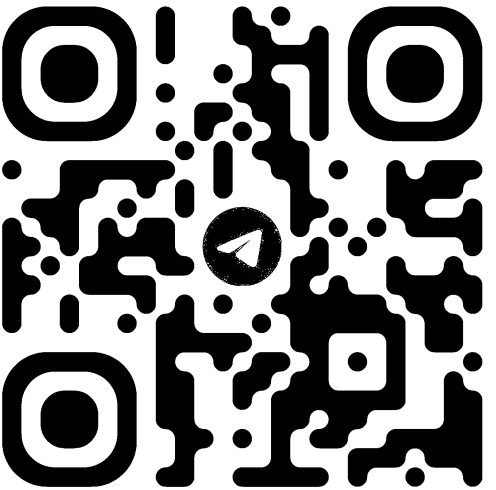

telegram @soramnqraa

الوردة الذهبية

قصص

Author: **Константин Паустовский**
اسم المؤلف: كونستانسين باوستوفسكي

Title: **Золотая роза**
عنوان الكتاب: الوردة الذهبية

Translated by: **Adnan Madanat**
ترجمة: عدنان مدانات

P.C.: **Al–Mada**
الناشر: دار المدى

First Edition: **2022**
الطبعة الأولى: 2022

جميع الحقوق محفوظة: دار المدى

**Copyright © Al–Mada**

ИНСТИТУТ ПЕРЕВОДА
AD VERBUM

ينشر هذا الكتاب بدعم من معهد الترجمة بموسكو - روسيا الاتحادية
Published with the support
of the Institute for Literary Translation (Russia)

للإعلام والثقافة والفنون
*Al-mada for media, culture and arts*

بغداد: حي أبو نؤاس - محلة 102 - شارع 13 - بناية 141
Iraq/ Baghdad- Abu Nawas-neigh. 102 - 13 Street - Building 141
+ 964 (0) 770 2799 999 + 964 (0) 780 808 0800
+ 964 (0) 790 1919 290

بيروت: بشامون - شارع المدارس
Beirut: Bchamoun - Schools Street
+ 961 175 2617 + 961 706 15017
+ 961 175 2616

دمشق: شارع كرجية حداد- متفرع من شارع 29 أيار
Damascus: Karjieh Haddad Street - from 29 Ayar Street
+ 963 11 232 2276 + 963 11 232 2275
+ 963 11 232 2289 ص.ب: 8272

مكتبة
t.me/soramnqraa

كونستانسين باوستوفسكي

مكتبة
t.me/soramnqraa

# الوردة الذهبية

ترجمة : عدنان مدانات

## عن المؤلف

- كونستانتين غيورغيفيتش باوستوفسكي 1892–1968
- كاتب روسي/ سوفييتي، كاتب سيناريو، مدرّس، صحفي، مراسل حربي.
- تُرجمت كتبه مراراً إلى عدة لغات. أدرجت كتبه وقصصه في النصف الثاني من القرن العشرين ضمن المراجع المدرسية للصفوف الإعدادية ضمن مادة الأدب الروسي باعتبار مواضيعها وأساليبها تشكل نماذج للنثر الفني والشعري، رشح أربع مرّات لنيل جائزة نوبل للأدب.
- تتراوح كتبه ما بين الروايات والقصص وأدب الأطفال. حولت العديد من أعماله إلى مسرحيات وأفلام سينمائية. توصلت نتائج استطلاع في أواسط الستينات إلى أن باوستوفسكي الكاتب الأكثر شعبية في الاتحاد السوفييتي عند جيل الشباب.
- قيل عنه إنه الكاتب الذي ركعت الممثلة الألمانية الشهيرة مارلين ديتريش عند قدميه.

مكتبة
t.me/soramnqraa

# عن الكتاب

«الوردة الذهبية» – محاولة لاكتشاف أسرار الإبداع الأدبي استناداً إلى خبرته في إبداع أعماله الأدبية، وتأملاته حول الأعمال الإبداعية لعظماء الكتّاب، ليس من خلال التنظير، بل تحديداً من خلال سرد قصص كان شاهداً عليها أو رويت له، يستخلص منها أفكاره حول الأدب وكيف يجب العمل على كتابته، ويضيف إلى ذلك في الفصول الأخيرة من الكتاب تعريفات شيقة جداً ببعض أشهر كتاب الرواية والقصص القصيرة والشعر في زمنه، من الروس والأوروبيين بعامة، مثل الدنماركي كريستيان أندرسون أشهر كتّاب قصص الأطفال والروائي والقاص الفرنسي غي دو موباسان، والقاص الروسي والمؤلف المسرحي أنطون تشيخوف، وغيرهم ممن تركوا بصمتهم على خارطة الأدب العالمي، رابطاً بين شخصياتهم وأدبهم، سواء فيما بينها من انسجام أو تناقض. يتوصل المؤلف من خلال هذا الكتاب القصصي إلى تأملات استمرت على مدى سنوات طوال تتعلق بالمشاكل المعقدة لسيكولوجية الإبداع ومهارات الكتابة وعناصرها المتنوعة، وإلى استنتاجات لا تخلو من عبر، مفيدة، حتى في عصرنا الحالي الذي تسود فيه الأساليب الحديثة في الكتابة النثرية أو الشعرية المتمردة على الأساليب والمدارس الأدبية السابقة.

يروي باوستوفسكي قصصه ويصف الأشياء التي يتحدث عنها بأدق ما يمكن من التفاصيل، يروي ويستفيض في السرد، بما قد يوحي للوهلة الأولى بأنه يبتعد عن هدفه، أو يخرج عن الموضوع، لكن، لا شيء مجانياً فيما يكتبه، فالقارئ المتمهل، الصبور، سيشعر بكيف تتغلغل في أعماقه، شيئاً فشيئاً، بهدوء، الأفكار التي يرغب المؤلف، بطريقة غير مباشرة، أن يوصلها إليه.

ثمة قاسم مشترك بين كتاب «الوردة الذهبية» وكتاب آخر أكثر شهرة هو «داغستان بلدي» للشاعر الداغستاني الكبير رسول حمزاتوف. الطريقة في الكتابين ذاتها، يحلل كل من مؤلفيهما تجربته وفهمه للأدب من خلال سرد قصص أو أمثلة قصصية مستقاة من نماذج وقائع وشخصيات عايشها أثناء حياته، لكن الفرق بين الاثنين يكمن في الأسلوب، ففي حين يتميز أسلوب «داغستان بلدي» بشعريته الرائعة، يتميز أسلوب «الوردة الذهبية» بالسرد النثري.

القاسم المشترك الآخر بين الكتابين هو المعرفة الموسوعية التي يتمتع بها كل من المؤلّفَيْن، ما يضفي على الكتابين قيمة علمية مضافة بسبب غزارة المعلومات فيهما حول العديد من ظواهر الطبيعة ونواحي الحياة المختلفة.

ما أثار اهتمامي في هذا الكتاب على نحو خاص هو الكشف عمّا يمكن أن أطلق عليه وصف «المختبر الإبداعي» – المختبر المتواري داخل عقل كل مبدع في سائر أنواع الآداب والفنون، الذي يبقى سرّاً من أسرار المبدع الخاصة، يعجز عن معرفته الباحثون والنقاد، الذين غالباً ما يسعون لاكتشافه، بخاصة، من خلال الحوارات التي يقيمونها مع المبدعين. لذا كانت ثمة حاجة ماسة وملحة عبّرت عنها المطالبات للمبدعين من أجل أن يبادروا للكشف عن أسرار مختبراتهم الإبداعية، عن أسرار عملهم الإبداعي.

لا تخلو الأدبيات المنشورة من كشوفات للمختبر الإبداعي بقلم مبدعين، وهي لا شك ذات فائدة جمة لدارسي الإنتاج الإبداعي الفني والأدبي. لكن معظم هذه الكشوفات تتسم بالجزئية وتغيب عنها النظرة الشاملة المتكاملة، وتفتقر، بخاصة، إلى الرؤية النقدية لما أنتجوه من إبداع.

هذه النظرة الشاملة المتكاملة التحليلية والرؤية النقدية الذاتية متوفرة بوضوح وعمق في «الوردة الذهبية»، حيث يعمل المؤلف على متابعة مسيرة الإبداع انطلاقاً من تجربته الخاصة، بدءاً من نشوء الفكرة الأولية، مروراً بالمخيلة وعلاقتها بتجميع مادة العمل الإبداعي، وصولاً إلى المنتج النهائي.

مكتبة
t.me/soramnqraa

# المحتويات


عن المؤلف ..... 5
عن الكتاب ..... 7
1. الغبار الثمين ..... 15
2. توقيع على صخرة ..... 25
3. ورودٌ على لحاء الشجرة ..... 33
4. القصة الأولى ..... 37
5. البرق ..... 47
6. تمرد الشخصيات ..... 53
7. قصة طويلة «كوكب المريخ» ..... 59
8. عواصف رعدية ..... 65
9. دراسة الخرائط الجغرافية ..... 77
10. محفوظات في القلب ..... 81
11. لغة الألماس ..... 85
12. نبع في غابة صغيرة ..... 87
13. اللغة والطبيعة ..... 91
14. أكوام الزهور والأعشاب ..... 103
15. القواميس ..... 105
16. حادثة في متجر الشفانغ ..... 113
17. كأنها توافه ..... 119

18. عجوز في بوفيه المحطة ..... 135
19. الليلة البيضاء ..... 141
20. بداية إبداعية حية ..... 149
21. عربة سفر ليلي..... 163
22. الفن يرى العالم ..... 175
23. كتاب مفكّر فيه من زمن..... 187
24. تشيخوف..... 191
25. ألكسندر بلوك ..... 199
26. غي دي موباسان..... 209
27. إيفان بونين ..... 213
28. مكسيم غوركي ..... 229
29. فيكتور هوغو ..... 233
30. وردة صغيرة في عروة (يوري إليوشا) ..... 237
31. ميخائيل بريشفين ..... 245
32. ألكسندر غرين..... 253
33. إدوارد باغريتسكي..... 257
34. صندوق الشاحنة ..... 263
**في وداعي** ..... 269

إلى صديقتي المخلصة
تاتيانا ألكسييفنا باوستوفسكي

لا تشمل الأدب قوانين الاضمحلال. هو وحده لا يعرف الموت.
– سالتيكوف شيدرين

يجب السعي دائماً نحو الرائع.
– أونوريه دي بالزاك

الكثير مما في هذا الكتاب، معبّر عنه، ربما، بوضوح غير كاف. الكثير منه عرضة للجدال. هذا الكتاب ليس بحثاً نظرياً، وليس أيضاً دليلاً مرشداً. إنه ببساطة مجرد ملاحظات من فهمي للكتابة وتجربتي. لا يتطرق الكتاب إلى الأساس الفكري لاشتغالنا على الكتابة، فلا توجد هنا أية خلافات ذات أهمية. إن قيمة وريادة الأدب التربوية واضحتان للجميع. تحدثت في هذا الكتاب فقط عن القليل مما سمح لي الوقت به، ولكن إذا تمكنت من أن أنقل إلى القارئ على الأقل جزءاً صغيراً من فكرة الجوهر الجميل للكتابة، سأعتبر أنني قد أنجزت واجبي تجاه الأدب.

# الغبار الثمين

لا أستطيع أن أتذكر كيف عرفت عن هذه القصة حول عامل النظافة الباريسي جان شاميت. كان شاميت يكسب رزقه من كناسة مشاغل الحرفيين في الحي الذي يعيش فيه.

كان شاميت يقطن في كوخ على أطراف المدينة. وبالطبع، من الممكن وصف هذه الناحية بالتفصيل، وبالتالي قيادة القارئ بعيداً عن الخيط الرئيسي للقصة. ولكن ربما تجدر الإشارة إلى أنه حتى الآن لا تزال باريس تحافظ على الأسوار القديمة. في زمن القصة، كانت الأسوار لا تزال مغطاة بزهور العسل والزعرور، وكانت الطيور تعشش فيها.

يقع كوخ عامل النظافة أسفل الأسوار الشمالية، بالقرب من السمكريين ومصلحي الأحذية وجامعي الأعقاب والمتسولين.

لو أن الكاتب الفرنسي موباسان اهتمّ بحياة قاطني هذه الأكواخ، لربما كتب عدة قصص رائعة إضافية. ومن المحتمل أن تضيف أكاليل جديدة لمجده الراسخ.

للأسف، لم يلتفت إلى هذه الأحياء أي من الغرباء، باستثناء المخبرين. وحتى إن كان أولئك موجودين فيها فقط في تلك الحالات التي كانوا يبحثون فيها عن الأشياء المسروقة.

انطلاقاً من حقيقة أن الجيران يلقبون شاميت بـ «نقار الخشب»، فيجب الاعتقاد أنه كان نحيلاً، حاد الأنف، ودائماً تبرز من تحت قبعته خصلة شعر تشبه قمة رأس العصفور.

عرف جان شاميت فيما مضى أياماً أفضل. فقد خدم جندياً في جيش «نابليون الصغير» زمن حرب المكسيك.

أسعف الحظ شاميت. أصيب بالحمى الشديدة في فيرا كروز. أعادوا هذا الجندي المريض، الذي لم يشارك ولا مرّة في معركة حقيقية، إلى الوطن. استغل قائد الفرقة الفرصة وكلّف شاميت بأن يصطحب معه إلى فرنسا ابنته سوزان – الفتاة ذات الثمانية أعوام.

كان القائد أرمل، ولهذا كان مضطراً أن يصطحب معه ابنته في كل مكان. لكنه قرر هذه المرّة أن يفترق عنها وأن يرسلها إلى أخته في رايان. كان المناخ في المكسيك قاتلاً بالنسبة للأطفال الأوروبيين، إضافة إلى أن الحرب ضد الفدائيين كانت تتسبب في مخاطر مفاجئة.

كانت الحرارة تنشر البخار فوق المحيط الأطلسي وقت عودة شاميت إلى فرنسا. بقيت الفتاة صامتة طوال الوقت. حتى إنها كانت تنظر دون أن تبتسم نحو الأسماك التي كانت تتطاير من الماء الملوث بالزيت.

اعتنى شاميت قدر استطاعته بسوزان. كان يدرك، بالطبع، أنها لا تنتظر منه فقط العناية، بل الحنان أيضاً. وأي حنان يمكن لجندي من الفوج الاستعماري أن يفكر به؟ وبماذا يمكن له أن يُشغلها؟ لعبة النرد؟ أم أغاني الثكنة الوقحة؟

لكن، من غير الممكن أن يستمر شاميت فترة طويلة في الصمت. صار شاميت يلاحظ نظرات الفتاة المحيّرة. ثم قرر أخيرًا أن يبدأ، وهو يشعر بالحرج، بالحديث عن حياته، مشيرًا إلى أدق تفاصيل قرية الصيد على القناة الإنجليزية، والرمال المنسابة، والبرك بعد تراجع المد، وكنيسة القرية ذات الجرس المتصدع، ووالدته التي تعالج جيرانها من حرقة المعدة.

لم يجد شاميت في هذه الذكريات أي شيء يمكن أن يرفّه عن سوزان. لكن الفتاة، وهذا ما أدهشه، كانت تصغي لحكاياته بلهفة، وحتى إنها كانت تجبره على تكرارها وتطالب بالمزيد من التفاصيل.

استنفد شاميت ذاكرته واعتصر منها هذه التفاصيل، إلى أن فقد في النهاية قناعته بأنها وُجدت فعلاً. إنها لم تكن ذكريات، بل ظلالها الباهتة. كانت الذكريات تتلاشى مثل بقع الضباب. في الواقع، لم يتوقع شاميت أن يُنعش في ذاكرته لحظات حياته المنقضية من زمن.

ذات يوم، خطرت على باله ذكرى غامضة عن وردة ذهبية. ليس الأمر أن شاميت رأى هذه الوردة الخشنة المنحوتة من الذهب الأسود، المعلقة على صليب في منزل صيادة قديمة، أو سمع قصصًا عن هذه الوردة من المحيطين به. لا، بل ربما أنه شاهد هذه الوردة ذات يوم، وتذكّر كيف كانت تلمع، على الرغم من أن الشمس قد غابت عن النافذة وكانت العاصفة ترعد خلف المضيق. بمضي الوقت كان شاميت يتذكر بوضوح أكثر بعض الأضواء المنعكسة على السطح المنخفض.

استغرب الجميع في القرية أن العجوز لا تبيع درتها الثمينة. فقد كان يمكن لها أن تكسب ثروة من ورائها. والدة شاميت هي الوحيدة التي كانت تؤكد أن بيع الوردة الذهبية - خطيئة، لأن حبيب العجوز هو من أهداها الوردة لجلب «الحظ السعيد» عندما كانت العجوز، تعمل، وهي لا تزال فتاة مرحة، في مصنع السردين في أوديرن.

- مثل هذه الورود الذهبية نادرة في العالم، تقول والدة شاميت. - لكن كل من لديهم منها في البيت سيكونون حتماً سعداء. وليس هم وحدهم، بل كل من سيلمس هذه الوردة أيضاً. كان الصبي ينتظر بفارغ الصبر أن تصبح المرأة العجوز سعيدة. ولكن لم تكن هناك علامات على السعادة على الإطلاق. كان منزل المرأة العجوز يرتج من الريح، وفي المساء لم تكن النار تُوقد. وهكذا غادر شاميت القرية دون انتظار أي تحول في مصير العجوز.

بعد عام واحد فقط، أخبره رجل الإطفاء، أحد معارفه، الذي يعمل في سفينة البريد في ميناء هافر، أن نجل المرأة العجوز الفنان قد جاء بشكل غير متوقع إلى باريس - كان ملتحياً ومرحاً وغريب الأطوار. منذ ذلك الحين، كان لا يمكن التعرف على الكوخ. أصبح يعجّ بالضوضاء والأشياء. الفنانون، كما يقولون، يحصلون على الكثير من المال مقابل لوحاتهم الزيتية.

ذات يوم، عندما كان شاميت يجلس على سطح السفينة يمشّط بمشطه الحديدي شعر سوزان المتطاير بفعل الريح، سألته:

- جان، هل سيهديني أحد ما وردة ذهبية؟

- كل شيء ممكن، قد تلتقين يوماً ما يا سوزي بإنسان ظريف. كان لدينا

في فرقتنا جندي نحيف. لقد كان محظوظاً جداً. عثر على فك ذهبي مكسور في ساحة المعركة، فشربت الفرقة كلها نخبه. كان هذا زمن الحرب في آناما. أطلق جنود المدفعية، بهدف التسلية، قذيفة من مدفع هاون. سقطت القذيفة وسط جمر بركان خامد وانفجرت هناك. وكانت المفاجأة أن البركان ثار وبدأ يُطلق حممه. الشيطان وحده يعرف ما كان اسم البركان. أعتقد أنه كراكا – تاكا. ثورة البركان فعلت فعلها! قُتل أربعون من السكان الأصليين المسالمين. أعتقد أنه بسبب هذا الفك فُقد الكثير من الناس! ثم اتضح أن جنديّنا أضاع فكه. بالطبع سُكِت عن الأمر، فهيبة الجيش كانت في المقام الأول. ولكن كان لدينا ما يكفي كي نسكر في ذلك الحين.

– أين حدث هذا؟ سألت سوزي مستغربة.

– سبق أن أخبرتكِ – في آناما. في الهند الصينية. المحيط هناك يحترق بالنار. مثل جهنم، أما قناديل البحر فكانت شبيهة بتنانير راقصات البالية. وكانت الرطوبة هناك شديدة، بحيث نما الفطر في ليلة واحدة داخل بساطيرنا! فليعدموني إن كنت أكذب.

قبل هذا الحادث، كان شاميت قد سمع الكثير من أكاذيب الجنود، لكنه هو نفسه لم يكذب. ليس لأنه لم يكن يعرف كيف، ولكن ببساطة لم تكن هناك حاجة. الآن، اعتبر أن هذا واجبه المقدس للترفيه عن سوزان.

أوصل شاميت الفتاة إلى ريان وسلّمها يداً بيد إلى امرأة طويلة القامة ذات شفتين شاحبتين مضمومتين – عمة سوزان. كانت العجوز مغطاة بكاملها بالخرز الأسود وتلمع مثل أفعى السيرك. تمسكت الفتاة بقوة بشاميت، بمعطفه الممتلئ بالحروق.

– لا بأس! همس شاميت ودفع سوزان من كتفها. – نحن الجنود أيضاً لا نختار رؤساء فرقتنا. أنتِ الآن، يا سوزي، جندية!

انصرف شاميت. التفت بضع مرات نحو نافذة البيت الكئيب، الذي لم تهز، حتى الرياح، ستائره. كانت دقات الساعات تُسمع من داخل المتاجر في الشوارع المزدحمة.

احتوت حقيبة شاميت على ذكرى تخص سوزان – جديلة من شعرها.

الشيطان وحده يعرف لماذا، غير أن رائحة كانت تنبعث من هذه الجديلة، كما لو أنها وُضعت فترة طويلة في سلّة من البنفسج.

أدت الحمّى المكسيكية إلى تدهور صحة شاميت. فصلوه من الجيش قبل أن يترفع إلى رتبة سيرجنت. انضمّ إلى الحياة المدنية جندياً بسيطاً.

مضت السنوات وهو يعيش في فاقة. تنقّل شاميت بين العديد من المهن الوضيعة وفي النهاية أصبح عامل نظافة باريسي. ومنذ ذلك الحين بدأت رائحة الغبار والنفايات تطارده. كان يشعر بهذه الرائحة حتى أثناء الرياح الخفيفة التي تهب في الشارع من جهة نهر السين، وفي أغصان الورود الرطبة التي كانت تبيعها العجائز في الحارات.

تتالت الأيام وسط الوحل المصفر. لكن في بعض الأحيان كانت تتراءى صورة ضبابية وردية فاتحة أمام عيني شاميت – فستان سوزان القديم. كان هذا الفستان يشبه رائحة الربيع النضرة، كما لو أنه تم الاحتفاظ به في سلة مع البنفسج لفترة طويلة.

أين سوزان؟ كيف حالها؟ كان يعرف أنها أصبحت فتاة ناضجة أما والدها فقد توفي نتيجة جراحه.

كان شاميت يتهيأ دائماً للذهاب إلى روان لزيارة سوزان، لكنه في كل مرّة كان يؤجل الرحلة، إلى أن أدرك أخيراً أن الوقت فاته وربما نسيته سوزان.

نعت نفسه، شاتماً، بالخنزير، عندما تذكر كيف ودّعها. فبدلاً من أن يقبل الفتاة دفعها من ظهرها للقاء العجوز وقال: «اصبري يا سوزي، يا جندية!».

من المعلوم أن الزبالين يعملون في الليل؟ سببان يجبرانهم على هذا: معظم القمامة تتشكل من الفضلات، وليس دائماً من العمل البشري المفيد، التي تتراكم في نهاية اليوم، وعدا ذلك، لا يمكن للمرء أن يؤذي الباريسيين بالروائح والمناظر الكريهة. لا أحد تقريباً يلاحظ في الليل، باستثناء الجرذ، عمل الزبالين.

اعتاد شاميت على العمل الليلي، وحتى إنه أحب ساعات الليل هذه خاصة عندما كان بزوغ الفجر يقترب. كان الضباب يغطي نهر السين، غير أنه لم يكن يصل إلى أعلى من حواجز الجسور.

ذات فجر ضبابي، شاهد شاميت، وهو يعبر جسر المقعدين، امرأة شابة ترتدي ثوباً أرجوانياً باهتاً من الدانتيل الأسود. كانت تقف عند حاجز الجسر وتراقب نهر السين.

توقف شاميت، خلع قبعته المغبّرة وقال:

– سيدتي، مياه السين باردة جداً في هذا الوقت، هيا، من الأفضل أن أرافقك إلى البيت.

– لا بيت لي الآن، – ردت المرأة بسرعة والتفتت نحو شاميت. أوقع شاميت قبعته.

– سوزي! –قال بمزيج من الدهشة واليأس. – سوزي، الجندية! فتاتي! أخيراً رأيتكِ. ربما أنكِ نسيتني. أنا جان إرنست شاميت، الجندي الطليعي من الفرقة الاستعمارية السابعة والعشرين، الذي أوصلك إلى عمتك الكريهة في روان. كم أصبحت جميلة! وكم أن شعرك مرتّب! أما أنا، الجندي الأهوج، فقد عجزت عن تسريحه!

– جان! – صرخت المرأة، وارتمت على شاميت، عانقته من رقبته وبكت. – جان، لا تزال طيباً كما كنت آنذاك. أذكر كل شيء.

– إيه، يا للغباء! من ذا الذي سيستفيد من طيبتي. ما الذي حدث معك يا صغيرتي؟

جذب شاميت سوزان إليه وفعل ما لم يتجرأ على فعله في روان. مسّدها وقبّل شعرها اللامع. ثم، فوراً، انتحى جانباً، خشية أن تشم سوزان رائحة الفئران في سترته. لكن سوزان ارتمت على كتفه بقوة أكثر.

– ما بكِ يا فتاة؟ كرر شاميت بيأس.

لم تجب سوزان. كانت عاجزة عن أن تتوقف عن النحيب. أدرك شاميت: يجب ألا أسألها عن أي شيء بعد الآن.

لدي، قال على عجل، – كوخ عند أسوار القلعة. بعيد عن هنا. البيت، بالطبع، فارغ – يمكن لعب الكرة فيه. لكن يمكن تسخين الماء والنوم في السرير. هناك يمكنك أن تستحمي وترتاحي. وعموماً أن تعيشي بقدر ما تريدين من الوقت.

عاشت سوزان عند شاميت خمسة أيام. أشرقت شمس غير عادية خمسة أيام فوق باريس. جميع المباني، حتى أقدمها، المغطاة بالسخام، وجميع الحدائق وحتى كوخ شاميت تألقت تحت أشعة هذه الشمس، مثل الجواهر. شاميت الذي لم يشعر بالتوتر أمام تنفس امرأة شابة بالكاد مسموع، لن يفهم ما هو الحنان. كانت شفتاها أكثر إشراقًا من البتلات الرطبة، وتألقت رموشها نتيجة دموع الليل.

أجل، حدث كل شيء مع سوزان تماماً كما توقع شاميت. خانها حبيبها، الممثل الشاب. لكن الأيام الخمسة التي أمضتها سوزان عند شاميت كانت كافية تماماً للمصالحة بينهما.

ساهم شاميت في هذه المصالحة. كان عليه أن ينقل رسالة من سوزان للممثل وأن يلقّن هذا المتأنق الجاهل درساً في التأدب، عندما أراد أن يمنح شاميت بضعة قروش من أجل الشاي.

سرعان ما حضر الممثل بواسطة عربة خيل لعند سوزان. كل شيء حسب الأصول: باقة ورد. قبلة، ضحك ودموع، ندم وبعض التغاضي.

عندما غادر الشابان، استعجلت سوزان وقفزت على العربة ونسيت أن تودّع شاميت. وفوراً تداركت الأمر، احمرّت، ولوحت له بيدها.

– كوني سعيدة، بما أنـك اخترتِ حياتك برغبتك، – همهم شاميت في إثرها.

– أنا لا أعرف شيئاً، – ردت سوزان ولمعت الدموع في عينيها.

– عبثاً تقلقين يا صغيرتي. – تذمر الممثل الشاب وكرر: – يا صغيرتي الرائعة.

– أتمنى لو أن شخصاً ما يهديني وردة ذهبية! تنهدت سوزان. ربما كان هذا حظي السعيد. أنا أذكر قصتك في الباخرة يا جان.

– من يعرف! ردّ شاميت. في كل الأحوال ليس هذا السيد الصغير من سيحضر لك وردة ذهبية. اعذريني، أنا جندي. أنا لا أحب سمك القرش.

تبادل الشابان النظرات. هز الممثل كتفيه، وانطلقت العربة.

اعتاد شاميت أن يتخلص من كل القمامة التي يجمعها خلال اليوم من أمام محلات الحرف اليدوية. لكن، بعدما حدث مع سوزان، توقف عن التخلص من الغبار الذي كان يجمعه من أمام محال صاغة الذهب. بدأ يجمع الغبار في السر ويأخذه معه إلى الكوخ. قرر الجيران أن الزبّال «جُنّ». قليلون هم الذين يعرفون أن هذا الغبار يحتوي على كمية ما من نثرات الذهب، لأن الصاغة، أثناء عملهم، يبرُدون دائما القليل من الذهب.

قرر شاميت أن يستخلص الذهب من غبار محال الصاغة، ويصنع منه سبيكة صغيرة، ومن هذه السبيكة، وردة ذهبية من أجل سعادة سوزان. وربما، كما قالت له أمه ذات يوم، سعادة العديد من بسطاء الناس. من يعرف! قرر ألا يلتقي مع سوزان إلى حين تكون الوردة جاهزة.

لم يخبر شاميت أي أحد عن نيته. كان يخشى السلطات والشرطة. أفكار كثيرة قد تدور في رؤوس رجال المحكمة عديمي الرحمة. يمكنهم أن يتهموه بالسرقة، وأن يضعوه في السجن، وأن يصادروا الذهب من عنده. فالذهب، رغم كل شيء لغيره.

قبل التحاقه بالجيش، عمل شاميت في مزرعة عند كاهن القرية، ومن ثم كان يعرف كيفية التعامل مع الحبوب. هذه المعرفة أصبحت مفيدة له الآن. تذكّر كيف كانوا ينخلون القمح وتسقط الحبوب الثقيلة على الأرض، أما النخالة الخفيفة فتذروها الريح. صنع شاميت غربالاً صغيراً وصار يغربل في الليل غبار محال الصاغة. بقي شاميت قلقاً إلى أن رأى مسحوقاً ذهبياً بالكاد يمكن لحظه على الصينية.

مرّ الكثير من الزمن إلى أن جمع من مسحوق الذهب ما يكفي لأن يحوله إلى سبيكة. لكن شاميت تمهل قبل أن يعطيها للصائغ كي يصنع منها وردة ذهبية. لم يوقفه نقص المال – فسيوافق أي صائغ على أخذ ثلث السبيكة لقاء عمله، وسيكون مسروراً به.

ليست هذه هي القضية. فمع كل يوم جديد تقترب ساعة اللقاء مع سوزان. غير أن شاميت بدأ، منذ بعض الوقت، يخاف من هذه الساعة. كل الحنان الذي طالما اختزنه عميقاً في القلب، أراد أن يمنحه فقط لسوزي. ولكن من يحتاج إلى حنان مسخ عجوز! لاحظ شاميت منذ فترة طويلة أن

الرغبة الوحيدة للأشخاص الذين قابلوه هي الابتعاد عنه في أقرب وقت ممكن ونسيان وجهه النحيف والرمادي ذي الجلد المترهل وعينيه الثاقبتين.

كان لديه في الكوخ شظية من مرآة. في أحيان نادرة كان شاميت ينظر فيها، لكنه، يقذفها فوراً بعيداً عنه، مصحوبة بشتيمة نابية، فمن الأفضل له ألا يرى نفسه، هذا الشكل الأخرق المرتكز على ساقين مصابين بالروماتيزم.

عندما أصبحت الوردة جاهزة أخيراً، عِلم شاميت أن سوزان سافرت قبل عام من باريس إلى أميركا، وكما قيل، إلى الأبد. لم يستطع أحد أن يخبر شاميت عن عنوانها.

شعر شاميت بالراحة للوهلة الأولى. ولكن بعد ذلك تحول كل انتظاره للقاء حنون ولطيف مع سوزان، لسبب غير مفهوم، إلى شظية حديدية صدئة. انغرزت هذه الشظية في صدر شاميت، قرب قلبه، وصلّى شاميت للرب كي تخترق قلبه العجوز وتوقفه إلى الأبد.

توقف شاميت عن الكنس عند محال الحرفيين. بقي عدة أيام مستلقياً في كوخه، مديراً وجهه للحائط. التزم الصمت، لكنه ابتسم مرّة واحدة فقط، وهو يغلق عينيه بكمّ سترته العتيقة. لكن لم ير هذا أحد. حتى إن الجيران لم يعودوا يزورون شاميت، فلكل منهم ما يكفي من الهموم.

شخص واحد فقط كان يتابع شاميت – الصائغ العجوز الذي صنع من السبيكة الوردة الأكثر دقة وبجانبها بتلة صغيرة على فرع رفيع.

كان الصائغ يزور شاميت، لكن لم يكن يُحضر له الأدوية. كان يعتبر أن لا فائدة منها. وفعلاً، مات شاميت دون أن يلحظ ذلك أحد أثناء إحدى زيارات الصائغ. رفع الصائغ رأس الزبّال، وسحب الوردة الذهبية الملفوفة بشريط أزرق من تحت الوسادة الرطبة، ثم انصرف على مهله بعد أن فتح الباب الذي يصدر الصرير. انبعثت من الشريط رائحة الفئران.

كان الوقت في أواخر الخريف. تحرك الظلام المسائي بفعل الرياح والمصابيح الوامضة. تذكر صائغ المجوهرات كيف تغير وجه شاميت بعد وفاته وقد أصبح صارماً وهادئاً. حتى إن تعبير الأسى على وجهه بدا للصائغ رائعاً.

«ما لا تعطيه الحياة، يجلبه الموت»، – قال الصائغ الذي يميل لقوالب الأفكار، وتنهد بصوت مرتفع.

سرعان ما باع الصائغ الوردة الذهبية لكاتب أدبي مسن، يرتدي ملابس خرقاء، وبحسب الصائغ، ليس غنياً بما يكفي ليحق له شراء مثل هذا الشيء الثمين.

من الواضح أن قصة هذه الوردة الذهبية التي رواها الصائغ للكاتب لعبت دوراً حاسماً في شرائها.

نحن مدينون لمذكرات الكاتب القديم لأن بعض الناس أصبحوا على علم بهذا الحادث المؤسف في حياة جندي سابق من الفوج الاستعماري السابع والعشرين – جان إرنست شاميت.

بالمناسبة، كتب هذا الكاتب في مذكراته: «كل دقيقة، كل كلمة وكل نظرة يتم إلقاؤها عرضاً، كل فكرة أو مزحة عميقة، كل حركة غير محسوسة لقلب الإنسان، بالإضافة إلى زغب الحور المتطاير أو الأضواء في بركة ليلية – كل هذا ذرات من الغبار الذهبي.

نحن، الأدباء، نستخرجها على مدى عقود، ملايين الحبوب من الرمل هذه، نجمعها بشكل غير واضح لأنفسنا، ونحولها إلى سبيكة، ثم نطلق «وردة ذهبية» من هذه السبيكة – رواية، قصة طويلة أو قصيدة.

وردة شاميت الذهبية! تبدو لي نوعاً ما أنموذجاً لنشاطنا الإبداعي.

من المثير للدهشة أن ما من أحد بذل جهداً لكي يتتبع كيف يتشكل من هذا الغبار الثمين تيار وعينا الأدبي الحي.

لكن، مثلما أن وردة الزبّال العجوز خّصصت من أجل سعادة سوزان، كذلك أيضاً فإن أدبنا يجب أن يُخصص من أجل جمال الأرض، والحث على النضال من أجل السعادة والفرح والحرية، من أجل أن تتغلب سعة القلب الإنساني ورجاحة العقل على الجهل وأن تتألق مثل شمس لا تغيب.

# توقيع على صخرة

لا يشعر الكاتب بالسعادة الكاملة إلا حين
يقتنع بأن ضميره يتطابق مع ضمير القريبين منه.
• سالتيكوف شيدرين

أنا أعيش في منزل صغير على الكثبان الرملية. شاطئ بحر ريغا مغمور كله بالثلج. إنه يتطاير طوال الوقت من فوق أشحار الصنوبر العالية على شكل خطوط طويلة وينهمر فوق الغبار.

يتطاير الثلج بسبب الرياح، وكذلك لأن السناجب تتقافز بين الأشجار. عندما يكون الجو هادئاً جداً، يمكن سماعها وهي تقضم بذور الصنوبر.

يقع البيت مباشرة عند البحر. تحتاج، كي ترى البحر، إلى تجاوز البوابة والسير مسافة قليلة فوق الثلج على طول الممر بالقرب من البيت الريفي المغلق.

بقيت الستائر مسدلة على نوافذ هذا البيت منذ الصيف. كانت تتحرك بفعل ريح خفيفة. تمر الريح، على الأغلب، عبر فجوات غير ملحوظة في هذا البيت الريفي الفارغ، لكن يتهيأ لك أن شخصاً ما يرفع الستارة ويراقبك.

لم يتجمد البحر. يتراكم الثلج عند حافة الماء. يمكن رؤية آثار الأرانب فوقه. لا يُسمع هدير الأمواج عندما ترتفع، كذلك لا تُسمع ضجة الارتطام، بل صوت انسحاق الجليد وحفيف ذوبان الثلج.

بحر البلطيق صحراء في الشتاء وكئيب.

يسميه أهل ليتوانيا «بحر الكهرمان». ربما هذا ليس لأن البلطيق يُنتج الكثير من الكهرمان، بل أيضا لأن مياهه تكتسب إلى حد ما لون الكهرمان الأصفر.

كان هناك ضباب كثيف عبر الأفق طوال اليوم. تختفي فيه أطراف الشواطئ العريضة المنخفضة. فقط في بعض الأماكن في هذا الظلام الدامس، تنحدر إلى البحر خطوط بيضاء متعرجة. تُثلج هناك.

في بعض الأحيان، يربض الوز البري، الذي وصل طائراً في هذا العام قبل موعده بكثير، فوق الماء ويزعق. تنتشر صرخاته المقلقة على طول الساحل، لكنها لا تتسبب في ردة فعل - فليس في الغابات الساحلية في فصل الشتاء أية طيور تقريباً.

تجري الحياة بشكل طبيعي في البيت الذي أعيش فيه. يتطاير الجمر في مواقد من البلاط متعددة الألوان، وتصدر عن آلة كاتبة دقات مكتومة، وتجلس عاملة تنظيف صامتة ليلياً في قاعة مريحة وهي تحيك الدانتيل. كل شيء طبيعي وبسيط جداً.

يحيط الظلام الدامس بالبيت في الأماسي، وتقترب منه أشجار الصنوبر، ويغمرك إحساس بالوحدة المطلقة عندما تغادر الصالة الناصعة الإضاءة إلى الخارج، مواجهاً مباشرة الشتاء، البحر والليل.

يمتد البحر مئات الأميال بعيداً في الظلام الرصاصي. ولا تُرى فيه أية أنوار. ولا يُسمع فيه أي صوت.

يقف البيت مثل منارة أخيرة، على حافة الهاوية الغارقة في الضباب. هنا تنقطع الأرض. لهذا من المثير للدهشة أن النور يضيء البيت بهدوء، وتنبعث الأغاني من الراديو، ويكتم السجّاد الناعم صوت الخطوات، كما توجد على الطاولات كتب مفتوحة ومخطوطات.

هناك، باتجاه الغرب، من ناحية فينتسيبليس (مدينة على بحر البلطيق)، خلف طبقة من الضباب، تقع قرية صيادين صغيرة. قرية صيادين عادية صغيرة، تنتشر فيها الشباك المعرضَة للهواء، بيوتها منخفضة الارتفاع، يخرج من مداخنها دخان منخفض، مع قوارب بخارية سوداء يتم سحبها على الرمال، وكلاب موثوقة بشعر أشعث.

يعيش الصيادون اللتوانيون في هذه القرية منذ مئات السنين. جيل يحل

محل جيل. تصبح الفتيات ذوات الشعر الأشقر والعيون الخجولة والصوت الرخيم عجائز سمينات متهدلات، متلفعات بالشالات الثقيلة. ويتحول الشبّان الذين يرتدون قبعات أنيقة إلى مسنين بعيون ساكنة.

وكما منذ مئات السنين، يذهب الصيادون إلى البحر سعياً وراء السمك. وتماماً، كما منذ مئات السنين، لا يعود الجميع. خاصة في الخريف، عندما تكون العواصف في البلطيق شرسة، وتفور رغوة المياه الباردة مثلما في مرجل الشيطان.

لكن، مهما حصل، ومهما اضطر الناس إلى خلع قبعاتهم عندما يعلمون بموت رفاقهم، فعلى الرغم من هذا، فإنه من الواجب الاستمرار في العمل – الخطر والقاسي، المتوارث عن الآباء والأجداد.

ممنوع التراجع أمام البحر.

يوجد في البحر بالقرب من القرية شاهد كبير من الرخام. نقش الصيادون عليه من قديم: «في ذكرى جميع الذين ماتوا وسيموتون في البحر».

يمكن رؤية هذا النقش من مسافة بعيدة.

بدا لي هذا النقش حزيناً عندما علمت عنه، كما كل المرثيات. غير أن الكاتب اللاتواني الذي حدّثني عنه لم يوافقني وقال:

بالعكس، هذا نقش رجولي جداً. إنه يقول إن الناس لن يستسلموا أبداً، وإنهم، على الرغم من كل شيء، سيستمرون في ممارسة عملهم. قد أضع هذا الشعار كمقدمة لأي كتاب عن الجهد الإنساني وعن التحدي. شخصياً، أفهم هذا النقش كما يلي: «في ذكرى أولئك الذين تغلبوا وسيتغلبون على البحر».

وافقته على ذلك وفكرت بأن هذا الشعار يمكن أن يكون مناسباً لكل كتاب عن عمل الكتّاب. لا يستطيع الكتّاب ولا للحظة أن يستسلموا للمحن وأن ينسحبوا أمام العقبات. يجب عليهم، مهما حصل، أن يستمروا في أداء عملهم الموروث من أسلافهم والذي اكتسب ثقة معاصريهم.

ليس عبثاً أن سالتيكوف – شيدرين قال لو صمت الأدب ولو للحظة، فهذا سيكون مساوياً لموت الشعب.

الكتابة ليست حرفة ولا مهنة. الكتابة – إنها رسالة سنكتشف، حين

نتعمق في بعض الكلمات، في وقعها، معناها الأصلي. وُلدت كلمة «رسالة» من كلمة «دعوة». لا يُطلب من الإنسان أبداً أن يمارس الحرفة. ما يُطلب منه فقط هو أن يؤدي واجبه تجاه مهمته الصعبة.

ما الذي يجبر الكاتب على عمله المتعب في بعض الأحيان، ولكن الجميل؟ أولاً وقبل كل شيء – نداء قلبه. لا يسمح صوت الضمير والإيمان بالمستقبل لكاتب حقيقي أن يعيش على الأرض مثل زهرة غير مثمرة، وألا ينقل للناس بسخاء شديد كل التنوع في الأفكار والمشاعر التي تمتلئ نفسه بها.

ليس كاتباً من لم يضف إلى رؤية الإنسان ولو القليل من البصر الثاقب. ليس بنداء القلب وحده يصبح الإنسان كاتباً. غالباً ما نسمع صوت القلب في صبانا عندما لا يكون أي شيء قد قَمع وبعثر عالم مشاعرنا الطازجة.

لكن سنوات النضج تأتي – ونسمع بوضوح، إلى جانب صوت قلبنا، رسالة قوية جديدة – رسالة عصرنا وشعبنا، رسالة الإنسانية.

بناء على توجيهات الرسالة، وانطلاقاً من القناعة الداخلية، يستطيع الإنسان أن يصنع المعجزات وأن يتحمّل أصعب التجارب.

يُعتبر مصير الكاتب الهولندي إدوارد ديكر أحد الأمثلة التي تؤكد هذا. كان ينشر كتاباته تحت اسم مستعار هو «مولتاتولي». ما يعني في اللاتينية «معاناة طويلة».

من المحتمل أنني تذكرت ديكر هنا، على شواطئ بحر البلطيق وقت الغروب، لأن نفس البحر الشمالي الشاحب يمتد قبالة ساحل وطنه – هولندا. قال عنه بمرارة وخجل: «أنا ابن هولندا، ابن بلاد اللصوص الواقعة بين فريزلاند وشيلدت».

لكن هولندا، بالطبع، ليست بلد قطّاع الطرق الحضاريين. أولئك أقلية، لأنهم لا يعكسون وجه الشعب. إنه بلد الناس المحبين للعمل، أحفاد المتمردين على الحكم الإسباني (أواسط القرن السادس عشر)، وكذلك، تيل أولينشبيغل[1].

---

1- بطل أسطوري صدرت حوله رواية للكاتب الفلامندي شارل دي كوستر عنوانها «أسطورة تيل أولينشبيغل»

حتى الآن، «لا يزال الرماد» يغمر قلوب العديد من الهولنديين. يغمر أيضاً قلب مولتاتولي[1].

قادمًا من عائلة سلالة البحارة، تم تعيين مولتاتولي مسؤولاً حكومياً في جزيرة جاوا، وبعد ذلك بوقت قصير، أصبح مقيماً في إحدى مقاطعات هذه الجزيرة. كانت تنتظره الأوسمة والجوائز والثروة ومنصب محتمل كنائب للملك، لكن... «الرماد غمر قلبه». وقد تخلى مولتاتولي عن هذه المكاسب.

وهو حاول، بشجاعة نادرة وإصرار، أن يفجّر من الداخل ممارسة استعباد الجاويين من قبل السلطات والتجار التي استمرت قروناً.

كان يتحدث دائمًا دفاعاً عن الجاويين ولم يوجه لهم إهانة. عاقب بوحشية المرتشين. كما سخر من نائب الملك وشركائه المقربين، بالطبع، المسيحيين الصالحين، مشيراً إلى تعاليم المسيح عن حب الجار في شرح أفعاله. لم يستطيعوا الاعتراض عليه. لكن كان يمكن تدميره.

وقف مولتاتولي إلى جانب الجاويين عندما اندلعت ثورتهم لأن «الرماد استمر يغمر قلبه». كتب بحب مؤثر عن الجاويين، عن أولئك الأطفال السذج، وبغضب - عن مواطنيه. كما فضح الافتراءات الحربية التي لفقها الجنرالات الهولنديون.

الجاويون نظيفون للغاية ولا يتحملون الأوساخ. هذه الخاصية هي ما أخذها الهولنديون بعين الاعتبار.

أمروا الجنود بإلقاء البراز البشري على الجاويين أثناء الهجوم. أما الجاويون الذي تصدوا، دون أن تطرف لهم عين، لأقسى الهجمات بالأسلحة النارية، فلم يتحملوا هذ النوع من الحرب. وتراجعوا.

جرى استبدال مولتاتولي وإعادته إلى أوروبا. وقد سعى بعد سنوات من ذلك أمام البرلمان الهولندي لتحقيق العدالة للجاويين. تحدث عن هذا في كل مكان، قدّم استرحامات للوزراء وللملك.

لكن عبثاً. كانوا يسمعونه من دون رغبة وبنفاد صبر. وسرعان ما أعلنوه

---

1- في الأصل «رماد كلاس يدق على قلبه» وهي عبارة صعبة الترجمة ولم نجد لها تفسيراً متفقاً عليه، وردت في كتاب «أسطورة تيل أولينشبيغل»

إنساناً خطيراً، وحتى مجنوناً. لم يستطع الحصول على عمل في أي مكان. وعانت عائلته من الجوع.

عند ذلك، مستجيباً لنداء قلبه، وبكلمات أخرى، مستجيباً لرسالة كانت إلى الآن غير واضحة، بدأ مولتاتولي الكتابة. كتب رواية تفضح الهولنديين في جاوا: «ماكس هيفيلار، أو تجّار القهوة». لكنها كانت مجرد تجربة أولى. كان يتحسس في هذا الكتاب تربة المهارة الأدبية الرخوة بالنسبة إليه.

لهذا السبب، فإن كتابه التالي – «رسائل الحب» كان مكتوباً بقوة مدهشة. تحققت هذه القوة نتيجة إيمان مولتاتولي الشديد بصحة موقفه.

أحياناً، تذكّرنا بعض فصول الكتاب بصرخة رجل مريرة يشد على شعره أمام رؤية الظلم الوحشي، وأحياناً بالنماذج الجريئة للكتابات الساخرة، وأحياناً بمواساة الأحباء بلطف تتخلله فكاهة حزينة، وأحياناً، المحاولة الأخيرة لاستعادة الإيمان الساذج زمن الطفولة.

«إما أن الله غير موجود، أو أنه يجب أن يكون طيباً، – كتب مولتاتولي. متى سيتوقفون أخيراً عن نهب الفقراء!».

غادر هولندا آملاً أن يكسب لقمة العيش في الخارج. بقيت زوجته مع الأطفال في أمستردام، فلم يكن لديه أي قرش إضافي كي يأخذهم معه. استجدى لقمة العيش في مدن أوروبا وكتب، كتب من دون انقطاع، وهو الإنسان غير المريح للمجتمع الراقي، الإنسان الساخر والمعذّب. لم تصله أية رسائل من زوجته لأنها لم تملك النقود حتى من أجل الطوابع.

كان يفكر بزوجته وبالأطفال، خاصة بالصغير ذي العينين الزرقاويين. كان يخشى أن ينسى هذا الطفل الصغير كيف يبتسم بثقة أمام الناس، ويتوسل الكبار كي لا يتسببوا له بدموع قبل أوانها.

لم يرغب أحد في طباعة كتبه.

ثم نجح الأمر أخيراً! وافقت دار نشر كبيرة على شراء مخطوطاته، لكن بشرط ألّا يعيد نشرها في أي مكان. وافق مولتاتولي المرهق. عاد إلى بلاده. حتى إنهم أعطوه القليل من المال. لكنهم اشتروا مخطوطاته، كي يجردوا، ببساطة، هذا الإنسان من أسلحته.

نُشرت المخطوطات بعدد قليل من النسخ وبسعر مرتفع، وهذا ما يساوي تدميرها.

مات مولتاتولي دون أن ينتظر تحقيق العدالة. وكان بمقدوره أن يكتب الكثير من الكتب الرائعة، – الكتب التي يسر المرء أن يقول عنها إنها لم تكتب بالحبر، بل بدم القلب.

ناضل، قدر استطاعته، ومات. لكنه «قهر البحر». ولربما، سيقيمون لهذا المعذب المخلص تمثالاً في جاوا المستعمَرة، في جاكارتا.

هكذا كانت حياة رجل دمج معاً دعوتين عظيمتين.

كان لموتاتولي في إخلاصه المثابر لعمله زميل معاصر له، وهو هولندي أيضاً، – الرسام فنسنت فان غوغ.

يصعب إيجاد نموذج على نكران الذات من أجل الفن أكثر من حياة فان غوغ. كان يحلم في أن يؤسس في فرنسا «أخوّة للفنانين» – نوعاً من الكومونة، حيث لا يلهيهم أحد عن عملهم في الرسم.

عانى فان غوغ كثيراً. غاص أعمق فأعمق في اليأس البشري في لوحتيه «أكلة البطاطا» و«مسيرة السجناء». كان يعتقد أن عمل الفنان هو مقاومة المعاناة بكل قوته، بكل موهبته.

رسالة الفنان – خلق السعادة. وهو خلقها بتلك الوسائل التي كان يملكها أكثر من غيرها، –الألوان.

أعاد تشكيل الأرض في لوحاته على القماش. كما لو أنه غسلها بماء سحري، وأصبحت مضاءة بألوان ساطعة وكثيفة بحيث تحولت كل شجرة قديمة إلى منحوتة فنية، وكل حقل سنابل – إلى ضوء شمس يتجسد في العديد من خفقات أغصان الورود صنع متقصداً تبدلاً متواصلاً في الألوان، كي نتمكن من الولوج إلى جمالها.

فهل يمكن أن نؤكد بعد هذا أن فان غوغ كان لامبالياً بالإنسان؟ فهو أهدى الإنسان أفضل ما لديه، – قدرته على العيش في الأرض التي تتلألأ بكل الورود الممكنة وبكل طبقات ألوانها الدقيقة.

كان فقيراً، معتزاً بنفسه وغير عملي. تقاسم آخر قطعة خبز مع المشردين وعرف من معاناته الخاصة ما معنى الظلم الاجتماعي. كان يتجنب النجاح الرخيص. هو، بالطبع، لم يكن مقاتلاً. اقتصرت بطولته على إيمان متعصب بالمستقبل الرائع للناس العاملين – المحاربين والعمال والشعراء والعلماء. لا يمكنه أن يكون مقاتلاً، لكنه أراد أن يساهم وأسهم بنصيبه في كنوز المستقبل – بلوحاته التي تمجد الأرض.

اختار فان غوغ، من بين جميع أنواع هذا الجمال، نوعاً واحداً فقط: الضوء. أذهلته دائماً خاصية الطبيعة على الملاءمة من دون خطأ بين الألوان، وتبدلاتها الكثيرة غير القابلة للحصر، وهذا التلوين للأرض المتغير باستمرار، ولكن بنفس الجودة وفي كل أوقات السنة، وكل سعتها.

لقد حان الوقت لتحقيق العدالة لفان غوغ، ولفنانين مثل فروغيل، بوريسوف – موساتوف، غوغان، وغيرهم الكثيرون.

نحن بحاجة إلى كل شيء يثري العالم الداخلي للإنسان في المجتمع الاشتراكي، كل شيء يسمو بحياته العاطفية. فهل من الضروري حقّاً إثبات هذه الحقيقة المؤكدة؟!

من حيث الجوهر، علينا أن نكون مالكين لفنون كل الأزمان وكل البلدان. علينا أن نطرد من بلادنا جميع المنافقين الغاضبين على الجمال، فقط لأنه يوجد مستقلاً عن إرادتهم.

أعتذر عن هذا التحول من مجال الأدب إلى الرسم. أعتقد أن كل أنواع الفن تساعد الكاتب في تحسين مهاراته. لكن هذا سيكون موضوع حديث خاص.

يجب ألا تفقد إحساسك بالمهنة، فلا يمكن استبدالها لا بالحسابات الرصينة ولا بالخبرة الأدبية. في مهنة الكاتب الحقيقي لا توجد على الإطلاق أي صفات من النوع الذي ينسبها إليه المتشككون الرخيصون – لا الحماس العاطفي الزائف، ولا الوعي المفجع من قبل الكاتب لدوره الاستثنائي.

كان بريشفين إنساناً ينتمي إلى مهنة الكتابة غير المشروطة. كرّس حياته لها. لكنه قال أيضًا كلمات رائعة: «أعظم سعادة للكاتب ليست في اعتبار نفسه خاصًا، وحيداً من نوعه، بل أن يكون مثل كل الناس».

# ورودٌ على لحاء الشجرة

غالباً ما أسأل نفسي وأنا أفكر في انشغالاتي الأدبية: متى بدأ هذا؟ وكيف، عموماً، يبدأ؟ ما الذي يجبر الإنسان، بداية، على أن يُمسك بالقلم ولا يفلته إلى نهاية حياته؟

الأكثر صعوبة هو تذكّر كيف بدأ هذا. من الواضح أن الكتابة تبدأ عند الإنسان، كحالة روحية، في وقت أبكر بكثير من بدء الكتابة على أكوام الورق. تبدأ منذ الصبا، وربما أيضا منذ الطفولة.

يوجد العالم بالنسبة لنا، في طفولتنا وصبانا، بنوعية جديدة مقارنة بسنوات النضج. الشمس في الطفولة أكثر حدّة، العشب أكثف، الأمطار أغزر، السماء أنصع وكل إنسان أكثر إثارة للاهتمام.

بالنسبة للأطفال، يبدو كل بالغ مخلوقاً غامضاً بعض الشيء – سواء كان نجاراً مع مجموعة من الأدوات التي لها رائحة النشارة، أو عالِماً يعرف سبب تلوّن العشب باللون الأخضر.

إن الاستقبال الشعري للحياة، لكل ما يحيط بنا، أعظم موهبة اكتسبناها منذ زمن الطفولة. إن لم يفقد الإنسان هذه الموهبة خلال سنوات نضجه فهو شاعر أو كاتب. والفرق بين الحالتين، في نهاية المطاف، ليس كبيراً.

إن الإحساس بالحياة باعتبارها تجديداً متواصلاً – هذه هي التربة الخصبة التي ينمو الفن فيها وينضج.

كتبت القصائد، بالطبع، عندما كنت تلميذاً، بأعداد كبيرة، بحيث ملأت خلال شهر واحد دفتراً سميكاً.

كانت القصائد سيئة – وكما بدت لي آنذاك، أنيقة ورائعة، جميلة إلى حد كبير. نسيت هذه القصائد الآن. أذكر منها فقط بضع أبيات. إليكم، مثلاً:

اقطفوا الزهور من الأغصان المتدلية!
يسقط المطر بهدوء في الحقول.
وفي المنطقة التي يشع فيها غروب الشمس
القرمزي الضبابي،
تتطاير الأوراق المصفرّة...

مع مرور الوقت، راكمت في قصائدي كل أنواع الصياغات التي لا معنى لها، والتي لم أكن قادراً على تفسيرها آنذاك، ولست قادراً حتى الآن. ببساطة، كان يجذبني وقع الكلمات، ولم أفكر بالمعنى.

البحر كان من أكثر ما كتبت عنه. في ذلك الوقت بالكاد كنت أعرف عنه شيئاً.

لم يكن ذاك بحراً محدداً - البحر الأسود، البلطيق أو الأبيض المتوسط، - بل بحر احتفالي «عموماً». احتوى بداخله على تنويعات لونية، على رومانسية مطلقة، منفصلة عن الحياة الواقعية والمساحات الجغرافية الفعلية. أحاطت هذه الرومانسية الكرة الأرضية بعيني، مثل ضباب كثيف.

كان بحراً مرحاً زاخراً بالزبد - مسقط رأس السفن المجنحة والبحارة الشجعان. أنار الضوء الزمردي للمنارات شواطئها. في الموانئ، كانت حياة اللهو تجري على قدم وساق. لقد ساهمت النساء ذوات البشرة الداكنة والسحر الاستثنائي، بإرادة مني، في فوران المشاعر الملتهبة.

الحقيقة أن قصائدي بدأت تصبح مع مرور السنوات أقل أناقة، وصارت تخلو تدريجياً من التعابير الغرائبية.

ولكن، بصراحة، لا يمكن لسنوات الطفولة والمراهقة الاستغناء عن أي شيء غريب مثير للدهشة، سواء ارتبط ذلك بالدول الاستوائية أو بالحرب الأهلية.

من ذا الذي لم يحاصر القلاع القديمة في مرحلة الطفولة، لم يمت على متن سفينة أشرعتها مُزّقت إلى نتف قبالة ساحل مضيق ماجلان أو الأرض الجديدة، لم يندفع على طول سهول الأورال مع تشابايف[1]، لم يبحث عن الكنوز المخفية بذكاء من قبل ستيفنسون في جزيرة غامضة، لم

1- قائد عسكري شعبي وإنسان بسيط من أبطال الحرب الأهلية تروى عنه النكات.

يسمع ضجيج الرايات في معركة بورودينو أو لم يساعد ماوكلي في براري هندوستان الوعرة؟

ينقل العالم الغرائبي الحياة إلى ذلك الجزء من غير العادي الضروري لكل فتى وكائن حساس.

كان الفيلسوف ديدرو محقاً عندما قال إن الفن يتلخص في العثور على غير العادي في العادي والعادي في غير العادي.

كل لقاء من هذا النوع كان بالنسبة لي بداية لحنين غامض.

انقضى جزء كبير من شبابي الفقير والمعذّب أساساً بين القصائد والإثارة غير الواضحة.

سرعان ما توقفت عن كتابة القصائد. أدركت أنها محض بهرجة، ورود من أوراق مزينة جيداً ومذهّبة.

كتبت قصتي الأولى بدلاً من كتابة القصائد. لهذه القصة حكايتها، وسأحدثكم عنها في الفصل التالي.

# القصة الأولى

عدت بالباخرة من مدينة بريبيات إلى منطقة تشرنوبل في كييف. عشت الصيف بالقرب من تشرنوبل، في منزل مهمل للجنرال المتقاعد ليفكوفيتش. قادتني مرشدتي الرائعة إلى عائلة ليفكوفيتش كمدرّس منزلي. كان عليّ أن أحضّر نجل الجنرال الأبكم لإعادة تقديم فحصين في الخريف.

يقع منزل مالك الأرض القديم في أرض منخفضة. يحيط به في المساء ضباب بارد. تتقافز الضفادع في المستنقعات المحيطة به، فيما تسبب رائحة نبات إكليل الجبل الصداع.

كان أبناء ليكوفيتش الأشقياء يطلقون الرصاص من البنادق على البط البري مباشرة من الشرفة مساء وقت شرب الشاي. أما ليكوفيتش، السمين، الأشيب، الغاضب، ذو العينين السوداوين المنتفختين، فكان يجلس في الشرفة طوال اليوم على كرسي مريح، ويختنق من الربو. يصرخ أحياناً بفظاظة:

– ليسوا عائلة، بل عصابة من الكسالى. سكارى، سأطردهم إلى عند عمتهم اللعينة! سأحرمهم من الميراث!

لكن لم يبالِ أحد بصرخاته البغيضة. كانت زوجته المرحة التي لا تزال في مقتبل العمر، لكن البخيلة – «مدام ليكوفيتش»، من يدير شؤون البيت والمزرعة. كانت طوال الصيف ترتدي مشداً يُصدر صريراً.

كان لليكوفيتش، إضافة إلى الأبناء الأشقياء، ابنة في العشرين من العمر. كانوا يلقبونها بجان دارك. كانت تركب من الصباح إلى الليل على ظهر فحل هائج، تمتطيه بطريقة رجولية، وتتقمص شخصية المرأة الشيطانة.

كانت تحب أن تكرر، وغالباً دون معنى، كلمة «أحتقر». مدت ذراعها، عندما عرّفوني عليها، حدقت بعيني وقالت:

– أحتقر!

لم أفكر في كيفية الخروج من هذه العائلة المحمومة، لكني شعرت بارتياح كبير عندما، أخيراً، ركبت العربة فوق القش المغطى بقماشة بجانب الحوذي أغناتي لويولا، فشد أغناتي على حبل اللجام، وانطلقنا في طريقنا إلى تشرنوبل. بمجرد أن خرجنا من بوابة المزرعة كان السكون قد خيّم فوق السهوب المنخفضة. لم نصل إلى تشرنوبل إلا عند الغروب وبتنا ليلتنا في النزل. كانت السفينة قد تأخرت.

يدير النزل يهودي مسن من عائلة تدعى كوشير. سمح لي بالنوم في صالة صغيرة عُلّقت فيها صور أسلافه – مسنين بلحى رمادية يرتدون سترات من الحرير ومسنات متلفعات بشالات من الدانتيل الأسود. كانت رائحة الكاز تفوح من مصباح في المطبخ. ما إن استلقيت على فرشة مرتفعة من الريش القذر حتى هاجمني البق من جميع الشقوق المعتمة. قفزت وارتديت ملابسي بسرعة وخرجت إلى الشرفة. المنزل مبني على رمل الساحل. بالكاد بانت أضواء مدينة بريبيات. تكومت ألواح الخشب على الشاطئ.

جلست على مقعد خشبي في الشرفة ورفعت ياقة معطفي المدرسي. كانت ليلة باردة وشعرت بالقشعريرة. جلس اثنان من الغرباء على الدرجات في الظلام. لم أستطع رؤيتهما. جلس أحدهما يدخن، وجلس الآخر منحنياً، كما لو كان نائماً. كان يُسمع شخير أغناتي لويولا القوي من الفناء، وقد استلقى في عربة فوق القش، فبدأت أحسده.

– القمل؟ – سألني الرجل الذي يدخّن بصوت مرتفع.

عرفته من صوته. كان هو اليهودي القصير الكثيب الذي يرتدي جزمة من دون جوارب. عندما وصلنا أنا وأغناتي لويولا، فتح لنا البوابة إلى الفناء وطالبنا بعشرة كوبيكات مقابل ذلك. أعطيته كوبيكاً. لاحظ كوشير هذا وصرخ عبر النافذة:

– ابتعد عن فنائي يا شحاذ! قلت لك ألف مرّة!

لكن الرجل لم يلتفت نحو كوشير. غمزني وقال:

– هل سمعت؟ كل عشرة كوبيكات يلمسها تحرق يديه. هكذا سيختنق بسبب الجشع، تذكّر هذه الكلمة.

عندما سألت كوشير من هذا الشخص، أجاب على مضض:

– آه يا يوسكا، مجنون. حسنًا، أفهم – إذا لم يكن لديك شيء لتعيش منه، فعلى الأقل احترم الناس ولا تنظر إليهم مثل الملك داوود من عرشه.

– لقاء سرير البق، – قال لي يوسكا وهو يقترب مني، فشاهدت الشعر على وجنتيه، – سوف يطالبك كوشير بكوبيكات إضافية. فطالما يسعى الإنسان للثروة، فلن يأنف عن طلب أي شيء.

– يوسف! – فجأة قال رجل منفعل بصوت غاضب جاف، – لماذا قتلت حبيبتي كريستيا؟ منذ عامين وأنا لا أعرف النوم...

– من الضروري يا نيكيفور ألا يكون عندك ذرة من العقل كي تتفوه بمثل هذه الكلمات القذرة! صرخ يوسف بغضب. – أنا قتلتها؟ اذهب إلى أبيك المقدس ميخائيل واسأله من قتلها. أو اذهب إلى المحقق سوخارينكي.

– دونيا، ابنتي! – قال نيكيفور بيأس. – غابت شمسي في المستنقعات إلى أبد الآبدين.

– يكفي! – صرخ يوسف عليه.

– أتمنى أن أقيم لها صلاة الجناز – وهذا ما لا يسمحون به! – قال نيكيفور دون أن يصغي ليوسف. سأذهب إلى كييف وسأقابل المطران نفسه. لن أغادر قبل أن يعطف عليّ.

– يكفي! ردد يوسف. قد أبيع كل حياتي المزيفة مقابل شعرة واحدة منها. وأنت تقول...

انفجر فجأة بالبكاء، ثم سيطر على نفسه وصار يئن. نتيجة سيطرته على نفسه اندلع من حنجرته أنين خافت.

– ابك يا غبي، قال نيكيفور بهدوء وحتى بتعاطف. – لو لم تكن كريستيا تحبك أيها الوغد البائس، لقضيت عليك فوراً، وتحملت خطيئتك.

– اقض عليّ، – صرخ يوسف. – تفضّل! ربما أريد هذا. الأفضل لي أن أتعفن في القبر.

– كنتَ وستبقى غبياً. ردّ عليه نيكيفور بحزن. عندما أعود من كييف، حينها سأقضي عليك كي لا تسمم لي قلبي. أمرضتني تماماً.

– ولمن ستترك الكوخ؟ سأل يوسف بعد أن توقف عن البكاء.

– ليس لأحد. سأغادره – وأنطلق! حاجتي الآن للكوخ مثل حاجة الميّت للزعوط!

أصغيت لهذا الحوار غير المفهوم. كان الضباب قد تكثّف فوق نهر بريبيات. انبعثت من الألواح الرطبة رائحة حادة مثل رائحة الأدوية. كانت الكلاب حولنا تطلق عواء ضعيفاً.

لو أعرف متى ستصل تلك السفينة اللعينة للنهر! قال نيكيفور بانزعاج. – قد نشرب قليلاً يا يوسف فربما ننتعش. لكن، أين نعثر الآن على المشروب؟

لم تصل السفينة قي الصباح. قال كوشير إنها رست في مكان ما بسبب الضباب ولا داعي للقلق. ففي كل الأحوال ستتوقف في تشرنوبل عدة ساعات. شربت الشاي وغادر أغناتي لويولا.

تسكعت في المنطقة بسبب الضجر. كانت بعض الأكشاك في الشارع الرئيسي قد فُتحت. انتشرت منها روائح سمك الرنجة وصابون الغسيل. كان الحلاق يقف بثوبه المنقط أمام باب صالون الحلاقة تحت لافتة مائلة ترتكز على قضيب واحد ويفصفص بذور عبّاد الشمس.

دخلت لأحلق لأنه لم يكن لدي ما أفعله. غطى الحلاق الذي تنفس بارتياح وجهي برغوة باردة وبدأ يطرح عليّ بلطف أسئلة معتادة في صالونات الحلاقة في المحافظات – من أنا وما الذي أتى بي إلى هذا المكان.

فجأة اندفع الأولاد على طول الرصيف أمام النافذة وهم يصفرون ويثيرون الضجيج. ثم علا صوت يوسف المألوف لي:

لن أدع الأغنية
توقظ حلوتي من حلمها الرائع...

– لازار! صرخ صوت نسائي من وراء حاجز خشبي. –أغلق مزلاج الباب. يوسف سكران من جديد. إلهي! ما الذي يحصل.

أغلق الحلاق الباب بالمزلاج وغطّاه بالستارة.

– ما إن يرى أحداً ما في الصالون، – وضّح لي وهو يتنهد، – حتى يدخل على الفور ويبدأ يغنّي، يرقص ويبكي.

– وما هي مشكلته؟

لكن لم يلحق أن يجيب. فقد خرجت من وراء الحاجز امرأة شابة منزعجة لها عينان تلمعان بسبب التوتر.

– اسمع يا زبون! – قالت. أولاً، مرحباً! ثانياً، لازار أجهل من أن يقول أي شيء لأن الرجل لا يستطيع أن يفهم قلب المرأة. ماذا؟ لا تهزّ رأسك يا لازار! اسمع وفكّر جيداً بما سأقوله لك، كي تعرف إلى أي جحيم يمكن للفتاة أن تذهب بسبب حبها لشاب.

– مانيا، – قال الحلاق، – لا تبالغي.

صرخ يوسف من مكان من بعيد:

عندما أموت، تعالي
إلى قبري، أحضري لي مرتديللا
وزجاجة خمر!

– رهيب! – قالت مانيا. – وهذا يوسف، إنه يوسف الذي كان من المفترض أن يدرس كمساعد طبي في كييف، هو ابن بيسيا، أطيب امرأة في تشرنوبل. الحمد لله أنها لم تعش لترى مثل هذا الخزي. أنت تدرك، أيها الزبون، كم يجب أن تحب المرأة الرجل من أجل أن تتعرض للتعذيب بسببه!

– ما الذي تقولينه يا مانيا!، صرخ الحلاق. – لن يفهم الزبون شيئاً من كلامك؟

– قالت مانيا: كان لدينا معرض. جاء الحطاب الأرمل نيكيفور إلى هذا المعرض من كاربيلوفكا وبرفقته ابنته الوحيدة كريستيا. آه، لو أنك رأيتها! كان يمكن أن تفقد عقلك. سأقول لك، – عيناها زرقاوان، مثل تلك السماء. جدائلها شقراء، كما لو أنها غسلتها بماء الذهب. وكم كانت لطيفة، رقيقة إلى درجة لا يمكن وصفها. إذن، رآها يوسف وفقد القدرة على الكلام. عشقها.

أقول لك إنني لا أرى عجباً في هذا. القيصر نفسه، لو التقى بها لجفت الدماء في عروقه أيضاً. العجيب أنها أحبته. هل رأيته؟ صغير الحجم، مثل هذا الصبي، لونه أحمر، صوته مثل الصرير، لا يفعل شيئًا إلا بمعجزة. باختصار، تخلت كريستيا عن أبيها وانتقلت إلى بيت يوسف. اذهب وشاهد هذا البيت. تصور هذا! المكان لا يتسع لعنزة، فكيف لثلاثتهم. لكن المكان كان نظيفاً. وماذا برأيك؟ استقبلتها بيسيا مثل أميرة. عاشت كريستيا عند يوسف كزوجة. كان يوسف مرحاً، يشع مثل مصباح. وهل تعرف ماذا يعني عندما يعيش يهودي مع سلافية؟ لا يُسمح لهما بعقد الزواج. ثم بدأ اللغو ينتشر بين الناس كما في خم الدجاج. عندها قرر يوسف أن يتنصر وذهب إلى الكنيسة عند الأب ميخائيل، الذي قال له: «كان يجب أن تتنصر من قبل، ومن ثم تُفسد أخلاق الفتاة المسيحية. أنت فعلت العكس. والآن، من دون موافقة مطرانية القدس لا أستطيع أن أعمّدك». شتمه يوسف بكلمة نابية وغادر. ثم تدخّل حاخامنا. كان قد علِم بأن يوسف ذهب ليتنصر ولعنه بسبب هذا داخل الكنيس حتى عاشر جد. وهنا جاء نيكيفور، ارتمى عند قدمي كريستيا وتضرع إليها كي تعود إلى البيت. لكنها فقط استمرت تبكي ولم تقبل أن تعود أبداً. ثم إن أحداً ما حرّض الأولاد كي يصرخوا عندما يشاهدون كريستيا: «هيه، كريستيا، لحم محرّم، أتريدين قطعة؟». ويرمي عليها خفية شخص ما من وراء السياج حفنة من الروث. لطخوا بيت العمة بيسيا كلّه بالقطران، هل تتخيل ذلك؟

– آه، العمّة بيسيا! تنهد الحلاق.

– امرأة حقيقية.

– توقف، دعني أتابع الحديث! – صرخت مانيا عليه. – استدعى الحاخام العمة بيسيا وقال: «أدخلت الزنى إلى بيتك أيتها المحترمة بيسيا إسرائيلوفنا. أنت خالفت القانون. أنا ألعنك وأكللك بالعار مثل امرأة عاهرة. أشفقي على رأسك الأشيب». أتعرف بماذا ردت عليه! « أنت لست حاخاماً، قالت له. – أنت شرطي! الناس يحبون بعضهم بعضاً، فما شأنك بهم كي تزحف عليهم بمخالبك القذرة!». ثم بصقت عليه وانصرفت. بعدها لعنها الحاخام داخل الكنيس.

هكذا يشوّهون سمعة الناس عندنا. لكن، لا تنقل هذا الحديث لأحد. أصبحت هذه القضية الشغل الشاغل للناس في الحي. في النهاية، استدعى سوخارينكو، ضابط الشرطة، يوسف وكريستيا وقال: «سأحولك يا يوسف إلى المحكمة بسبب إهانة راعي الكنيسة اليونانية - الروسية الأب ميخائيل. وستجرب عندي الأشغال الشاقة. وسأجبر كريستيا بالقوة على العودة إلى أبيها. أمهلك ثلاثة أيام للتفكير. لقد أثرت المقاطعة كلها عليّ، وسيوبخني السيد المحافظ بسببك». وعلى الفور وضع سوخارينكو يوسف في الزنزانة، - ذكر لاحقاً أنه أراد فقط أن يخيفه.

وماذا تعتقد أنه حصل؟ لن تصدقني، لكن كريستيا ماتت من الحزن. كان منظرها مثيراً للشفقة. مزقت نياط قلوب الناس الطيبين. بقيت تبكي عدة أيام ثم لم يعد لديها ما يكفي من الدموع، وجفت عيناها، ولم تأكل شيئاً. كانت فقط تتوسل أن يسمحوا لها بلقاء يوسف. وفي يوم الغفران، يوم المحاكمة، نامت مساء، ولم تستيقظ. هكذا استلقت، بيضاء وسعيدة، من المحتمل أنها شكرت الله على أنه خلّصها من هذه الحياة الكريهة. إسألني: لماذا؟ ألا يوجد أناس آخرون في الكون؟ أطلق سوخارينكو سراح يوسف فوراً، وكان فد جنّ تماماً وبدأ من ذلك اليوم يسكر ويستجدي الناس للحصول على الخبز.

- لو كنت مكانه لفضّلت الموت، - قال الحلاق. لأطلقت رصاصة على رأسي.

- أي، كم أنت شجاع! صرخت مانيا - وعندما يجدّ الجد ستهرب من الموت مسافة مائة فرسخ. ليس لديك أي تصور عن كيف يحوّل الحب قلب المرأة إلى رماد.

- أي قلب امرأة وأي قلب رجل! -هزّ كتفيه ورد الحلاق. ما الفرق!

خرجت من صالون الحلاقة وذهبت إلى فناء النزل. لم يكن يوسف هناك ولا نيكيفور. كان كوشير يجلس قرب النافذة مرتدياً سترة ممزقة ويشرب الشاي. كان الذباب السمين يملأ الغرفة.

وصلت السفينة الصغيرة في المساء فقط. توقفت في تشرنوبل حتى الليل. أعطوني مكاناً على أريكة مهترئة في الصالون.

انتشر الضباب في الليل من جديد. كانت مقدمة السفينة موجهة نحو الضفة. بقيت السفينة على هذا الحال حتى وقت متأخر من الصباح، إلى أن انقشع الضباب. لم أعثر على نيكيفور قط. على الأغلب أنه قد سكِر برفقة يوسف.

وصفت هذه الواقعة بالتفصيل لأني، عندما عدت إلى كييف، قمت فوراً بحرق الدفاتر التي تحتوي على قصائدي المبكّرة الأولى. راقبت من دون شفقة كيف تتحول العبارات المنمقة إلى رماد، وتختفي بلا رجعة أوصاف من نوع «رغوة الكريستال»، «سماء الياقوت»، مخيمات الغجر ورقصاتهم.

اتضحت الفكرة على الفور. تبيّن أن الحب لم يترافق مع «الزنابق الضعيفة المحتضرة»، بل مع حفنات الروث. كانوا يلقون بها على ظهر المرأة العاشقة الرائعة. قررت، فيما كنت أفكر بهذا، أن أكتب، كما قلت لنفسي، أول «قصة حقيقية» لي عن مصير كريستيا.

عانيت كثيراً أثناء الكتابة ولم أفهم لماذا تبدو القصة عندي باهتة وضعيفة على الرغم من الموضوع التراجيدي. ثم خمّنت. أولاً، لأن القصة كُتبت بكلمات غريبة عني، وثانياً، لأني اهتممت بحب كريستيا وأنحيت جانباً شروط حياة المدينة الصغيرة المتوحشة.

كتبت القصة. أدهشني أن الكلمات المنمقة والجميلة لم تجد مكاناً لها فيها. تطلبت القصة الصدق والبساطة.

عندما أخذت قصتي الأولى هذه إلى أسرة تحرير المجلة التي نشرت سابقاً لي قصائدي، قال لي المحرر:

– عبثاً أضعت البارود يا شاب.. لا يمكن نشر القصة. سنتعرض للمشاكل بسبب ضابط الشرطة وحده. لكن، عموماً القصة جيدة. احضر لنا أية قصة أخرى. ووقعها، من فضلك، فقط باسم مستعار. أنت تلميذ مدرسة. قد يطردونك من المدرسة بسبب هذا.

استعدت القصة وخبأتها. وفقط في الربيع التالي أخرجتها من مكانها، قرأتها وأدركت أمراً إضافياً: لا يمكن الإحساس بالمؤلف في هذه القصة، لا بغضبه، لا بأفكاره، ولا الانحناء احتراماً أمام حب كريستيا. بعد ذلك أعدت

كتابة القصة وأخذتها إلى المحرر – لا من أجل نشرها، بل لتقويمها. قرأها المحرر بوجودي، نهض، ربّت على كتفي وقال كلمة واحدة فقط: – أهنئك!

هكذا اقتنعت للمرّة الأولى بأن الأهم بالنسبة للكاتب – هو أن يعبّر عن نفسه بأكبر قدر من الكمال والسخاء من خلال أي شيء، وحتى من خلال مثل هذه القصة القصيرة، وأن يعبّر في ذات الوقت عن زمنه وعن شعبه.

لا شيء يجب أن يقيّد الكاتب عند التعبير عن نفسه – لا الخجل الكاذب من القارئ، لا الخوف من تكرار ما قيل سابقاً (لكن بطريقة أخرى)، من قبل كتّاب آخرين، ولا آراء النقاد والمحرر.

يجب، أثناء العمل، نسيان كل شيء وأن تكتب كما لو أنك تكتب من أجلك أو حتى من أجل أعزّ إنسان عليك في العالم. يجب أن تحرر عالمك الداخلي، وأن تفتح له كل المغاليق وأن تندهش فجأة لرؤية أن وعيك يحتوي على أكبر قدر من الأفكار والمشاعر والقوة الشعرية، مما افترضت مسبقاً. تكتسب العملية الإبداعية في مسارها صفات جديدة، وتصبح أكثر تعقيداً وأكثر ثراءً.

هذا شبيه بالربيع والطبيعة. حرارة الشمس ثابتة. لكنها تذيب الثلوج، تسخّن الهواء، التربة والأشجار. تمتلئ الأرض بالضجيج، بالبريق، بتقافز قطرات الماء وذوبانها. للربيع آلاف العلامات، في حين، وأكرر، حرارة الشمس تبقى ثابتة.

كذلك بالنسبة للإبداع. يبقى الوعي ثابتاً من حيث الجوهر، لكن أثناء العمل يثير الوعي دوامات وتيارات وشلالات من الأفكار والصور الجديدة. والأحاسيس والكلمات. لهذا يستغرب الإنسان أحياناً مما كتبه.

يمكن أن يكون الإنسان كاتباً فقط إذا كان لديه ما يقوله للناس من أشياء جديدة، مهمة ومثيرة للاهتمام، أن يكون الإنسان الذي يرى الكثير مما لا يلاحظه بقية الناس. فيما يخصني، سرعان ما أدركت أن ما يمكن أن أقوله قليل جداً. وأن الحماس للإبداع يمكن أن يخفت بنفس السهولة التي يبدأ فيها، إن لم تجر تغذيته. كان مخزون مراقباتي الحياتية شحيحاً جداً ومحصوراً.

كان الكتاب في ذلك الوقت بالنسبة لي يقف أعلى من الحياة وليس العكس، وكان من الضروري أن أملأ نفسي بالحياة إلى أقصى الحدود. توقفت عن الكتابة كلياً لمدة عشر سنوات عندما أدركت هذا، و، كما قال مكسيم غوركي، «دخلت في الناس»، بدأت أتجول في أنحاء روسيا، أغيّر مهنتي وأتعامل مع مختلف أنواع الناس.

لكنها لم تكن حياة مصطنعة، لم أكن مراقباً محترفاً أو مجرد جامع للوقائع. لا! فببساطة، عشت دون أن أحاول كتابة أي شيء أو تذكره من أجل كتب المستقبل.

عشت، اشتغلت، أحببت، عانيت، أملت، حلمت، مدركاً أمراً واحداً – آجلاً أم عاجلاً، في سنوات نضجي، وربما، حتى في شيخوختي، سأبدأ الكتابة، وذلك ليس لأني وضعت هذه المهمة أمامي، بل لأن وجودي تطلّب هذا، وكذلك لأن الأدب كان بالنسبة لي أعظم ظاهرة في العالم.

# البرق

كيف تولد الفكرة الأولية؟

لا توجد، تقريباً، فكرتان أوليتان تظهران وتتطوران بالتساوي. من الواضح أن البحث عن الجواب عن سؤال «كيف تولد الفكرة الأولية» يجب أن يتم ليس بعامة، بل بالعلاقة مع كل قصة منفصلة، مع كل قصة طويلة أو رواية.

الأسهل هو الإجابة عن السؤال حول ما المطلوب كي تظهر الفكرة الأولية، أو، لنقل، بتعبير أكثر دقة، ما هي شروط ولادة الفكرة الأولية. دائماً يجري التحضير لها من خلال حالة الكاتب الداخلية.

ربما من الأفضل تفسير نشوء الفكرة الأولية بواسطة المقارنة. تقدّم المقارنة أحياناً وضوحاً مذهلاً لأكثر الأشياء تعقيداً.

ذات يوم، سألوا عالم الفلك جينس جيمس ما هو عمر كرتنا الأرضية.

– تخيلوا، – أجاب جينس، – جبلاً عملاقاً، ربما جبل البروس في القفقاز. تخيلوا عصفوراً صغيراً وحيداً يقفز وينقر أسفل قاعدة هذا الجبل. إذن، سيحتاج هذا العصفور كي يتمكن من نقر قاعدة الجبل إلى نفس زمن نشوء الأرض.

إن المقارنة التي تساعد على فهم نشوء الفكرة الأولية أبسط بكثير.

الفكرة الأولية – برق. تتراكم الشحنة الكهربائية عدة أيام فوق الأرض. عندما تتشبع بها السماء كلياً، تتحول كتل الغيوم البيضاء إلى سحاب كثيف وتولد داخلها بفضل الشحنة الكهربائية الشرارة الأولى – البرق. وفوراً، على إثر البرق تنهمر الأمطار الغزيرة.

الفكرة الأولية، مثل البرق تماماً، تولد في وعي الإنسان المتشبع بالأفكار، بالأحاسيس والملاحظات المخزونة في الذاكرة. يتراكم كل هذا تلقائياً، ببطء، حتى يصل إلى درجة التوتر التي تتطلب تصريفاً لا مفر منه. ثم إن كل هذا العالم المضغوط والفوضوي إلى حد ما يلد البرق - الفكرة الأولية.

غالباً ما يحتاج ظهور الفكرة الأولية، كما ظهور الرعد أيضاً، إلى دفعة قوية. من يدري ما إذا كانت ستكون لقاءً عابراً، كلمة، حلماً، صوتاً بعيداً، ضوء الشمس في قطرة ماء أو صفارة باخرة. الدفعة قد تكون كل ما هو موجود في العالم حولنا وفي داخلنا.

رأى ليف تولستوي نبتة أرقط مكسورة الساق - واندلع البرق: ظهرت الفكرة الأولية لقصته الطويلة المدهشة عن الحاج مراد. لكن، لو لم يوجد تولستوي في القفقاز لما عرف ولما سمع عن الحاج مراد، ولما أثارت نبتة الأرقط هذه الفكرة عنده. كان تولستوي في داخله جاهزاً لهذا الموضوع ولهذا فقط منحته النبتة الحافز الضروري.

إذا كان البرق هو الفكرة الأولية، فإن المطر هو تجسيد للفكرة. هذه تدفقات متناغمة من الصور والكلمات. هذا كتاب. لكن على العكس من البرق الذي يعمي البصر، فإن الفكرة الأولية قد لا تكون واضحة. «لا تزال أبعاد الرواية الحرة غير واضحة لي من خلال بلورة الكريستال السحري»[1]. وفقط، تنضج الفكرة الأولية بالتدريج، تسيطر على عقل وقلب الكاتب، يعاد التفكير فيها وتزداد تعقيداً.

لكن فإن ما يُطلق عليه وصف «تحميل الفكرة الأولية» يحدث بطريقة مختلفة كلياً عما يتخيله بعض الناس السذّج. إنه لا علاقة له بأن الكاتب يجلس محيطاً رأسه بيديه، أو يتجول وحيداً متوتراً فيما يقلّب أفكاره.

على العكس تماماً. إن بلورة الفكرة الأولية وإثراءها عمليتان تجريان بتواصل، كل ساعة، كل يوم، دائماً وفي كل مكان، وفي كل الأحوال، وخلال الأشغال، الأفراح وأحزان «حياتنا السريعة الجريان».

---

1- من قصيدة بوشكين «يفغيني أنيغين» - المترجم

يجب على الكاتب، كي يُنضج فكرته الأولية، ألا ينفصل عن الحياة وألا يستكين لـ «داخله». على العكس، تزدهر الفكرة الأولية من خلال التفاعل الدائم مع الواقع وتتشبع من خلاصة الواقع. على العموم، هناك آراء واجتهادات كثيرة بشأن طريقة عمل الكتابة. وبعضها يمكن أن يقود إلى اليأس بسبب ابتذالها. أكثر ما يُبتذل هو الإلهام. إنه، تقريباً، يبدو للجاهل على شكل عيني الشاعر المسمرتين نحو السماء وعليهما تعبير إعجاب سببه غير مفهوم أو أسنان تضغط على ريشة أوزة.

يذكر الكثيرون فيلم «الشاعر والقيصر». في هذا الفيلم، نرى بوشكين جالساً، يرفع عينيه إلى السماء حالما، ثم يمسك القلم بشكل محموم، ويبدأ في الكتابة، يتوقف، يرفع عينيه مرة أخرى، ويعض على قلم الريشة ويكتب مرة أخرى على عجل.

كم مرّة شاهدنا تصاوير بوشكين التي يبدو فيها مثل مهووس مندهش! أصغيت في أحد المعارض الفنية إلى حوار مثير للفضول حول تمثال لبوشكين وتبدو عليه نظرة «إلهام». راقبت فتاة صغيرة بوشكين هذا عابسة ثم سألت والدتها:

– ماما، هل يرى حلماً، أم ماذا؟

– أجل يا ابنتي، العم بوشكين يرى حلماً، – ردت الأم بلا مبالاة. إنه بوشكين الذي قال عن نفسه: «لفترة طويلة سأكون لطيفاً مع الناس، وسأوقظ فيهم المشاعر، وأدعو إلى الحرية في عصرنا القاسي والرحمة لمن سقطوا!».

وإذا كان الإلهام «المقدس» «يلقي بظلاله» (بالضرورة «المقدس» وبالضرورة «يلقي بظلاله») على الملحن، فإنه يرفع عينيه، يقود بلطف، لنفسه، تلك الأصوات الساحرة التي بلا شك تبدو في روحه الآن، – كما هو الحال في النصب المخلدة لتشايكوفسكي في موسكو.

لا، الإلهام – هو حالة عمل الإنسان الشاقة. لا يُعبّر عن الارتقاء الروحي بالوضعية المسرحية والحماس. وهذا ينطبق على «المعاناة الإبداعية» السيئة السمعة.

كتب بوشكين عن الإلهام بدقة وبساطة: «الإلهام هو تهيئة النفس لتقبّل الانطباعات الحية، وبالتالي استيعاب المفاهيم، بما يؤدي إلى تفسيرها».

أضاف قائلاً: «يخلط النقّاد بين الإلهام والحماس». مثلما يخلط القرّاء أحياناً بين الحقيقة وشبه الحقيقة.

هذا قد يكون نصف المشكلة ولكن عندما يمزج فنانون ونحاتون آخرون بين الإلهام و«الحماس المستعجل»، يبدو الأمر كأنه جهل تام وعدم احترام لعمل الكاتب الشاق.

أكد تشايكوفسكي أن الإلهام هو الحالة التي يعمل فيها الإنسان بكل قواه، مثل الثور، لكنه لا يلوح بيده بدلع.

أرجو أن تعذروني على هذا التراجع، لكنّ ما ذكرته أعلاه، ليس تافهاً أبداً، إنه دلالة على أن المبتذلين والتافهين لا يزالون أحياء.

يواجه كل إنسان، عدة مرات في حياته على الأقل، حالة من الإلهام – الارتقاء الروحي، والنضارة، والإدراك الحيوي للواقع، وملء الفكر والوعي بقوته الإبداعية.

حقاً، الإلهام هو حالة من العمل الجاد، لكنه يمتلك صبغته الشعرية، وقد أقول، يقدّم شعراً ما بين السطور.

يتوغل الإلهام فينا مثل الصباح الصيفي المشرق الذي تخلّص للتو من ضباب الليل الساكن، المشبع بالندى، وأوراق الشجر الرطبة. إنه ينفث في وجوهنا بلطف برودته المنعشة.

الإلهام – مثل الحب الأول، عندما ينبض القلب متوقعاً لقاءات مدهشة، عيوناً رائعة لا تُوصف، ابتسامات وتجاهلاً. عندما ينتظم عالمنا الداخلي بدقة وصواب، مثل آلة سحرية تستجيب لكل أصوات الحياة، وحتى المخفية وغير الملاحظة.

نجد عند الشعراء والكتّاب العديد من الأوصاف الرائعة للإلهام. «القول الإلهي وحده هو الذي يصل إلى السمع الحسّاس» (بوشكين). «عندما تتصالح روحي مع الخطر» (ليرمونتوف). «يقترب الصوت وتزداد روحي شباباً بعد أن تستسلم له» (بلوك).

وصف تورجينيف الإلهام بـ «الاقتراب من الله»، إضاءة الإنسان بالفكر والشعور. تحدث بخوف عن عذاب غير مسبوق للكاتب عندما يبدأ في ترجمة هذه البصيرة إلى كلمات.

ربما أن ما قاله تولستوي عن الإلهام هو الأبسط: «الإلهام هو أن ما يمكن فعله يتم الكشف عنه فجأة. كلما كان الإلهام أكثر إشراقًا، كان العمل لتجسيده شاقاً أكثر».

ولكن، بغض النظر عن الكيفية التي نحدد بها الإلهام، فإننا نعلم أنه مثمر ويجب ألا يختفي دون أن يترك هدية للناس.

# تمرد الشخصيات

في قديم الزمان، عندما كان الناس ينتقلون من بيت إلى آخر، كانوا يستأجرون المساجين من السجن المحلي كي ينقلوا أغراضهم.

كنا، نحن الأطفال، ننتظر مجيء أولئك المساجين بفضول شديد وشفقة. كان الحرّاس بمسدساتهم الضخمة المعلّقة حول خصورهم يقودون المساجين. كنّا نبحلق بأولئك البشر المرتدين ملابس السجن الرمادية والطواقي الرمادية المدورة.

لكننا، لسبب ما، كنا نراقب أولئك المساجين المقيدين من خصورهم بسلاسل حديدية رفيعة.

كان كل هذا يحدث بالسر. لكن الأمر الأكثر إدهاشاً يتمثل في أن جميع المساجين تقريباً بدوا أشخاصاً عاديين متعبين، وطيبين إلى درجة بحيث لا يمكن أن نصدّق أنهم مجرمون وأشرار. على العكس، لم يكونوا مهذبين فقط، بل ببساطة، دقيقين، وأكثر ما كانوا يخشونه هو أن يُؤذوا أي شخص، أو أن يخرّبوا الأثاث الضخم، أو أن يكسروا شيئاً ما.

صممنا، نحن الأطفال، بموافقة الكبار، خطة خبيثة. كانت أمهاتنا يقدن المشرفين إلى المطبخ لشرب الشاي، فيما نسرع في نفس الوقت لملء جيوب المساجين بالخبز والمرتديللا والسكّر والتبغ، وأحيانا النقود. نأخذها من أهالينا.

كنّا ندرك أن تصرفنا خطر، ونندهش عندما يشكرنا المساجين همساً فيما يتلفتون نحو المطبخ، ويحشرون ما نقدمه لهم داخل جيوب مخفية. أحياناً، كان المساجين يناولوننا الرسائل خفية. وكنّا نلصق الطوابع عليها ونضعها

في صندوق البريد. كنّا نتلفت قبل أن نضع الرسائل في الصندوق: ألا يوجد قربنا حرّاس أو شرطة؟ كما لو أنهم قد يحزرون ماهية الرسائل التي نرسلها.

أذكر من بين المساجين شخصاً ذا لحية رمادية. كانوا يلقبونه بالرئيس. كان يشرف على نقل الأغراض. كانت الأغراض، خاصة البيانو والخزائن، تنحشر بين الأبواب، وكان يصعب إزاحتها، وأحياناً لا تجد لها متسعاً في المكان المخصص لها مهما حاول المساجين تثبيتها. كانت الأغراض تقاوم. كان الرئيس يقول في مثل هذه الحالات بشأن خزانة ما:

– ضعوها في المكان الذي ترغب هي فيه. لماذا تعذّبونها! أنا أنقل الأغراض منذ خمس سنوات وأعرف صفاتها. إن لم يرغب الشيء في أن يوضع هنا، فمهما ضغطنا عليه – فلن يغيّر موقفه.

تذكرت كلام السجين السابق هذا بالعلاقة مع خطط الكتّاب وتصرّفات الأبطال الأدبيين. هناك شيء مشترك بين تصرفات الأغراض وأولئك الأبطال. غالباً ما يدخل الأبطال في صراع مع المؤلف، وتقريباً، ينتصرون عليه دائماً. لكني سأتحدث عن هذا لاحقاً.

بالطبع، معظم الكتّاب، تقريباً، يخططون من أجل أشيائهم المستقبلية. البعض منهم يصممونها بدقة وبالتفصيل. آخرون – بشكل تقريبي. لكن ثمة كتّاباً تتكون خطتهم من بضع كلمات تبدو كأن لا قاسم مشتركاً بينها. والكتّاب الذين يمتلكون موهبة الارتجال هم فقط الذين يستطيعون الكتابة من دون خطة مسبقة.

كان بوشكين أكثر الكتّاب الروس امتلاكاً لهذه الموهبة في أقصى درجاتها، ومن بين المعاصرين – ألكسي نيكولايفتش تولستوي. أوافق على فكرة أن الكاتب العبقري يمكنه أيضاً الكتابة دون أي خطة. العبقرية غنية بطبيعتها بأي موضوع، أية فكرة، حالة أو موضوع، تسبب له تياراً لا ينضب من التداعيات.

قال تشيخوف الشاب لكورولينكو:

لديك على المائدة منفضة سجائر. إذا أردت، سأكتب قصة عنها الآن.

وكان سيكتبها، بالطبع.

يمكنك أن تتخيل إنساناً التقط روبلاً مرمياً في الشارع، وشرع في كتابة روايته انطلاقاً من الروبل، بدأ يكتب روايته بنوع من الاستخفاف، بسهولة وبساطة. لكن، سرعان ما تصبح الرواية أعمق وأوسع، تمتلئ بالشخصيات، بالأحداث، بالضوء، بالألوان، وتتدفق بحرية، كأنها تلاحق المخيلة، وتطالب الكاتب بتضحيات جديدة، تطالب الكاتب بأن يمنحها احتياطيه الثمين من الصور والكلمات.

وهكذا، من خلال السرد القصصي، الذي يبدأ من مصادفة، تبرز الأفكار، تبرز مصائر الناس المعقّدة. ويصبح الكاتب عاجزاً عن التصرف بسبب قلقه. وهو، مثل ديكنز، يبكي فوق صفحات مخطوطته. يتأوه من الألم، مثل فلوبير، أو يقهقه، مثل غوغول.

ويؤدي صوت خافت ينطلق من بندقية صيد إلى أن ينحدر من الجبال سيل من الثلج يلمع. وسرعان ما يتحول إلى نهر ثلجي، يندفع نحو الأسفل، وخلال بضع دقائق يغطي الانهيار الجليدي الوادي مسبباً ضجة في الشعاب ويملأ الهواء بالغبار المتلألئ.

يذكر العديد من الكتاب هذه السهولة في خلق عالم إبداعي عند الناس العباقرة، الذين، علاوة على ذلك، يمتلكون موهبة الارتجال.

ليس عبثاً أن باراتينسكي قال عن بوشكين الذي يعرفه جيداً:

... بوشكين الشاب، هذا الإنسان اللامع،
كل شيء ينهال من قلمه بخفة دم وحيوية...

سبق لي أن ذكرت أنّ بعض الخطط تبدو تجميعاً للكلمات. وإليكم مثالاً بسيطاً. لي قصة بعنوان «ثلج». كتبت قائمة ملاحظات على ورقة قبل أن تظهر القصة للوجود، والقصة وُلدت من هذه الملاحظات. فكيف هي هذه الملاحظات؟

« كتاب منسي عن الشمال. اللون الرئيسي للشمال – بلّور. بخار تحت النهر. نساء يغسلن الغيارات في فتحات الجليد. بخار. نقش على جرس عند ألكساندرا إيفانوفنا: «أنا عالقة عند الأبواب، – اتصل بي بمرح!». «والجرس

الصغير هدية فالداي، يرن بملل تحت القوس». يسمونهم «هدايا فالداي». حرب. تانيا. أين هي، في أي مدينة خاوية؟ وحيدة. قمر ضجِر خلف الغيوم، مسافة مخيفة. حياة مضغوطة في دائرة ضوء صغيرة. بسبب المصباح. شيء ما يصدر أصواتاً طوال الليل فوق الجدران. الأغصان تخدش الزجاج. نادراً ما نخرج من البيت في أشد أوقات ليالي الشتاء حلكة. يجب التحقق من هذا... الوحدة والانتظار. قط مسن منزعج. لا يمكن إرضاؤه. يبدو كل شيء مرئيًا - حتى الشموع الملتوية على البيانو، ولكن حتى الآن لا شيء آخر. بحثت عن شقة فيها بيانو «المغنية». قصة عن الانتظار. التهجير. بيت غريب. قديم الطراز، مريح. نبتة توت صغيرة. رائحة تبغ عتيق. مكتب من خشب الجوز وبقع على الغطاء الأخضر. فتاة. ساندريللا. مربية. لا أحد بعد. حب، يقولون، يجذب عن بعد. يمكن كتابة قصة فقط عن الانتظار. انتظار ماذا؟ من؟ هي نفسها لا تعرف هذا. هذا يفطر القلب. على تقاطعات مئات الطرق يتلاقى الناس بالصدفة، غير عارفين، أن كل حياتهم السابقة كانت تهيئة لهذا اللقاء. نظرية الاحتمالات. بالقياس إلى قلوب البشر. كل هذا سهل على الأغبياء. البلاد تغرق تحت الثلوج. حتمية نشوء الإنسان. تصل رسائل إلى إنسان ميت من شخص ما. يصفطونها فوق الطاولة. المفتاح - يكمن هنا. أية رسائل؟ ماذا فيها؟ بحّار. ابن. الخوف من توقع عودته. الانتظار. لا حدود لطيبة القلب. تحولت الرسائل إلى واقع. من جديد شموع ملتوية. بنوعية مختلفة. ملاحظات. منشفة عليها رسوم أوراق شجر البلوط. بيانو. دخان حطب الحور. الضابط. كل التشيكيين موسيقيون جيدون. مغطى حتى العينين. كل شيء واضح!».

هذا ما يمكن أن يسمى مخططاً لهذه القصة. إذا ما قُرِئت هذه الملاحظات دون معرفة مسبقة بالقصة، فستبدو مشتتة وغامضة، إنما هي تتلمس طريقها باستمرار نحو الموضوع والحكاية.

ما الذي يحدث لخطط الكتابة الأكثر دقة، المدروسة والمتحقق منها؟ الحقيقة هي أن حياتها، في الغالب، قصيرة. بمجرد ظهور الشخصيات في النص الذي بدأ، وبمجرد أن يبدأ هؤلاء الأشخاص، بإرادة المؤلف، في الحياة، فسيبدأون على الفور في مقاومة الخطة والدخول في صراع معها.

يتطور النص حسب منطقه الداخلي، الذي، بالطبع، أعطاه الكاتب له. يتصرف أبطال النص وفقاً لصفاتهم الشخصية الخاصة، على الرغم من أن خالق هذه الشخصيات هو الكاتب.

إذا أجبر الكاتب شخصياته على التصرف عكس منطقها الداخلي، لو أنه أدخلها بالقوة في إطار الخطة، فستبدأ الشخصيات تضعف وتتحول إلى قوالب متحركة وروبوتات.

عبّر ليف تولستوي ببساطة عن هذه الفكرة. اتهم أحد زوار ياسنايا بوليانا (مزرعة تولستوي) تولستوي بأنه تعامل بقسوة مع آنا كارينينا إذ أجبرها على أن تلقي بنفسها تحت القطار. ابتسم تولستوي وردّ:

يذكّرني رأيك هذا بحادثة جرت مع بوشكين. قال ذات يوم لأحد معارفه: «تخيل أي مزحة مزحتها معي تاتياتا. فقد تزوجت. لم أتوقع هذا منها قط». أستطيع أن أقول نفس الشيء عن آنا كارينينا.

عموماً، يمارس أبطالي وبطلاتي أحياناً مثل هذه المزحة التي قد لا أرغب بها! إنهم يفعلون ما يجب عليهم أن يفعلوه في الواقع الحياتي وكما يحصل في واقع الناس، وليس ما أرغب فيه.

يعرف جميع الكتّاب جيداً حالة عدم انصياع الأبطال هذه. «في وسط انهماكي في العمل، - قال ألكسي نيكولايفتش تولستوي، - لا أعرف ما الذي ستقوله الشخصية بعد خمس دقائق. أنا أتابعها مندهشاً».

يحصل أن تزاحم شخصية ثانوية الشخصيات الأخرى، وتصبح هي الشخصية الرئيسية. تحوّل كلّ سير السرد وتقوده خلفها.

يبدأ النص فعلاً، بكل قواه، في العيش داخل وعي الكاتب فقط أثناء العمل عليه. لذا لا يوجد في انهيار الخطط وانعطافها أي شيء مستغرب وأي شيء مأساوي. بالعكس، هذا طبيعي ويدلّ فقط على أن الحياة الفعلية أزاحت وحطمت بزخمها الحي إطار خطة الكاتب الأولية. لكن هذا لا يسيء بأي حال من الأحوال إلى الخطة، لأن دور الكاتب لا يقتصر على كتابة كل شيء وفق ما تمليه عليه الحياة. بعد كل شيء، يتم تحديد حياة الصور في عمله من خلال وعي الكاتب، وذاكرته، وخياله، وتجربته، وتكوينه الروحي بأكمله.

# قصة طويلة
# «كوكب المريخ»

سأحاول أن أتذكر كيف نشأت الفكرة الأولية لقصتي الطويلة «كارا – بوغاز». كيف حدث كل هذا؟

أثناء طفولتي في كييف، عند جبل فلاديميرسك أعلى نهر الدنيبر، كان يظهر كل مساء رجل مسن يرتدي قبعة متربة ذات طرفين يتدليان من جانبيها. كان العجوز يجلب معه تيليسكوباً مستهلكاً ويضعه على حامل حديدي يرتكز على ثلاثة قضبان ملتوية.

كانوا يطلقون عليه اسم «النجمي» ويعتبرونه إيطالياً لأنه كان يتقصد أن يلفظ الكلمات الروسية بلكنة أجنبية. بعد أن يثبّت التليسكوب، كان العجوز يقول بصوت مرتفع رتيب:

سيداتي سادتي المحترمين! بوينا جورنو! يمكنكم مقابل خمسة كوبيك الصعود من الأرض إلى القمر ومختلف النجوم. أنصحكم بشكل خاص بمشاهد الكوكب الشرير المريخ بلونه الشبيه بالدم البشري. الذي ولد تحت شارة المريخ، يمكن أن يموت على الفور في الحرب من طلقة رصاص.

كنت ذات يوم مع والـدي عند جبل فلاديميرسك وتفرجت في التلسكوب على كوكب المريخ. شاهدت ثقباً أسود وكرة حمراء معلّقة من دون دعامة وسط هذا الثقب. بدأت الكرة، في الوقت الذي كنت أراقب فيه المريخ، بالانحراف وغابت خلف حافة التلسكوب النحاسية. أمال النجمي التلسكوب قليلاً وأرجعه إلى وضعه الطبيعي، لكنها بدأت على الفور في الانحراف نحو الحافة النحاسية.

– ماذا ترى؟ سألني والدي. – هل ترى أي شيء؟

– نعم، أجبته. – حتى إنني أرى القنوات.

كنت أعرف أنه يعيش في المريخ أناس – المريخيون – وأنهم، لسبب مجهول، حفروا قنوات ضخمة في الكوكب.

حسناً، لنفترض هذا! – قال والـدي. – لا تؤلف! أنت لا ترى أي قنوات. لاحظهم فقط فلكي واحد هو الإيطالي سكيابارييللي – إنما عبر تليسكوب كبير.

لم يتأثر النجمي قط عند سماعه اسم مواطنه الإيطالي سكيابارييللي.

– وأرى أيضاً كوكباً ما إلى اليسار من المريخ، – قلت غير واثق. لكنه، لسبب ما، يركض في السماء في جميع الاتجاهات.

– لكن، أي كوكب هذا! صرخ النجمي. –هذه أفعى دخلت في عينك. أمسكني بقوة من ذقني وأخرج القذى من عيني بمهارة.

جعلتني رؤية المريخ أشعر بالبرد والضيق. وشعرت بالراحة وأنا أبتعد عن التليسكوب، وبدت لي شوارع كييف بأضوائها الخافتة وضجيج العربات ورائحة غبار شجر الكستناء المزهر مريحة وآمنة.

لا، لم تكن لي في ذلك الوقت أي رغبة في أن أنتقل من الأرض إلى القمر أو المريخ!

لماذا هو أحمر؟ – سألت والدي.

أخبرني والدي أن المريخ – كوكب يموت، وأنه كان رائعاً مثل أرضنا، – فيه بحار، سلاسل جبلية وخضار كثيف، لكن البحار والأنهار جفت بالتدريج، نشف الخضار، انهارت الجبال كلياً، وتحول المريخ إلى صحراء رملية جرداء. من المعتقد أن جبال المريخ كانت من الحجر الأحمر، لهذا فإن رمال المريخ حمراء اللون.

– إذن، المريخ كرة من الرمال؟ – سألته.

– نعم، على الأغلب، – وافقني والدي. – ما حصل مع المريخ يمكن أن يحصل مع أرضنا. ستتحول إلى صحراء. لكن هذا سيحصل بعد ملايين

السنين. لذا لا تخف. كما أن الناس سيبتكرون شيئاً جديداً حتى هذا الزمن ويوقفون هذا الهراء.

أجبته بأني لست خائفاً على الإطلاق. لكني في الحقيقة شعرت بالرعب والغضب بشأن أرضنا. إضافة إلى أنني علمت في البيت من أخي الأكبر أن الصحاري تحتل تقريباً نصف مجموع مساحة الأرض.

منذ ذلك الحين، أصبح الخوف من الصحراء (على الرغم من أنني لم أرها حتى ذلك الحين) ملازماً لي. وعلى الرغم من أنني قرأت في مجلة «حول العالم» قصصاً شيقة عن الصحراء وهضابها، عن «سفن الصحراء» – الجمال، لكنها لم تغرِني.

سرعان ما قيّض لي اختبار تعارفي الأول مع الصحراء. وهذا ما زاد من خوفي منها.

سافرت مع كل عائلتي في الصيف إلى القرية لزيارة جدي مكسيم غريغوريفتش. كان الصيف ماطراً ودافئاً. نمت الأعشاب بكثافة. نما نبات القرّاص بحجم طول الإنسان. امتد بغزارة وسط الحقول. انتشر الشبت المليء بالعصارة في الحدائق. كل شيء كان يوحي بمحصول جيّد.

لكن، عندما جلست مع جدي في أحد الأيام على ضفة النهر ألتقط أسماك الصيد الصغيرة، نهض جدي بسرعة فجأة، وغطى عينيه ليحميهما من الشمس، وتطلع إلى الحقول خلف النهر لفترة طويلة، ثم بصق في حالة إحباط وقال:

– الشيطانة تتدحرج بسرعة! أتمنى أن تختفي إلى الأبد.

التفت نحو الاتجاه الذي نظر إليه جدّي، لكني لم أر شيئاً باستثناء زوبعة غبار ممتدة مثل رمح كانت تقترب بسرعة. اعتقدت أنها عاصفة تقترب، لكن جدي قال:

– إنها جافة! عليها اللعنة. رياح من بخارى، من الصحراء، كل شيء سيحترق. يا لها من مصيبة تجتاحنا، لهيب. لن يبق هواء لنتنفس.

اجتاحت زوبعة شريرة أرضنا واتجهت نحونا مباشرة. مسح جدي بسرعة عكازه المصنوع من خشب البندق وقال لي:

– أهرع إلى الكوخ، وإلا سيملأ الغبار عينيك. أنا سأتبعك. أسرِع.

ركضت نحو الكوخ، لكن الغبار الجاف داهمني وسط الطريق. هبّت الدوامات، مشبعة بالرمال، وحملت ريش العصافير نحو السماء. ألقى ضباب كثيف بظلاله على كل شيء. أصبحت الشمس فجأة مغبّرة وقرمزية، مثل المريخ. كان الحر شديداً خلفي بحيث شعرت كما لو أن ظهري عار. دخل الغبار بين أسناني وحرق عيني.

وقفت جدتي فيودوسيا مكسيموفنا عند عتبة الكوخ وهي تحمل بيدها أيقونة ملفوفة بقماشة مطرزة.

إلهي، أنقذنا وارحمنا! همهمت خائفة. – أعطفي علينا يا عذراء مقدسة.

هبّ الإعصار فوق الكوخ وهو يدور على نفسه. قرقع زجاج النافذة غير الممعجن جيداً. تطاير القش من الأشجار الكثيفة، وخرجت من تحته، مثل رصاصات سوداء، أسراب العصافير.

لم يكن والدي معنا في ذلك الوقت – إذ بقي في كييف. كان واضحاً أن والدتي قلقة.

أذكر أن أقسى شيء كان الحرّ المتزايد. فكّرت بأن القش فوق السطح سيحترق خلال ساعتين، وبعد ذلك سيحترق الشعر والملابس. لهذا بكيت. عندما حلّ المساء كانت أوراق الشجر قد تدلت وارتخت مثل خِرق جافة. بحلول الصباح، أصبحت أوراق الشجر ذابلة وجافة.

كان يمكن سحق الأوراق الساقطة بالأصابع. اشتدت الرياح. وبدأت تُسقط الأوراق الميتة القذرة، وأصبحت العديد من الأشجار عارية، كما في أواخر الخريف.

ذهب جدي إلى الحقل وعاد محبطاً وفي حالة مزرية. عجز عن فكّ أزرار قميصه، وكانت يداه ترتعشان، ثم قال:

إن لم تهدأ الرياح في الليل فستقضي على كل شيء حي. البساتين والحقول.

لكن الرياح لم تهدأ. استمرت تصفّر على مدى أسبوعين، ثم هدأت قليلاً، ثم هبت بقوة من جديد. تحولت الأرض أمام أعيننا إلى مساحة رمادية.

ناحت النساء في الأكواخ بصوت عال. جلس الرجال على الأنقاض متلفعين بالأغطية، يختبئون من الريح، ينكشون الأرض بالعصي، ويقولون أحياناً:

هذه حجارة وليست أرضاً! الموت مكتوب علينا. ولا مجال للهرب منه.

حضر والدي من كييف ونقلنا إلى المدينة. ردّ عليّ بلا مبالاة عندما سألته عن الجفاف:

– ضاع المحصول. الصحراء تزحف على أوكرانيا.

– وهل يمكن فعل شيء؟ – سألته.

– لا شيء. لن تبني جداراً حجرياً عالياً على امتداد ألفي فرسخ.

– لماذا؟ سألته، – فقد بنى الصينيون جدارهم العظيم.

– هكذا هم الصينيون، – ردّ والدي. – هم كانوا أساتذة حرفيين عظماء.

قد يبدو أن هذه الانطباعات الطفولية نُسيت مع الزمن. لكنها، بالطبع، لا تزال حية. وأحيانًا تنفجر في أعماق ذاكرتي. في معظم الأحيان خلال فترات الجفاف، التي تسبب لي دائمًا قلقًا لا يمكن تفسيره.

أحببت روسيا الوسطى في سنوات نضجي. من المحتمل أن سبب ذلك الحب يعود إلى نضارة طبيعتها، ووفرة مائها البارد الصافي، وغاباتها الرطبة ومطرها الغزير. لذلك، عندما زحف الجفاف على روسيا الوسطى واخترقها مثل إسفين حاد، تحوّل قلقي إلى غضب شديد على الصحراء.

# عواصف رعدية

مرّ زمن طويل ثم ذكّرتني الصحراء بنفسها من جديد. سافرت في العام 1931 إلى مدينة ليفني في محافظة أورلوف. كنت أحضّر في ذلك الحين لطباعة روايتي الأولى المكتوبة منذ زمن، وقد مِلت للذهاب إلى بلدة صغيرة حيث لا يوجد أي أحد من المعارف، وحيث يمكنني التركيز دون أن يزعجني أي شيء أو أي أحد في عملي.

لم يسبق لي قط أن كنت في ليفني. أحببت المدينة لنظافتها، والعديد من أشجار عباد الشمس المزهرة فيها، وجسورها المبنية من الألواح الحجرية الصلبة ونهرها الذي حفر الممرات في سُمك الحجر الجيري الأصفر.

استأجرت غرفة في الضواحي في منزل خشبي متداع يقف على منحدر أعلى النهر. خلف المنزل، امتدت حديقة نصف جافة قرب ضفة النهر. كان لدى العجوز مالك البيت الخجول - بائع الصحف في كشك المحطة - زوجة نحيفة كئيبة وابنتان: الكبرى - أنفيسا، والصغرى - بولينا.

عندما كانت بولينا - الضعيفة، الحساسة، تتحدث معي، وكانت طوال الوقت تلهو بجديلة شعرها محرجة. كانت في السابعة عشرة من عمرها.

كانت أنفيسا فتاة متعالية تبلغ من العمر تسعة عشر عامًا، ذات وجه شاحب، وعيون رمادية صارمة وصوت منخفض. كانت تمشي متشحة بالسواد، ولم تكن، تقريباً، تفعل شيئًا في المنزل - فقط تمضي ساعات في الحديقة فوق العشب الجاف وتقرأ.

كان المخزن مليئاً بالكتب التي قضمتها الفئران، ومعظمها كتب كلاسيكية أجنبية. كنت أيضا أستعير هذه الكتب من المخزن.

لاحظت أنفيسا عدة مرات من الأعلى، من الحديقة، وهي تجلس على ضفة النهر. تجلس فوق منحدر عند شجيرات الزعرور، بجانب فتى نحيل، هادئ، أشقر الشعر، واسع العينين، في السادسة عشرة من العمر تقريباً.

كانت أنفيسا تُحضر له الطعام سراً إلى الضفة. كان الفتى يأكل فيما تنظر إليه أنفيسا بحنان، وأحياناً تمسّد له شعره. رأيتها مرة وهي تغطي عينيها براحتيها فجأة وتجهش بالبكاء. توقف الفتى عن الأكل ونظر نحوها مرتعباً. انسحبت بهدوء وحاولتُ لفترة طويلة ألا أفكر بأنفيسا والفتى. لكني اعتقدت بسذاجة أنه في ليفني الهادئة لن ينتزعني أحد من بين أولئك الناس، والأحداث التي كتبت عنها في روايتي! لكن الحياة حطمت آمالي الساذجة على الفور. بالطبع، لم يكن ممكناً الحديث حول أي تركيز أو هدوء من أجل العمل إلى أن اكتشف ما حدث لأنفيسا. كنت قد فكرت، وحتى قبل أن أراها مع الفتى، وأنا أنظر إلى عينيها المتعبتين، أن في حياتها سرّا ما مؤلماً.

هذا ما بدا لي.

استيقظت بعد بضعة أيام في منتصف الليل على هدير الرعود. غالباً ما كانت العواصف تتكرر في ليفني. فسّر السكان ذلك بحقيقة أن ليفني تقف على رواسب خام الحديد وأن هذا الخام «يجتذب» العواصف الرعدية.

انتشر الليل خلف النوافذ، يلمع أحيانا ضوء نار، وأحيانا أخرى، يتحول إلى عتمة كالحة. ثم سمعت أنفيسا تصرخ:

– من اخترع هذا؟ في أي قانون مكتوب أنه ممنوع عليّ أن أحبّه؟ أروني هذا القانون! منحتموني الحياة، فلا تحرموني منها. إنه يذوي يوماً بعد يوم، مثل شمعة. مثل شمعة! – صرخت ثم شهقت.

– اعقلي يا أمها! –صرخ المالك على زوجته غير واثق. – دعيها تعيش، حمقاء، حسب ما يمليه قلبها. لا يمكنك مجاراتها. وأنت يا أنفيسا، لن تحصلي مني على قطعة نقود واحدة.

– لست بحاجة إلى نقودك اللعينة! – صرخت أنفيسا. – سأحصل عليها بعملي، سآخذه إلى القرم. قد يعيش هناك عاماً إضافياً. سأغادركم في كل الأحوال. سيلحق بكم العار. اعرفوا هذا!

بدأت أخمّن ما يحدث. كان أحد ما يبكي ويمخّط في الممر خلف الباب.

فتحت الباب ورأيت بولينا عبر بصيص ضوء نتج عن البرق. كانت واقفة تضغط بجبينها على الجدار وتتلفع بشال طويل. ناديتها بهدوء. أرعدت السماء ـ وبدا كأنها، بضربة واحدة، ستهوي بالبيت من السقف إلى الأرض. أمسكت بولينا بيدي وهي مرتعبة.مكتبة سُر مَن قرأ

إلهي! – همست. – ماذا سيحدث؟ هذا إضافة إلى العاصفة!

أخبرتني همساً أن أنفيسا أحبت كوليا، ابن الأرملة كاربوفنا، من كل قلبها. تتردد كاربوفنا على البيوت حيث تعمل خادمة. هي امرأة هادئة صموت. وكوليا مريض بالسل. أنفيسا مزاجية، حادة الطبع، لا يقدر أحد عليها. وهي إما تفعل ما تريد، أو تكف يديها.

خمدت الأصوات خلف الجدار فجأة. ركضت بولينا إلى غرفتها. استلقيت، لكني بقيت أتنصت لفترة طويلة ولم أستطع أن أغفو. كان كل شيء هادئاً في البيت. ثم شعرت بالنعاس. سمعت أثناء النعاس هدير الرعد ونباح الكلاب. غفوت بعد ذلك. نمت، على الأغلب، فترة قصيرة. أيقظني قرع قوي على الباب. كان هذا مالك البيت.

– حلّت بنا مصيبة، – قال من خلف الباب بصوت ضعيف. – اعذرني على الإزعاج.

– وماذا حصل؟

– أنفيسا هربت. بما عليها من ملابس. سأذهب إلى سلوبود، إلى كاربوف. على الأغلب، إنها ذهبت إلى هناك. وأنت من فضلك، ابق مع زوجتي. لقد فقدت ذاكرتها.

ارتديت ملابسي بسرعة، قدّمت شاياً ساخناً لصاحبة البيت. نادتني بولينا، وخرجت معها إلى الشرفة. لا أستطيع أن أشرح لماذا، لكني كنت أعرف أن مصيبة ستحصل.

– لنذهب إلى الضفة، – قالت بولينا بصوت منخفض.

– هل لديك فانوس؟

– لدي.

– أحضريه بسرعة.

أحضرت بولينا فانوساً خافت الضوء، وانحدرنا عبر الممر الزلق نحو النهر. كانت متأكدة من أن أنفيسا في مكان ما قريب من هنا.

– أنفيسا – ا – ا! – صرخت بولينا فجأة بيأس، ولسبب ما أشعرني هذا الصراخ بالخوف. «عبثاً تصرخ! –فكرت. –عبثاً!».

أومض البرق خلف النهر ضعيفاً خفيف التأثير. وصار الرعد يخفت. وكانت قطرات المطر تسقط من أوراق الشجر. هبطنا إلى الأسفل بموازاة النهر. ضوء الفانوس كان ضعيفاً. ثم، فوق رأسي مباشرة، أضاء السماء برق متأخر، وفي الضوء رأيت على الضفة شيئًا ما أبيض أمامي.

اتجهت نحوه وانحنيت فوقه. شاهدت فستان أنفيسا وسترتها. ثم انتبهت إلى حذائها الموحل. صرخت بولينا واستدارت واندفعت نحو البيت.

ركضتُ إلى العبارة وأيقظت الناقل. جلسنا في القارب وأبحرنا، وأثناء عبور النهر من ضفة إلى أخرى كنت أتفحص المياه.

– لن نعثر على شيء في الليل، خاصة مع هذا المطر! –قال الناقل وتثاءب – كان لا يزال ناعساً.

– لن نعثر على شيء قبل طلوع الضوء مهما بحثنا. تعرف أن الموت لا يرحم الجميلات. هذا هو الحال يا عزيزي. تعرّت كي يصبح موتها أسهل. يا لها من فتاة.

عثروا على أنفيسا صباح اليوم التالي قرب المستنقعات. في التابوت كانت جميلة بشكل لا يوصف، بضفائرها الرطبة الثقيلة من الذهب الخالص وابتسامة مذنبة على شفتيها الشاحبتين.

قالت لي امرأة عجوز:

– لا تنظر إليها يا عزيزي. ممنوع. فهذا الجمال من النوع الذي يفطر القلب.

لكني لم أستطع ألا أنظر إلى أنفيسا. فقد أصبحت لأول مرّة في حياتي شاهداً على هذا الحب الأنثوي الخالد، الأقوى من الموت. قرأت عن هذا الحب حتى الآن في الكتب فقط وسمعت عنه. لسبب ما، اعتقدت في ذلك الحين أن مثل هذا الحب مخصص فقط للنساء الروسيات.

حضر الجنازة العديد من الناس. حافظ كوليا على مسافة بعيدة وراء الناس - كان خائفاً من أقارب أنفيسا. وددت لو أقترب منه، لكنه ابتعد إلى ما خلف السور واختفى.

كان كل هذا يضغط على قلبي ولم أعد قادراً على كتابة سطر واحد. اضطررت إلى الانتقال من الضواحي إلى المدينة، والأصح، ليس إلى المدينة، بل إلى محطة سكة الحديد، في بيت طبيبة المحطة ماريا ديميتروفنا شاتسكا، الصغير والمعتم.

قبل وقت قصير من وفاة أنفيسا، مررت عبر حديقة المدينة. بالقرب من السينما الصيفية، جلس العديد من الأولاد على الأرض. يبدو أنهم انتظروا شيئًا وتقافزوا مثل العصافير. ثم خرج من السينما رجل أشيب، وزّع تذاكر الدخول إلى السينما على الأولاد، فتوجهوا متدافعين متسابقين نحو الصالة.

كان الرجل الأشيب، كما يبدو على وجهه النضر، في حدود الأربعين من العمر. ركّز عينيه بلطف، نظر نحوي ولوّح لي بيده ثم انصرف.

قررت أن أسأل الأولاد عمن يكون هذا الغريب الظريف. دخلت إلى الصالة وتفرجت نصف ساعة على الفيلم القديم «الشياطين الحمر»، أصغي إلى الصفير، إلى النقر بالأقدام، إلى صيحات الإعجاب والخوف وشهيق الأولاد.

خرجت معهم بعد انتهاء العرض وسألتهم عمن يكون هذا الشخص الأشيب الذي اشترى لهم التذاكر. انعقد حولي اجتماع أولاد صاخب، واتضح كل شيء بهذا القدر أو ذاك. تبيّن أن الرجل الأشيب شقيق الطبيبة ماريا. هو مريض، «مسّ في عقله». يتقاضى من الحكومة السوفييتية راتباً تقاعدياً كبيراً. مقابل ماذا - غير معروف. مرّة في الشهر، عندما يستلم راتبه، يجمع جميع أولاد المحطة ويصطحبهم إلى السينما.

كان الأولاد يعرفون بالضبط متى يستلم راتبه. في هذا اليوم، من الصباح الباكر يتجمعون حول منزل شاتسكا، ويجلسون في الحديقة الأمامية ويتظاهرون بأنهم هناك بالصدفة.

هذا كل ما تمكنت من معرفته من الأولاد. هذا عدا بعض التفاصيل التي

لا علاقة لها بالأمر. مثلاً، إن بعض الأولاد من منطقة يامسك أرادوا أيضاً أن يتقربوا من شاتسكي، لكن أولاد المحطة صدّوهم تماماً.

لم تقم صاحبة البيت من السرير بعد موت أنفيسا، وصارت تتشكى من قلبها. جاءتها الطبيبة ماريا مرّة فتعرفت عليها. كانت امرأة طويلة، حازمة جداً، ومتقاعدة. حافظت على مظهر الطالبة رغم الشيخوخة.

عرفت منها أن شقيقها جيولوجي، وأنه مريض نفسياً، وهو فعلاً يتقاضى راتباً تقاعدياً لقاء أعماله المعروفة جيداً عندنا وفي أوروبا.

لماذا تعيش هنا، - سألتني ماريا دميتريفنا بنبرة الطبيب غير المعتاد على أن يعترضه أحد. - قريباً سيحل الخريف، ستهطل الأمطار وتمتلئ الطرقات بالطين. كما أن الوضع كئيب، فكيف ستتمكن من العمل! انتقل عندي. تعيش عندي والدتي العحوز، وأيضا أخي، والشقة في المحطة من خمس غرف. شقيقي إنسان لطيف ولن يزعجك أبداً.

وافقت وانتقلت عند ماريا دميتريفنا. هكذا تعرفت على الجيولوجي فاسيلي دميتريفيتش شاتسكي - إحدى الشخصيات الرئيسية في قصتي المقبلة «كارا - بوغاز».

بالفعل، كان الجو هادئاً في البيت، حتى إنه يبعث على النعاس. كانت ماريا دميتريفنا تمضي طوال اليوم في العيادة تزور المرضى، والجدّة تلعب الورق، أما الجيولوجي فنادراً ما كان يخرج من غرفته. كان منذ الصباح يقرأ الصحف، ثم يشرع في الكتابة حتى المساء تقريباً، يملأ في اليوم دفتراً سميكاً.

تُسمع من حين إلى آخر أصوات القاطرة الوحيدة في المحطة. تجاهلني شاتسكي في البداية، ثم اعتاد عليّ وبدأ يحادثني. اتضحت لي طبيعة مرضه من خلال هذه المحادثات. كان شاتسكي، منذ الصباح، وإلى أن يتعب، إنساناً يتمتع بصحة جيدة ومحادثاً ممتعاً. كان يعرف الكثير. لكنه يبدأ بالهذيان مجرد أن يبدأ يتعب. كان أساس هذيانه فكرة جنونية، لكنها تطورت بمنطق صارم. وصفت تاريخ مرض شاتسكي في قصتي «كارا - بوغاز». كان قد وقع في الأسر من قبل الجيش الأبيض أثناء رحلة استكشافية جيولوجية. كانوا يأخذونه كل يوم برفقة بقية الأسرى إلى ساحة الإعدام. لكن شاتسكي كان محظوظاً. عندما كانوا يطلقون الرصاص على كل خامس في الصف،

يكون شاتسكي الثالث، عندما يطلقون الرصاص على الثاني، يكون الأول. لقد نجا، غير أنه فقد عقله. عانت شقيقته وهي تبحث عنه في كراسنوفودسك حيث كان يعيش في عربة قطار بضائع خربة.

كان شاتسكي يذهب كل مساء إلى مكتب البريد ويسلّم رسائل موجهة إلى مجلس مفوضي الشعب. لكن موظف المكتب لم يكن يرسل الرسائل إلى موسكو، بل، بطلب من ماريا دميتريفنا، يسلّمها لها، وكانت تحرقها.

اهتممت بمعرفة ما يكتبه شاتسكي في هذه الرسائل. وسرعان ما عرفت. دخل إلى غرفتي في إحدى الأمسيات، وكنت مستلقياً أقرأ. كان حذائي وجوربي في وسط الغرفة قريبة من السرير المتنقل.

– لا تضع حذاءك هكذا أبداً، – قال شاتسكي لي بغضب. –هذا خطر.

– لماذا؟

– ستعرف الآن.

خرج وجلب لي خلال دقيقة مجموعة أوراق.

اقرأها! – قال لي. – عندما تنتهي من القراءة دق على الحائط. سأجيء إليك، وسأشرح لك إن لم تفهم شيئاً ما. خرج. بدأت أقرأ:

«إلى مجلس مفوضي الشعب. حذّرت مجلس مفوضي الشعب مراراً من اقتراب خطر عاصف يسبب موت بلادنا. يعلم الجميع أن الطاقة المادية القوية موجودة في الطبقات الجيولوجية (على سبيل المثال، في الفحم الحجري والنفط والصخر الزيتي). تعلّم الإنسان كيف يحرر هذه الطاقة ويستخدمها. لكن قلة من الناس يعرفون أنه توجد طاقة نفسية مضغوطة في تلك الطبقات تكونت عبر العصور. تقع مدينة ليفني فوق أقوى طبقات الحجر الجيري الديفوني في أوروبا. في العصر الديفوني بدأ يتكون فوق الأرض وعي بدائي خال من أدنى صفات الإنسانية، وعي كان يهيمن عليه دماغ السمك الصدفي البطيء. تركزت هذه الطاقة النفسية البدائية في الرخويات الأمونية. حجارة الحجر الجيري الديفوني مشبعة حرفياً بالأمونيت المتحجر. يحتوي كل أمونيت – دماغ ذلك العصر الصغير، على نسبة كبيرة من الطاقة النفسية الشريرة.

لحسن الحظ، لم يتعلم الناس كيف يحررون الطاقة النفسية للطبقات الجيولوجية. أقول «لحسن الحظ» لأن هذه الطاقة، إذا أمكن تخليصها من حالة الراحة، ستدمر الحضارة بأكملها. سيتحول الأشخاص الذين تسمموا بها إلى وحوش قاسية، ولن يسترشدوا إلا بالغرائز العمياء. وهذا يعني موت الثقافة.

لكن، كما ذكرت مراراً لمجلس مفوضي الشعب، فقد وجد الفاشيون[1] الطريقة لفك قيد طاقة الجير النفسية وإحياء الأمونيوم. بما أن أغنى طبقات الجير تقع تحت ليفني، فمن هنا سيطلق الفاشيون هذه الطاقة. إذا نجحوا في ذلك، فسيكون من المستحيل منع الموت الأخلاقي والجسدي للجنس البشري بأكمله.

وضع الفاشيون خطة تحرير الطاقة النفسية للجير في منطقة ليفني بأدق تفاصيلها. لكنها، مثل جميع الخطط المعقدة، يمكن اختراقها بسهولة. يكفي فقط الانتباه إلى تفصيل تافه – وتنهار الخطة.

لذلك، بالإضافة إلى ضرورة إحاطة ليفني فوراً بالوحدات العسكرية الكبيرة، من الضروري إعطاء التعليمات الأكثر صرامة لسكان المدينة حتى يتخلوا عن أفعالهم المعتادة (حيث تم تصميم الخطة النازية خصيصاً وفقاً للمسار المعتاد للحياة في ليفني) وسيفعلون عكس ما يتوقعه الفاشيون تماماً.

دعوني أوضح هذا بمثال. جميع مواطني ليفني، عندما ينامون، يضعون أحذيتهم بالقرب من السرير، وجواربهم في منتصف الغرفة. من الآن فصاعداً، ضعوا جواربكم على الحائط. هذا التفصيل تحديداً، الذي ربما لم يتم الانتباه إليه من قبل الخطة، ونتيجة لهذا التفصيل التافه ستفشل الخطة. يجب أن أضيف أن التسرب الطبيعي (وإن كان ضئيلًا) للعدوى العقلية من الطبقات الديفونية في ليفني يؤدي إلى حقيقة أن أخلاق هذه المدينة أصبحت أكثر خشونة من المدن الأخرى من نفس الحجم والنوع.

ثلاثة مدن تقع فوق طبقات الحجر الجيري الديفوني: القرم، ليفني وإيليتس. ليس عبثاً أن هناك مقولة قديمة عنها: «القرم – كل لصوص القصر،

1– تستعمل كلمة الفاشية بالروسية بدلا من النازية – المترجم

ليفني -اللصوص العجيبون، وإيليتس- والد جميع اللصوص. مبعوث الحكومة الفاشية في ليفني هو الصيدلي المحلي.

اتضح لي الآن لماذا أدار شاتسكي حذائي وجواربي نحو الحائط. وهذا ما أزعجني. أدركت أن الهدوء في عائلة شاتسكي هش. ويمكن أن ينفجر في أي لحظة. وسرعان ما لاحظت أن هذه الانفجارات ليست نادرة الحدوث عندهم، وأن الجدّة وماريا دميتريفنا قادرتان على إخفائها عن الغرباء.

مساء اليوم التالي، عندما جلس الجميع لشرب الشاي وجلسوا حول المائدة يتحدثون بهدوء، حمل شايسكي إبريق الحليب وسكب الحليب في أنبوب السماور. صرخت الجدة العجوز. نظرت ماريا دميتريفنا بغضب نحو شاتسكي وقالت:

- ماذا تفعل؟

بدأ شاتسكي، مبتسماً وشاعراً بالذنب، شرح لي أن مثل هذا التصرف الوحشي مع الحليب والسماور بالذات هو ربما ما لم يأخذه الفاشيون بعين الاعتبار في خطتهم، وبالتالي، بالطبع، هذا سيدمر هذه الخطة وينقذ البشرية.

- عد إلى غرفتك. - قالت ماريا دميتريفنا بصرامة، ثم نهضت وفتحت النافذة على وسعها كي يخرج بخار الحليب المغلي من الغرفة.

أخفض شاتسكي رأسه خجلاً، وذهب منصاعاً إلى غرفته.

لكن شاتسكي في «ساعات صفائه» كان يرغب بشدة بالحديث. عندها اكتشفت أن أكثر مكان عمل فيه كان آسيا الوسطى وكان من أوائل الباحثين في خليج كارا بوغاز. اجتاز شواطئه الشرقية. كان هذا يعتبر في ذلك الوقت مغامرة مميتة. وصف هذه الشواطئ، ثبّتها على الخارطة واكتشف وجود الفحم الحجري في الجبال المجاورة للخليج.

عرفت عن كارا - بوغاز للمرّة الأولى من شاتسكي، الخليج الغامض المخيف في بحر القزوين، عن احتياطي المرجان الذي لا ينضب في مياهه، وعن إمكانية القضاء على الصحراء.

كره شاتسكي الصحراء كرهاً لا يقدر عليه إلا الكائن الحي، بعنف ومن دون شفقة. كان يصفها بأنها قرحة جافة، قشرة، سرطان، تأكل الأرض، فظاعة الطبيعة غير المفهومة.

الصحراء تقدر فقط أن تقتل، – قال لي. – إنها الموت. على البشرية أن تدرك هذا. هذا إن لم تكن فقدت عقلها.

من العجيب أن تسمع هذا الكلام من مجنون.

يجب لويها مثل قرن التيس، منعها من التنفس. ضربها من دون انقطاع، ضرباً مميتاً، بلا رحمة. ضربها من دون تعب، إلى أن تفطس. وأن نزرع على جثتها جنة من الأشجار.

لقد أيقظ في داخلي كراهية كامنة للصحراء – صدى لمعاناتي الطفولية.

– لو أن الناس، – قال شاتسكي، – خصصوا لإحياء الصحراء فقط نصف الوسائل التي يخصصونها للقتل المتبادل، لاختفت الصحراء من زمن بعيد. إنهم يقدمون للحرب كل الثروات الشعبية وملايين الأرواح البشرية. وكذلك العلم والحضارة. حتى إنهم استطاعوا أن يحولوا الشعر إلى شريك في المجزرة الجماعية.

– فاسيا! –نادت ماريا دميتريفنا من غرفتها بصوت عال. –اهدأ! لن يكون هناك المزيد من الحروب. أبداً.

– أبداً – هذا هراء! ردّ عليها شاتسكي فجأة. – اليوم ليلاً سيعود الأمونيون إلى الحياة. هل تعرفون أين؟ قرب مطحنة آدم . تعال لنتمشى ونتأكد.

بدأ الهذيان. سحبت ماريا دميتريفنا شقيقها، حقنته بالإبرة ووضعته في السرير.

رغبت في أن أنهي الرواية بأسرع ما يمكن كي أبدأ بكتاب جديد عن القضاء على الصحراء. هكذا ظهرت الفكرة الأولية غير الواضحة لقصة «كارا – بوغاز».

غادرت ليفني في أواخر الخريف. ذهبت لتوديع أصحاب الدار قبل سفري. حل وقت الغروب. ذاب الجليد. انتعشت الحدائق، لكن ظهرت بعض الأوراق الجافة الزهرية على أشجار التفاح. انسحبت الغيمة الأخيرة التي انعكس الشفق البارد عليها.

رافقتني بولينا وهي تمسك يدي بثقة. بدت لي فتاة صغيرة وحيدة وخجولة، فغمر قلبي الشعور بالحنان عليها. وصل إلى سمعي صوت

موسيقى مكتوم من سينما المدينة. اشتعلت النيران في البيوت. ارتفع دخان السماور فوق الحدائق. وبدأت النجوم تلمع خلف أغصان الأشجار العارية.

سيطر عليّ قلق غامض، وفكرت بأنه، من أجل جمال الأرض هذا، وحتى من أجل فتاة جميلة مثل هذه، مثل بولينا، يجب دعوة الناس للنضال في سبيل حياة واعية سعيدة. يجب قلع جذور كل ما يضطهد ويُحزن الإنسان. ومنه الصحراء، والحرب، وانعدام العدالة، والكذب، وتجاهل قلب الإنسان.

سارت بولينا معي إلى بداية بيوت المدينة. وودعتها هناك. ارتبكت وشرعت تفك جدائل شعرها ثم قالت فجاة:

سوف أقرأ كثيراً يا كونستانين غيورغيفتش.

رفعت عينيها محرجة ومدت يدها إلي وعادت إلى المنزل بسرعة.

سافرت إلى موسكو في قطار مكتظ. خرجت في الليل إلى الممر لأدخّن. فتحت النافذة ونظرت إلى الخارج. اندفع القطار على طول الجسر من خلال الغابات التي لم تكن مرئية تقريبًا. كان يمكن الإحساس بها أكثر من الصوت – من خلال الصدى المتسرع الذي تسببت فيه قعقعة العجلات في الغابات.

غمر الهواء وجهي، كما لو تم تبريده بقطع الثلج، برائحة الأوراق المتجمدة. كانت سماء منتصف الليل الخريفي تندفع فوق الغابات وتتلألأ بنجومها. اهتزت الجسور قليلاً. وعلى الرغم من سرعة سير القطار، كان يمكن لثوان وجيزة ملاحظة انعكاس النجوم إما في المستنقعات أو في مياه النهر.

# دراسة الخرائط الجغرافية

حصلت في موسكو على خارطة تفصيلية لبحر قزوين وتجولت (في مخيلتي، بالطبع)، في شواطئه الشرقية الخالية من المياه. ظهر لدي منذ طفولتي شغف بالخرائط الجغرافية؟ كان بإمكاني الجلوس عليها عدة ساعات، كما لو أنها كتاب شيّق. درست تيارات الأنهار غير المعروفة، وسواحل البحر الغريبة، التي توغلت في أعماق التايغا، حيث تم وضع علامة على مراكز التجارة المجهولة في دوائر صغيرة، وكررت مثل أبيات الشعر، الأسماء الرنانة – جزر هايبراد، جبال غواداراما، بحيرة أولغا، وغيرها. تدريجياً، ترسخت كل هذه الأماكن في مخيلتي بوضوح شديد لدرجة أنه يبدو أنني أستطيع كتابة مذكرات سفر خيالية إلى قارات وبلدان مختلفة. حتى إن والدي الرومانسي التكوين لم يشجع هذا الشغف الزائد عن حدّه بالخرائط الجغرافية. كان يقول إنها ستسبب لي الكثير من الخيبات. – إن وُفّقت في حياتك، – يقول والدي، – فتستطيع الترحال، وإلا ستجلب لنفسك الحزن فقط. لن ترى ما تخيلته أبداً. مثلاً، يمكن أن يتضح أن المكسيك بلد فقير مغبرّ، والسماء فوق إكوادور – رمادية ومملة. لم أصدّق والدي. لم أستطع أن أتخيل أنّ سماء إكوادور يمكن أن تكون يوماً ما رمادية. في رأيي، لقد كانت كثيفة للغاية حتى إن الثلج على جبل كليمنجارو اكتسب لونها النيلي. ولكن مع ذلك، لم أستطع فعل أي شيء حيال هذه الهواية. وبعد ذلك، في مرحلة النضج، اتضح لي أن والدي لم يكن على حق تماماً. على سبيل المثال، عندما وصلت لأول مرة إلى شبه جزيرة القرم (كنت قد درستها من الأعلى وإلى الأسفل على الخريطة من قبل)، بالطبع، تبين أنها مختلفة تمامًا عما فكرت فيه. لكن فكرتي الأولية عن شبه جزيرة القرم جعلتني أراها بانتباه أكثر مما لو وصلت إلى شبه جزيرة القرم دون أي فكرة عنها. عثرت

في كل خطوة على أشياء لم أكن قد تخيلتها، لكن خواص القرم الجديدة هذه هي ما بقي راسخاً في ذاكرتي. يبدو لي أن دور «التعارف» عن بعد مع بعض الناس الآخرين يحتل نفس الأهمية.

لنقل إن لكل شخص تصوره الخاص عن غوغول. لكن، لو حدث واستطعنا أن نراه أثناء حياته، لربما لاحظنا الكثير من الصفات غير المتطابقة مع تصوراتنا عنه. وهذا الصفات، ربما، ستنغرس بقوة وحيوية في ذاكرتنا. ولو لم توجد هذه التصورات المسبقة، لما لاحظنا الكثير من صفات غوغول، ولبقي إنساناً عادياً تماماً بالنسبة لنا. فقد اعتدنا أن نتخيل غوغول بصورة أخرى، باطنياً وكسولاً. لهذا سنلاحظ على الفور صفاته التي هي مجافية لهذه الصورة، – بريق العينين، الحيوية، وحتى المتقلبة، الساخرة، أناقة الملبس، واللهجة الأوكرانية القوية.

يصعب التعبير عن هذه الأفكار بإقناع تام، غير أنني أعتقد أن هذا هو الحال.

عادة التجول في الخرائط ومشاهدة أماكن مختلفة في خيالك تساعدك على رؤيتها في الواقع. في هذه الأماكن، يوجد دائمًا حدّ أدنى لخيالك، ولون إضافي، ولمعان إضافي، ونوع من الضباب الذي لا يسمح لك بالنظر إليها بعيون ضجرة.

وهكذا تجولت وأنا في موسكو في شواطئ بحر قزوين، وقرأت في نفس الوقت الكثير من الكتب، والتقارير العلمية، وحتى القصائد عن الصحراء، أي تقريباً، كل ما استطعت العثور عليه في مكتبة لينين العامة.

قرأت يريجيفالسكي وأنوشكين، سفينا غادينا وبامبيري، يوميات شيفشينكو، تاريخ بوخارى، تقارير الملازم بوتاكوف، مؤلفات الرحالة كاريلين، الاكتشافات الجيولوجية وقصائد الشعراء العرب. انكشف أمامي عالم الفضول والمعرفة البشرية الرائع. أخيرًا، حان الوقت للذهاب إلى بحر قزوين، إلى كارا بوغاز، لكن لم يكن لدي المال.

تدبرت أمر النقود لكن بصعوبة شديدة، حملتها وسافرت إلى ساراتوف، ومن هناك توجهت عبر نهر فولغا إلى إستراخان. هناك انحجزت. استهلكت نقودي القليلة، واضطررت، كي أتمكن من متابعة طريقي، لكتابة بعض المقالات لمجلة «ثلاثون يوماً» وللصحيفة المحلية.

سافرت إلى سهوب إستراخان وإيمبا كي أتمكن من كتابة هذه المقالات.

ساعدتني هذه السفرات أيضاً في تأليف كتاب عن كارا – بوغاز. أبحرت إلى إيمبا عبر بحر قزوين بموازاة شواطئه المزروعة على امتدادها أشجار القصب. كان يُطلق على الباخرة القديمة الطراز ذات العجلات اسم غريب «هيليوتروب» (نوع من النبات منشأه أمريكا الجنوبية). كانت الباخرة، كما جميع البواخر القديمة تمتلئ بالنحاس الأحمر. الدرابزين والبوصلات والمناظير وجميع أنواع الأجهزة وحتى عتبات الكبائن العالية – كل ذلك من النحاس.

تذكّر الباخرة «هيليوتروب» بالسماور المتوهج المصقول بالقرميد الذي يندلع البخار منه، وهي تتأرجح فوق أمواج البحر الخفيفة.

تتمدد الفقمات وسط مياه هذا البحر الدافئة وظهرها بائن مثل ظهر السبّاحين. من حين إلى آخر تقوم بتحريك الزعانف السمينة بتكاسل. كانت الصيادات ذوات الأسنان البيضاء الواقفات فوق أرصفة الصيد وقد ارتدين أثواب البحارة الزرقاء يصفرن ويقهقهن لمرأى الباخرة فيما خدودهن ممتلئة بالقروح. تنعكس الغيوم البيضاء وجزر الرمال البيضاء في المياه اللامعة، وفي بعض الأحيان كان من المستحيل التمييز فيما بينها.

في إيمبا، كانت تفوح مضخات الزيت بين البحيرات ذات المياه الوردية الزاهية برائحة محلول ملحي. لم يكن هناك زجاج في نوافذ المنازل. واستعيض عنها بشباك معدنية استقرت فوقها الكثير من العناكب السامة وحجبت الضوء عن الغرف. لدغ عنكبوت أحد المهندسين أمام عيني ومات على الفور.

كان لهيب القيظ يخنق الأنفاس في آسيا الوسطى، والنجوم تشع في الليالي من خلال الغبار.

كنت أعود من كل سفرة إلى إستراخان وأقيم في منزل خشبي يعود لأحد العاملين في الصحيفة المحلية. كان قد دعاني إلى بيته، وصرت أعيش فيه. يتموقع البيت على ضفة القنال وسط بستان صغير مليء بورود حمراء. كتبت مقالاتي في الشرفة الصغيرة التي لا تتسع لأكثر من شخص. وكنت أنام فيها.

زوجة الصحفي امرأة شابة مريضة ولطيفة، تبكي سراً في المطبخ طوال اليوم، إذ توفي طفلها الحديث الولادة منذ شهرين.

عدت إلى موسكو، لكنني اضطررت للسفر مجدداً كمراسل إلى شمال الأورال – إلى بيريزنيك وسوليكامسك. انتقلت من حر آسيا الذي لا يطاق إلى

الأدغال الكثيفة والمستنقعات، والجبال المغمورة بالطحالب وبداية الشتاء. بدأت هناك في سوليكامسك كتابة «كارا - بوغاز» في فندق كان في السابق ديراً للرهبان.

كان الفندق يعبق بأجواء القرن الثامن عشر - البخور، الخبز والجلود. في الليل، يقوم الحارس في معطف من جلد الغنم بالإعلان عن الساعة بالقرع على ألواح من الحديد الزهري. في ضوء الثلج الشاحب يبين بياض الكاتدرائيات القديمة من عهد «القياصرة سلالة ستروغانوف».

لا شيء هنا يذكّر بآسيا، وهذا ما سهّل علي لسبب ما الكتابة عنها.

تلك هي حكاية «كارا - بوغار» سردتها باختصار شديد وعجالة. لا توجد أية إمكانية، ليس فقط لسرد، بل وببساطة، لتعداد اللقاءات، السفرات، الحوارات والأحداث المرتبطة بالنسبة لي بكارا - بوغاز. بالطبع، لاحظتم أن جزءاً فقط، وربما، قليلاً جداً، مما جمعته، دخل في القصة. بقي الجزء الأكبر منه خارج غلاف الكتاب. لكن لا يجدر أن نأسف عليه، فهذه المواد يمكن أن تحيا في أي وقت ضمن صفحات كتاب جديد.

كتبت «كارا - بوغاز» دون أن أشغل ذهني بالتفكير بالطريقة الصحيحة لترتيب سرد المادة. رتبت المادة وفقاً للتسلسل الذي تراكم أثناء سفراتي إلى ضفاف بحيرة قزوين.

اكتشف النقاد في قصة «كارا - بوغاز» بعد صدورها «التكوين الحلزوني» وفرحوا كثيراً بهذا. لكني لا أتحمل عبء هذا الذنب، لا بعقلي ولا بقلبي.

كان تفكيري الأساسي فيما كنت أعمل على «كارا - بوغاز» يتركز على أن الكثير مما في حياتنا يمتلئ بالشعر والبطولة اللذين يمكن التعبير عنهما بدقة وحيوية فنية. سواء كان ذلك عن استخراج الملح أم عن مصنع للورق في غابات الشمال.

يجعل كل هذا القلب ينبض بقوة شديدة، لكن ضمن شروط حتمية تجعل الإنسان الذي يكتب هذه القصص يسعى نحو الحقيقة، يؤمن بقوة العقل، بسلطة القلب المنقذة وبحب الأرض.

# محفوظات في القلب

آه، يا ذاكرة القلب!
أنت أقوى من حكمة الذاكرة الحزينة...
• باتيوشكوف

غالباً ما يسأل القراء الناس الذين يكتبون عن الطريقة والزمن الذي يستغرقونه من أجل جمع مادة كتبهم. وهم عادة يستغربون عندما يجيبونهم بأنه لم ولا يوجد أي تجميع متقصد للمادة.

لا يتعلق ما قيل أعلاه، بطبيعة الحال، بدراسة المواد العلمية والمعرفية التي يحتاجها الكاتب من أجل هذا الكتاب أو ذاك. يجري الحديث فقط عن مراقبة الحياة الحية.

المادة الحياتية - هي كل ما وصفه دستويفسكي بأنه «تيار الحياة الجاري»، - إنه ليس مجرد مادة يمكن دراستها. ببساطة، فإن الكتّاب يعيشون، إن صح التعبير، وسط هذه المادة، يعانون، يفكرون، يفرحون، يشاركون في الأحداث الكبيرة والصغيرة، وفي كل يوم يخزنون ملاحظاتهم في الذاكرة وفي قلوبهم، بالطبع.

من الضروري أن تختفي من عند القرّاء (بالمناسبة، وكذلك من عند الكتّاب الناشئين)، التصورات حول الكاتب باعتباره إنساناً يتسكع في كل مكان حاملاً بين يديه دفتر ملاحظات، وباعتباره مدوناً محترفاً ومراقباً للحياة، أي شخصاً سيجبر نفسه على تجميع الملاحظات والانغماس بملاحظاته («كما لو أنه لن ينسى شيئًا»)، بالطبع، سوف يلتقط أكواماً من

الملاحظات بشكل عشوائي، لكنها ستصبح بلا فائدة. بكلمات أخرى، إذا نقلنا هذه الملاحظات من دفتر الملاحظات إلى نسيج النثر الحي، فإنها دائماً ستفقد إمكانية تعبيرها الواضح وتبدو كأنها قطع غريبة الأصل.

لا يمكنك أبداً التفكير في أن الطبال في الأوركسترا ذا الشعر الرمادي سيكون ضرورياً بالنسبة لي من أجل قصتي، وبالتالي يجب أن أراقبه عن كثب، حتى بطريقة مصطنعة إلى حد ما. أراقب، كما يقال، «بحكم ضرورات المهنة»، وفق حوافز عملية.

لا يجوز بتاتاً أن نحشر في النص النثري أي مراقبة حتى وإن كانت ناجحة جداً. عندما تحين الحاجة إليه، فإن ما جرت مراقبته سيحتل مكانه في النص بنفسه. غالباً ما يتفاجأ الكاتب عندما تنتعش فجأة في ذهنه حادثة منسية ما أو تفصيل، وتحديداً، في الوقت الذي تكون فيه الحادثة ضرورية من أجل العمل. أحد أسس الكتابة – الذاكرة الجيدة.

قد تتضح هذه الأفكار أكثر لو تحدثت عن كيف جرت كتابتي لقصة «البرقية».

سكنت في أواخر الخريف في قرية قرب ريـازان، في مزرعة لفنان الغرافيك الشهير آنذاك بوجالوستين. وهناك كانت تعيش وحيدة امرأة عجوز متهالكة – ابنة بوجالوستين، كاترينا إيفانوفنا. تعيش ابنتها الوحيدة ناستيا في لينينغراد وقد نسيت أمها كلياً – كانت ترسل لأمها النقود مرّة كل شهرين فقط. احتللت غرفة واحدة في هذا البيت الفارغ الواسع ذي الجدران المسودّة. كانت العجوز تعيش في النصف الآخر من المنزل. وللوصول إليها كان من الضروري المرور عبر الستائر الفارغة وعدة غرف ذات ألواح أرضية متربة وممتلئة بالغبار. لم يكن في المنزل أحد آخر غيري أنا والعجوز.

هذا المنزل كان يعتبر مبنى تذكارياً. وراء الفناء عند الملحقات المتداعية كانت ثمة حديقة رطبة وباردة، كبيرة ومهملة، مثل المنزل تماماً، تتعرض دوماً لعصف الريح.

جئت للعمل وكنت في الفترة الأولى أكتب في غرفتي من الصباح حتى حلول الظلام. يحل الظلام مبكراً. كان من الضروري في الساعة الخامسة عصراً إشعال مصباح كاز قديم له غطاء زجاجي غير لامع. لكني صرت

أعمل بعد ذلك في المساء. كان من المؤسف أن أقضي عدة ساعات من النهار في الغرفة، في حين كان يمكنني في ذلك الوقت التسكع في الغابات والمروج التي أصبحت جاهزة لاستقبال حلول الشتاء. تسكعت زمناً طويلاً وشاهدت علائم الخريف. في الصباح، في البرك، تحت قشرة من الجليد، كانت تُرى فقاعات الهواء. في بعض الأحيان في مثل هذه الفقاعات تكمن، كما في كرة بلورية مجوفة، ورقة أرجوانية من شجرة ليمون أو بتولا. كان يطيب لي أن أحطّم الثلج وأن أتناول هذه الأوراق وآخذها معي إلى المنزل. وسرعان ما تجمّعت لدي كومة كاملة من هذه الأوراق التي سخنت وصارت تفوح منها رائحة الكحول.

كان الوضع في الغابات أفضل. كانت الرياح تهب عبر الأراضي العشبية، وفي الغابات كان هناك صمت كئيب بسبب الجليد. ربما كان الهدوء في الغابات ناتجاً عن الغيوم الكثيفة التي كانت في مستوى منخفض فوق الأرض بحيث تغطت جذوع الأشجار بالضباب. في بعض الأحيان كنت أذهب للصيد في قنوات أوكا. هناك، في الغابة، انتشرت من أوراق الصفصاف رائحة لاذعة انطبعت على جلد وجهي. كانت المياه سوداء، مع لون أخضر باهت. الصيد في الخريف نادر ويتطلب الحذر.

ثم تدفقت الأمطار وأغرقت البستان وانغرس العشب المسوّد في التربة. فاحت في الهواء رائحة الثلج الذائب. علائم الخريف كانت كثيرة، لكني لم أحاول تذكرها. مع ذلك كنت متأكداً من أنني لن أنسى مرارة الخريف هذه أبداً، الممزوجة، بمعجزة، مع خفة في روحي وأفكار بسيطة وغير واضحة.

كلما أرعدت الغيوم أصبحت أكثر قتامة، وغمرت الأرض بالوحل، كلما كانت الأمطار أكثر برودة، يشعر القلب بالانتعاش، والكلمات وحدها ستستقر على الورق. كان مهماً الإحساس بالخريف، بذلك البناء للمشاعر والأفكار الذي يتسبب به الخريف. وكل ما يسمى بالمادة – الناس والأحداث والتفاصيل والتفاصيل الفردية – كما عرفت من التجربة، مخفي بشكل موثوق في الوقت الحالي في مكان ما داخل هذا الإحساس بالخريف. وما أن أستعيد هذا الإحساس في قصة ما، حتى يظهر كل هذا من داخل الذاكرة وينتقل إلى الورق.

لم أتمعن في هذا المنزل القديم الذي عشت فيه لأجعل منه مادة لقصة. فبساطة، لقد وقعت في حبه بسبب كآبته وصمته، لوقع خطوات المشاة العبثي، والرائحة المستمرة لدخان خشب البتولا المنبعثة من الموقد، واللوحات القديمة على الجدران (لم يبق منها سوى القليل، حيث أخذ المتحف الإقليمي جميع اللوحات تقريباً من كاترينا إيفانوفنا).

كان زجاج النوافذ قديماً ومعوجاً. كان يلمع بألون قوس قزح. ولسبب ما كانت شعلة الشمعة تنعكس عليه مرتين. كان الأثاث بكامله – الأرائك، الطاولات والكراسي، مصنوعاً من خشب فاتح اللون، يلمع من حين إلى آخر، وتفوح منه رائحة الكاز، وكذلك الأيقونات. كان المنزل مكتظاً بالكثير من الأشياء المضحكة وغير الضرورية. كانت فيه ثلاث روزنامات سميكة – للأعوام 1850، 1848 و1852. عثرت في سجل أسماء الجارات على ناتاليا تيكولايفنا لانسكيا – زوجة بوشكين، وإليزابيت كسافيرييفا فورونتسوفا – المرأة التي ارتبطت بعلاقة حب مع بوشكين. ولا أعرف لماذا أكأبني هذا. لا أزال لا أستوعب حتى الآن: لماذا؟ ربما بسبب الصمت القاتل في المنزل. علت صفارة باخرة بعيدة في نهر أوكا وتذكّرت أبياتاً من الشعر:

انتهى اليوم الماطر؛ سكن مطر الليل
ارتدت السماء ثوبها الرصاصي؛
مثل شبح خلف أشجار الصنوبر

مكتبة
t.me/soramnqraa

## لغة الألماس

«عجيبة هي جواهر لغتنا:
كل صوت هو هدية؛
كل ما هو دقيق، كبير، مثل اللؤلؤ نفسه،
والحق يقال،
أي اسم مختلف هو أثمن من الشيء نفسه».

• غوغول

# نبع في غابة صغيرة

الكثير من الكلمات الروسية تشع بالشعر من تلقاء ذاتها، كما تشع الأحجار الثمينة بلمعان سري. أدرك، طبعاً، أن لا شيء سرّياً في لمعانها وأن أي عالم فيزياء يستطيع أن يفسر هذه الظاهرة بواسطة قوانين البصريات. ومع ذلك، فإن لمعان الأحجار يثير مشاعر سرية. من الصعب التوافق مع فكرة أنه لا يوجد مصدر للضوء داخل الحجر الذي تتدفق منه الأشعة الساطعة. هذا يشمل الكثير من الأحجار، حتى المتواضعة منها، مثل الأكوامارين، الذي يستحيل تحديد لونه. فلم يجدوا بعد وصفاً مناسباً له.

يُعتبر الأكوامارين وفق اسمه (أكوامارين – تعني ماء البحر)، حجراً يعكس لون موج البحر. هذا ليس صحيحاً تماماً. يوجد في عمقه الشفاف درجات من اللون الأخضر الفاتح والأزرق الباهت. غير أن خصوصية الأكوامارين تكمن في أنه مضاء من الداخل بنار فضية (فضية تحديداً، وليست بيضاء). يبدو لك إن حدّقت في الأكوامارين أنك ترى بحراً هادئاً مياهه بلون النجوم.

من الواضح أن الخواص الضوئية واللونية للأكوامارين وبقية الأحجار الثمينة تبعث فينا الشعور بالسرية. مع ذلك فإن جمالها يبدو لنا غير قابل للتفسير.

سهل، نسبياً، تفسير منشأ «الإشعاع الشعري» للعديد من كلمات لغتنا. من الواضح أن الكلمة تبدو لنا شعرية عندما تنقل لنا مفهوماً ممتلئاً بالنسبة لنا بالمحتوى الشعري. لكن تأثير الكلمة نفسها (وليس المفهوم الذي تعبر عنه) على مخيلتنا، حتى لو كانت، على سبيل المثال، كلمة بسيطة مثل

«الفجر»، هو أكثر صعوبة عند محاولة تفسيرها. يبدو وقع هذه الكلمة كأنه يعكس البريق الليلي البطيء للبرق البعيد. وبالطبع، فإن هذا الإحساس بالكلمة ذاتي جداً. لا يمكن الإصرار عليه وجعله قانوناً عاماً. هكذا أنا أستقبل وأسمع هذه الكلمة. لكني لا أفرض طريقة استقبال هذه الكلمة على الآخرين. مما لا شك فيه هو أن معظم مثل هذه الكلمات الشعرية يرتبط بطبيعتنا. تنفتح اللغة الروسية حتى النهاية بخصائصها السحرية الحقيقية وثروتها فقط لأولئك الذين يحبون ويعرفون «أدق خصائص» شعبهم ويشعرون بروعة أرضنا.

في اللغة الروسية كلمات عديدة تعبّر بشكل جيد عن كل ما في الطبيعة: المياه، الهواء، السماء، الغيوم، الشمس، الأمطار، الغابات، المستنقعات، الأنهار والبحيرات، الحقول والمروج، الورود والأعشاب.

كي تقتنعوا بهذا، وكي تتعلموا قاموس لغتنا الثرية الدقيقة، لدينا، إضافة إلى كتب أولئك الضليعين بمعرفة الطبيعة واللغة الشعبية، أمثال غوركي وتولستوي وبونين والعديد من الكتّاب الآخرين، نبع اللغة الذي لا ينضب – الشعب نفسه: الفلاحون، الرعاة، مربو النحل، الصيادون، العمال القدامى، حراس الطوافات، وحراس الضفاف، الحرفيون، الرسامون الريفيون، وجميع الأشخاص المخضرمين الذين لديهم ذهب في كل كلمة. أصبحت هذه الأفكار واضحة بالنسبة لي بشكل خاص بعد لقائي بأحد حرّاس الغابات.

أظن أنني تحدثت عن هذا في مكان ما. فإن كان هذا صحيحاً فإنني أرجو أن تعذروني لأني سأضطر لتكرار قصة قديمة. إن لها أهميتها عند الحديث عن الكلام الروسي.

كنا نسير برفقة هذا الحارس في غابة صغيرة. كان هنا في زمن غابر مستنقع كبير، ثم جفّ المستنقع، وما يذكّر به الآن هو الطحالب وفتحات الآبار الضيقة وسط هذه الطحالب ونبات إكليل الجبل البري. لا أتفق مع الاستخفاف الواسع النطاق بالغابات الصغيرة. هناك الكثير من السحر الغريب في الغابة الصغيرة. تنمو الأشجار الصغيرة من جميع السلالات – أشجار التنوب والصنوبر والحور والبتولا – معاً بصداقة وبشكل وثيق. وهي

دائماً مضاءة ونظيفة، كما هو الحال في غرفة الفلاح المرتبة بمناسبة العيد. في كل مرة أجد فيها نفسي في غابة صغيرة، يبدو لي أنه في هذه الأماكن بالذات وجد الرسام نيستروف العديد من ميزات المناظر الطبيعية. هنا، يعيش كل جذع وغصن في حياته المشهدية المنفصلة الخاصة به، وبالتالي فهو ملحوظ وجميل بشكل خاص. في مكان ما وسط الطحالب، كما ذكرت سابقاً، تبدو فتحات الآبار الدائرية الصغيرة. الماء فيها يبدو بلا حركة. لكن لو حدّق المرء فيها لرأى في عمق قاعها تياراً يتحرك بهدوء وتحوم وسطه أوراق شجر جافة.

توقفنا عند إحدى الفتحات وشربنا الماء. كانت له رائحة تربانتين.

– نبع!، – قال حارس الغابة وهو يراقب الخنفساء التي رفرفت بجناحيها للتو من الفتحة واندفعت نحو القاع. – من المحتمل أن نهر الفولغا يبدأ من هذه البئر.

– أجل، من المحتمل، – وافقت.

– يعجبني كثيراً تحليل الكلمات، – قال حارس الغابة وهو يبتسم بحرج. – قل لي من فضلك، يحدث أحيانا أن تعلق بذهني كلمة واحدة ولا تجعلني أهدأ. صمت حارس الغابة، ثم عدّل من وضع بندقية الصيد على كتفه وسأل:

– يقولون إنك تؤلف الكتب؟

– صحيح، أكتب.

– هذا يعني أنك تفكر جيداً بالكلمات. أما أنا، مهما حاولت، نادراً ما أستطيع أن أجد تفسيراً لأي كلمة. أسير في الغابة، أقلّب في ذهني كلمة تلو الأخرى، أحاول فهمها بهذا الشكل أو ذاك: من أين جاءت هذه الكلمات؟ ولا أصل إلى أي جواب. معارفي معدومة. لست متعلماً. ويحصل أن أعثر على تفسير لكلمة وأفرح. ولماذا أفرح؟ لن أدرّس الأولاد. أنا حارس غابة – جوّال بسيط.

– وأي كلمة علقت في ذهنك الآن؟ – سألته.

– إنها كلمة «نبع» هذه. لاحظت هذه الكلمة منذ زمن. أتأمل فيها. أعتقد أن ذلك يرجع إلى أن المياه تبدأ من هنا. من النبع يتشكل النهر،

والنهر يسيل عبر كل أمنا الأرض، عبر وطننا كله، ويُطعم الناس. انظر[1] إلى هذا الترتيب – النبع، النهر، الشعب. كأنهم أقارب! كرر وضحك.

كشفت لي هذه الكلمات البسيطة جذور لغتنا العميقة. هنا في هذه الكلمات تكمن كل تجربة الشعب على مدى قرون، والجانب الشعري من خاصيتها.

1- في اللغة الروسية الكلمات: الجنس البشري «رود»، الوطن «رودينا»، النبع «رودنيك» من جذر واحد – المترجم

# اللغة والطبيعة

أنا واثق من أنه كي نتمكن من اللغة الروسية، كي لا نفقد الإحساس باللغة، من الضروري ليس التواصل الدائم مع بسطاء الناس الروس فقط، ولكن التواصل أيضاً مع المراعي والغابات والمياه والصفصاف القديم، مع صفير الطيور وكل زهرة تومئ برأسها من تحت شجرة البندق.

يجب أن يكون لكل شخص وقت اكتشافه السعيد. حدث معي أن حظيت بصيف واحد من الاكتشافات في الجهة الممتلئة بالغابات والمروج وسط روسيا – صيف يضجّ بالعواصف الرعدية وأقواس قزح. لقد مر هذا الصيف في غابة الصنوبر، وصرخات طيور الكراكي، تحت كتل بيضاء من السحب الضخمة، وتقلبات السماء في الليل، في الغابة التي لا يمكن عبورها، في صرخات الديك الحربية وأغاني الفتيات في المروج في المساء، عندما ينعكس الغروب على عيون الفتيات بلون ذهبي، ويهبط الضباب الأول بلطف فوق الدوامات.

تعرفت في هذا الصيف من جديد – على ملمس ومذاق ورائحة الكثير من الكلمات التي كنت حتى هذا الوقت، ومع أني أعرفها، بعيداً عن معايشتي لها. كانت تبعث في الماضي صورة واحدة عادية شحيحة. أما الآن فقد اتضح أن كلاً من هذه الكلمات تحتوي على العديد من الصور الحية.

ما هي هذه الكلمات؟ إنها كثيرة لدرجة أنه حتى من الصعب اختيار الكلمات التي يمكن البدء منها. ربما الأسهل البدء من الكلمات «الممطرة». كنت أعرف، بالطبع، أن هناك أمطاراً غزيرة، عمياء، ثقيلة، تُنبت الفطر، أمطاراً إشكالية، أمطاراً تهطل على شكل خطوط – أمطاراً مائلة، قوية،

وأخيرًا أمطاراً غزيرة. لكن المعرفة العقلية شيء، وعيش هذه الأمطار في داخل نفسك، وإدراك أنها تحتوي على شعريتها الخاصة، علاماتها الخاصة، التي تختلف عن علامات بقية الأمطار، شيء آخر. عند ذلك، فإن كل هذه الكلمات التي تعبّر عن المطر، ستتجدد، تقوى، وستمتلئ بالتعبير الغني. ثم، خلف كل كلمة من هذا القبيل، ترى وتشعر بما تتحدث عنه، ولن تتلفظ بها بطريقة ميكانيكية، بحكم العادة. بالمناسبة، هناك نوع خاص من القانون المتعلق بتأثير كلمات الكاتب على القارئ. إذا لم يرَ الكاتب خلف الكلمات، أثناء عمله، ما يكتب عنه، فإن القارئ لن يرى كذلك. لكن إذا كان الكاتب يرى جيداً ما يكتب عنه، فإن أكثر الكلمات بساطة، وحتى المستهلكة، ستكتسب حياة جديدة، وستؤثر في القارئ بقوة وستجعله يشعر بتلك الأفكار والمشاعر والحالات التي أراد الكاتب أن يوصلها إليه. من البديهي أنه هنا يكمن سر ما يُطلق عليه تعبير ما بين السطور.

لكن، لنعد إلى الأمطار.

ثمة مؤشرات كثيرة تدل على المطر. تختفي الشمس خلف الغيوم. يغطي الضباب الأرض، السنونو يحلّق منخفضاً، تصيح الديوك في الفناءات في غير أوقاتها، تمتد الغيوم عبر السماء بخيوط ضبابية طويلة – كل هذا من علامات الأمطار. وقبل وقت قصير من المطر، على الرغم من أن الغيوم لم تتماسك حتى الآن، يمكن سماع أنفاس ناعمة رطبة. لابد أنها أتت من حيث هطلت الأمطار بالفعل. ثم تبدأ أولى القطرات بالتسلل. تصف الكلمة الشعبية «التسلل» جيداً بداية الأمطار. عندما تترك القطرات النادرة بقعاً داكنة على غبار الشوارع والأسطح. ثم تتفرق الأمطار. بعد ذلك تأتي رائحة الأرض الرائعة، الغارقة لأول مرة بالمطر. إنها لا تدوم طويلاً وتحل محلها رائحة العشب الرطب، وخاصة نبات القراص. ويطلع القمر من خلف الضباب...

كنت أذهب في المساء إلى كاترينا إيفانوفنا لشرب الشاي. كان بصرها قد ضعف بالفعل، والفتاة الجارة نيوركا، التي كانت عبوساً بطبيعتها وتسخط على الجميع، تأتي إليها مرتين أو ثلاث مرات في اليوم لتنفيذ مختلف الأعمال المنزلية البسيطة.

جهزت نيوركا السماور وشربت الشاي معنا، لكن ليس من الكأس بل من الصحن الصغير. كانت نيوركا تعقّب على كل ما تقوله كاترينا إيفانوفنا فقط بالكلمات ذاتها:

- هكذا إذن! ماذا يظنون!

انتقدتها، لكنها قالت لي أيضاً:

- هكذا إذن! كما لو أني لا أفهم، كما لو أني بلهاء!

غير أن نيوركا في الحقيقة كانت الوحيدة التي تحب كاترينا إيفانوفنا. وليس ذلك لأن كاترينا كانت تقدّم لها بعض الهدايا من حين إلى آخر.

عاشت كاترينا إيفانوفنا فيما مضى في باريس مع والدها، تعرفت على تورجينيف، شهدت جنازة فيكتور هوغو. أخبرتني بهذا، فعلّقت نيوركا:

- هكذا إذن! ماذا يظنون!

لكن نيوركا لم تجلس معنا فترة طويلة وغادرتنا إلى المنزل لكي تضع «صغارها» في السرير ليناموا.

لم تترك كاترينا إيفانوفنا قط حقيبة يدها القديمة المصنوعة من الساتان. هناك احتفظت بكل ثرواتها: رسائل ناستيا، ونقود قليلة، وجواز سفر، وصورة لنفس ناستيا - امرأة جميلة ذات حواجب مكسورة رقيقة ومظهر غير واضح، صورة صفراء لكاترينا إيفانوفنا نفسها عندما كانت لا تزال فتاة - تجسيد للرقة والنقاء.

لم تشكُ كاترينا قط من أي شيء باستثناء الضعف الناتج عن الشيخوخة. لكني عرفت من الجيران ومن العجوز الطيب الغبي إيفان دميرييفتش الحارس أنه لا يوجد حياة عند كاترينا إيفانوفنا، بل حزن مرير. لم تزرها ابنتها ناستيا من أربعة أعوام، أي أنها نسيت أمها التي أصبحت أيامها معدودة. ليست بعيدة الساعة التي ستموت فيها دون أن ترى ابنتها، دون أن تلاطفها، دون أن تتأمل شعرها البني «الساحر الجمال» (هكذا كانت كاترينا إيفانوفنا تصف شعرها).

كانت ناستيا ترسل النقود لوالدتها، لكن على فترات متقطعة. لا أحد يعرف كيف عاشت كاترينا إيفانوفنا خلال فترات الانقطاع. طلبت مني

كاترينا إيفانوفنا في أحد الأيام أن آخذها إلى البستان، - لم تكن قد ذهبت إليه منذ بداية الربيع، لم يسمح لها ضعفها بذلك.

- عزيزي، - قالت كاترينا إيفانوفنا، - لا تنزعج مني أنا العجوز. أرغب برؤية البستان للمرّة الأخيرة. ففيه كنت أقرأ تورجينيف وأنا صبية. كما زرعت بنفسي فيه بعض الأشجار.

استغرقت وقتاً طويلاً لارتداء ملابسها. ارتدت عباءة صغيرة دافئة قديمة ومنديلاً دافئاً، وتمسكت بإحكام بيدي، ونزلت ببطء إلى الشرفة. كان المساء قد حلّ. تعرّى البستان. عرقلت الأوراق الساقطة السير، كانت تتهشم وتنسحق تحت الأقدام. أضاءت نجمة الفضاء المائل إلى الأخضر. بعيداً فوق الغابة بانَ الجانبُ المضيء من القمر. توقفت كاترينا إيفانوفنا عند شجرة عرّتها الريح واتكأت عليها بيدها وبكت. أمسكتها بقوة كي لا تقع. بكت مثل الناس المسنين غير خجلى من دموعها.

- لا سمح الله لك ياعزيزي، - قالت لي، - أن تحيا حتى مثل هذه الشيخوخة المتوحدة! لا سمح الله!

قدتها بحذر إلى المنزل. أعطتني في المساء ربطة من الرسائل المصفرّة القديمة، التي بقيت عن أبيها، لكي أقرأها. كانت هناك رسائل الرسام كرامسكي ورسام الغرافيك الإيطالي جوردان. كتب جوردان عن صداقته مع النحات الدنماركي تورفالدسين، وعن منحوتات لاتيران المدهشة المشغولة من المرمر. قرأت هذه الرسائل في الليل كعادتي. هبت الريح خلف الجدار، وضجت الشجيرات العارية المبللة، وتأرجح المصباح، كما لو كان يتحدث إلى نفسه من الملل. لسبب ما كان من الغريب قراءة هذه الرسائل المرسلة من روما هنا بالذات، في هذه الليلة المضطربة، فيما أسمع حارس القرية وهو يطرق على مطرقة بالقرب من الضواحي.

أثار تورفالدسين اهتمامي في ذلك الوقت، وفي موسكو لاحقاً قرأت كل ما أمكنني الحصول عليه حوله، عرفت عن صداقته مع القاص الأسطوري كريستيان أندرسون، وكتبت بعد عدة سنوات قصة عن أندرسون. يعود الفضل في كتابة هذه القصة للمنزل القديم.

بعد بضعة أيام نامت كاترينا إيفانوفنا ولم تستيقظ. لم تكن تعاني من أي مرض. كانت فقط تشكو من التعب. أرسلت برقية إلى ناستيا في لينينغراد. كانت يوركا قد انتقلت إلى غرفة كاترينا إيفانوفنا كي تكون قريبة مني إن احتجت شيئاً. دقت يوركا في أحد الأيام بقوة على الجدار وصرخت بصوت مرتعب:

تعال، الجدة تحتضر!

كانت كاترينا إيفانوفنا تستلقي فاقدة الوعي وفقط تنفسها بطيء بالكاد ملحوظ. جسست نبضها - لم يكن ينبض بل يرتعش بهدوء مثل شبك العنكبوت. ارتديت ملابسي. أشعلت المصباح وتوجهت إلى مستشفى القرية لاستدعاء الطبيب. كان المستشفى بعيداً وسط الغابة. عبقت الريح السوداء برائحة نشارة الخشب. كان الليل في أواخره، وحتى الكلاب لم تنبح. حقن الطبيب كاترينا إيفانوفنا بالكافور وتنهد ثم غادر، وقال قبل ذلك إن هذه سكرة الموت، وإنها ستستمر فترة طويلة، لأن قلب كاترينا إيفانوفنا بحالة جيدة. ماتت كاترينا إيفانوفنا في الصباح. اضطررت لإغلاق عينيها. لن أنسى أبداً كيف اقتربت منها بحذر وضغطت على جفنيها نصف المغمضين وفجأة سالت من عينها دمعة خفيفة. اختنقت يوركا من البكاء ثم ناولتني مغلفاً مطوياً وقالت:

- هنا تعليمات كاترينا إيفانوفنا عن طريقة دفنها.

فتحت المغلف، قرأت بضع كلمات مكتوبة بيد عجوز مرتجفة، عن أمنيتها بشأن ماذا يجب أن يُلبسوها بعد الموت. أعطيت الورقة للنساء اللواتي جئن منذ الصباح لتجهيز كاترينا إيفانوفنا لرحلتها الأخيرة. بعد ذلك ذهبت إلى المقبرة لاختيار مكان القبر. عندما عدت كانت كاترينا إيفانوفنا ممدة على الطاولة، فوقفت منذهلاً.

كانت ممدة نحيلة، مثل صبية، في ثوب زفاف قديم ذهبي اللون مع ذيل طويل واسع يلتف حول قدميها. كان يمكن من تحته رؤية حذاء أسود من الجلد. كانت يداها ممسكتين بشمعة داخل كفوف بيضاء. تم تثبيت باقة من الورد القرمزي الحريري على صدرها. كان وجهها مغطى بخمار. ولولا

الجلد الجاف والمتجعد المرئي بين الأكمام وحافة القفازات البيضاء، قد يعتقد المرء أن هذه امرأة شابة ونحيلة.

تأخرت ناستيا ثلاثة أيام، ووصلت بعد الدفن.

كل ما جرى سرده أعلاه – هو ذاته مادة الكاتب الحياتية التي يولد منها النثر. المهم هنا أن كل الظروف، كل التفاصيل، جو منزل القرية والخريف – كل هذا كان يتفق تماماً مع حالة كاترينا إيفانوفنا، مع الدراما الروحية القاسية التي عاشتها في أيامها الأخيرة. لكن، بالطبع، لم يتم تضمين كل ما شاهدته وتأملت فيه في قصتي «البرقية». فقد بقي الكثير خارج إطار القصة، كما يحصل في العادة. في كثير من الأحيان بالنسبة للقصة القصيرة، من الضروري، كما يقولون في اللغة الأدبية «تصفية» الكثير من المواد من أجل اختيار الأكثر قيمة منها.

أتيح لي أكثر من مرّة أن أراقب كيف يعمل الممثلون الجيدون الذين يؤدون أدواراً ثانوية. يكون للشخصية التي يؤديها ممثل من هذا النوع جملتان أو ثلاث فقط طوال المسرحية، لكن الممثل لا يكف عن طرح الأسئلة على المؤلف، ليس عن الصفات والمظهر الخارجي للشخصية فقط، بل عن تاريخ حياتها، عن الوسط الذي نشأت فيه أيضاً.

هذا الممثل بحاجة إلى هذه المعلومات الدقيقة كي يلفظ بشكل صحيح هاتين الجملتين أو الثلاث.

يحصل نفس الشيء مع الكتّاب. يجب أن يكون احتياطي المادة أكثر بكثير من تلك الكمية التي سيحتاجها من أجل القصة.

تحدثت عن «البرقية». لكن لكل قصة تاريخها ومادتها. كنت أعيش ذات شتاء في يالتا. كانت تتطاير إلى الغرفة أوراق شجر جافة عندما كنت أفتح النافذة. كانت تنزلق فوق الأرضية وتخرخش. في الليل هبّت رياح باردة من الجبال المغطاة بالثلوج. تألق الثلج بشكل سحري في ضوء النجوم المتغيرة.

كتب الشاعر آسييف، الذي يعيش بالقرب مني، قصائد عن أسيانيا البطلة (كان هذا زمن الحرب الأهلية)، عن «سماء برشلونة القديمة». غنّى الشاعر فلاديمير لوغافسكي بصوته الجهوري أغاني البحّارة الإنجليز:

الوداع أيها الأرض! السفينة تبتعد في البحر،
والنوارس تتبعها من أجل فضلات الطعام...

كنا نجتمع في الأماسي حول الراديو ونستمع إلى أخبار المعارك في أسبانيا. ذهبنا إلى المرصد. جعلنا الفلكي الأشيب نتفرج على النجوم في السماء - على إشعاع الأضواء النادرة والبعيدة في الفجوات الشاسعة في السماء، التي تصيب المرء بالدوار. تصل إلى أسماعنا في أحيان نادرة أصوات تدريبات أسطول البحر الأسود على إطلاق القذائف. في الليل، كانت طائرات غير مرئية تحلّق في السماء.

كنت أقرأ كتاب الكاتب الألماني برونو فرانك حول سيرفانتس. كانت الكتب قليلة، لذا كنت أقرأها عدة مرات. كان شعار «الصليب المعقوف»[1] في ذلك الوقت قد بدأ يزحف نحو أوروبا. كان هنريك مان، أينشتاين، ريمارك، ستيفان زفايج - الألمان الشرفاء، قد هاجروا من وطنهم، رافضين أن يكونوا شركاء في «الطاعون الأسود» الذي نشره الزعيم الشرير هتلر. حمل المبعَدون في قلوبهم إيماناً لا يتزعزع بانتصار الإنسانية. أحضر غايدار إلى منزلنا كلباً أشعث ذا عينين صفراوين مضحكتين. قال إنه كلب رعي من الجبل. كان غايدار يتظاهر بأنه لا يفهم شيئاً في الأدب. كان عموماً يتظاهر بأنه إنسان بسيط.

كنّا نسمع هدير البحر الأسود في الليل. كان يهدر أيضاً في النهار، لكنه لم يكن مسموعاً جيداً في النهار. كان من الأسهل علينا أن نكتب وسط ضجة البحر.

تلك هي مجموعة تفاصيل «جريان الحياة» في ذلك الوقت. ومنها تشكلت قصة «مجموعة كلاب الصيد». تجدون في هذه القصة كل ما ذكرته أعلاه: أوراق البلوط الجافة، الفلكي الأشيب، هدير المدافع، سيرفانتس، الأشخاص الذين لا يتزعزع إيمانهم بانتصار الإنسانية، كلب الرعي الجبلي، طيران الليل والكثير غيره. كل هذا يلتحم معاً، بالطبع، بنسبة معينة داخل بنية موضوع محدد.

---

1- شعار النازية - المترجم

من اللافت أنه بغض النظر عن نوع المطر الذي سيهطل، وحين يبدأ، فإنهم يطلقون عليه تحبباً اسماً مصغراً – «المطرة». «المطرة بدأت»، «المطرة انهمرت»، «المطرة غسلت العشب».

فلنتمعن في بعض أشكال المطر كي ندرك كيف تتجدد الكلمة عندما ترتبط بها انطباعات غير مباشرة، وكيف أنها تساعد الكاتب على أن يستخدمها من دون أخطاء. مثلاً، ما الذي يميز «المطر الغزير»، عن «الناعم»[1]؟ تعني كلمة «الغزير» – السريع والفوري. ينهمر المطر الغزير بشكل عمودي وبقوة. تصحبه دائماً ضجة. المطر الغزير مفيد بخاصة للنهر. تشكّل كل قطرة منه في الماء حفرة دائرية بحجم كأس ماء صغيرة، تقفز وتهبط من جديد خلال لحظات قبل أن تتلاشى، وتبقى كأس الماء هذا مرئية في القاع. تلمع قطرة الماء كما اللؤلؤ. وفي هذه الأثناء يعلو صوت يشبه رنين الزجاج، وحسب ارتفاعه يمكن تخمين ما إذا كان المطر سيزداد قوة أم سيهدأ.

يهطل المطر الناعم من الغيوم المنخفضة. البرك الناجمة عن هذا المطر تكون دافئة دائماً. إنه لا يصدر رنيناً، بل يهمس بشيء خاص به، مثير للنعاس، يتوغل بين الأشجار بطريقة غير ملحوظة، كأنه يلمس بأصابعه ورقة الشجر هذه أو تلك. يمتص الطين والطحلب في الغابات هذا المطر ببطء وبشكل كامل. في النتيجة، بعد ذلك، تبدأ كل أنواع الفطر في النمو بقوة. ينتشر الضباب في الهواء أثناء الأمطار الناعمة. يقول عامة الناس عن المطر الأعمى الذي يهطل والشمس مشرقة إن «الملكة تبكي». تشبه قطرات الماء التي تتلألأ تحت الشمس قطرات الدموع الكبيرة.

ومَن غير الملكة الجميلة الأسطورية يستطيع أن يذرف مثل هذه الدموع المتلألئة حزناً أو فرحاً!

يمكننا أن نراقب لفترة طويلة لَعِب الضوء أثناء المطر، ونراقب الأصوات المتنوعة – من الطرق الناعم على السقف الخشبي والرنين المنساب في أنبوب التصريف إلى همهمة مستمرة ومكثفة، عندما ينهمر المطر، كما

1- بالروسية «الفطري» أي الذي يجعل الفطر ينمو – المترجم

يقولون، مثل جدار. كل هذا مجرد جزء بسيط مما يمكن قوله عن المطر. غير أنه يكفي كي نشعر بالاستياء مما قاله لي أحد الكتاب وهو يغمز بخبث:

– أنا أُفضّل الشوارع والمنازل الحية على الطبيعة المرهقة والميتة. لا ينالنا من المطر شيء باستثناء الإزعاج والمشاكل. أنت ببساطة إنسان حالم!

كم عدد الكلمات الرائعة الموجودة في الروسية لما يسمى الظواهر السماوية! تمر عواصف الصيف الرعدية فوق الأرض و«تتلاشى» خلف الأفق. يحب العامة ألّا يقولوا مرت السحابة، بل هوت. تضرب الرعود الأرض أحياناً ضربة مباشرة بكامل قوتها، وأحياناً تشتعل فوق الغيوم السوداء مثل جذع شجرة ذهبية خُلعت من جذورها. يلتمع قوس القزح فوق الأفق الضبابي الجاف، الرعد يتدحرج، يتماوج، يتمايل، يهتز، يهز الأرض.

قبل مدّة قليلة في القرية، جاء صبي صغير إلى غرفتي خلال عاصفة رعدية، ونظر في وجهي بعينين واسعتين وهو فرح، وقال:

تعال لنتفرج على الرعود!

كان محقاً عندما ذكر هذه الكلمة بصيغة الجمع: كانت العاصفة الرعدية مطوقة، ثم أرعدت فوراً من جميع الجهات. قال الصبي «لنتفرج على الرعود» فتذكرت كلمات من «الكوميديا الإلهية» لدانتي حول أن «شعاع الشمس سكت».

هنا وهناك ثمة خلط في المفاهيم. لكنه منح الكلمة قدرة تعبيرية استثنائية.

سبق لي أن ذكّرت بالبرق. في الغالب يحدث البرق في شهر تموز، عندما ينضج القمح. لهذا السبب يوجد اعتقاد عند الناس مفاده أن البرق «يُنضج القمح» – يضيئونه في الليل وهذا يجعل القمح ينمو بسرعة أكثر. يطلقون عليه في محافظة كالوجسك اسم «الخبّاز».

تقف كلمة «فجر» – إحدى أروع كلمات اللغة الروسية – على قدم المساواة مع كلمة «برق» من حيث شعريتها. لا يلفظون هذه الكلمة أبداً بصوت عال. حتى إنه لا يمكن أن نتصور أنه يمكن الصراخ بها. لأنها تشبه ذلك الصمت المستقر في الليل عندما يهيمن ضوء أزرق واضح وخافت على غابة القرية. «تكشف»، كما يقول العامة، عن هذه الفترة من النهار. في

ساعة الفجر هذه، يتوهج نجم الصباح على ارتفاع منخفض فوق الأرض نفسها. ويكون الهواء نقياً مثل مياه الينابيع. في الفجر، عند طلوع النهار، ثمة شيء نقي، مفعم بالحكمة. يغسل الندى العشب في الفجر، وتفوح في القرى رائحة بخار الحليب. ويعلو الغناء وسط الضباب خلف مساكن الرعاة.

ينتشر الضوء بسرعة. ثمة هدوء في البيت الدافئ. ولكن بعد ذلك تسقط مربعات الضوء البرتقالي على الجدران الخشبية. الشمس تشرق، وتضيء الخشب مثل العنبر المتعدد درجات الألوان.

فصول الخريف مختلفة - فاتمة وبطيئة. لا رغبة في الاستيقاظ في الصباح: فمهما فعلت، لن تستطيع تدفئة الأرض الباردة أو أن تعيد ضوء الشمس المبتسم.

يجف كل شيء، لكن الإنسان لا ييأس. تشتعل المواقد في الأكواخ منذ الفجر يتدفق الدخان فوق القرى وينتشر على طول الأرض. ثم ترى الأمطار المبكرة تطرق على النوافذ خلف الضباب.

لا يحدث الفجر في الصباح فقط، ولكن أيضاً في المساء. غالباً ما نخلط بين غروب الشمس وشفق المساء.

يبدأ الفجر المسائي عندما تغيب الشمس خلف حافة الأرض. حينها تسيطر الشمس على السماء التي بدأت تُعتم، وتنشر فوقها العديد من الألوان - بدءاً من الذهبي الخالص إلى الفيروزي - ويتحول ببطء إلى الشفق والليل المتأخرين. تزقزق العصافير فوق الشجر، تضيء أولى النجوم، وينتشر عبر الفضاء والضباب. ليالي الشمال البيضاء، ليالي الصيف في لينينغراد - إنها فجر متواصل ـ أو ربما، اتحاد فجرين، صباحي وليلي. لم يعرف هذا بدقة مدهشة إلا بوشكين:

أحبك يا مدينة بطري
أحب شكلي القوي المتناغم
تيار نهر النيفا الهادر،
ضفافه من الجرانيت.
أسوارك الحديدية المزخرفة

لياليك الباعثة على التفكير
الغسق الشفاف، اللمعان وسط الظلام
أكتب، أقرأ من دون مصباح
شوارع
نظيفة
هادئة
رحيبة،
منارة الأدميرال مضاءة
فجر يستبدل فجراً
لا يسمح لعتمة الليل
أن تسيطر على السماء
يسرع، يسمح لليل بنصف ساعة.

لو كان من الممكن أن نتخيل أن الشعر الروسي اختفى، وأن اللغة الروسية ذاتها اختفت، وبقي منها فقط تلك الأبيات، فحتى في هذا الحال سيكون غنى اللغة الروسية وقوتها الشعرية واضحين لأي إنسان، ذلك لأن أبيات بوشكين هذه تجمع، كما في البلّور السحري، كل خواص لغتنا عير العادية.

إن الشعب الذي أنشأ هذه اللغة، هو حقاً شعب عظيم وسعيد.

# أكوام الزهور والأعشاب

ليس حارس الغابة وحده من يبحث عن تفسير للكلمات. كثير من الناس يبحثون ولا يهدأون قبل أن يعثروا على التفسير.

عبر موج الريح،
عبر هذه الرمال،
سيقودونني بحبل
حول رقبتي
كي أحب الحنين.

لم أكن أعرف ماذا تعني هذه الكلمة، لكني شعرت بأنه فيها محتوى شعري. كما لو أن هذا الكلمة تُشعّه من نفسها. بقيت لفترة طويلة عاجزاً عن معرفة دلالة هذه الكلمة، ولم توصلني كل تخميناتي إلى أي نتيجة. لماذا استخدمها يسينين مع كلمة «الريح»؟ من الواضح أن هذه الكلمة مرتبطة بطريقة ما مع الريح. لكن كيف؟

عرفت مغزى هذه الكلمة من الكاتب يورين الخبير في هذه المناطق. كان يورين فضولياً للغاية حول كل شيء له أدنى علاقة بالطبيعة وأسلوب الحياة وتاريخ روسيا الوسطى. وبهذه الطريقة، ذكّر أولئك الخبراء المهتمين بهذه المنطقة، الباحثين الشغوفين الذين يجمعون، حبة حبة وقطرة قطرة، جميع أنواع الميزات المثيرة للاهتمام من الناحية، أو حتى المنطقة، حول الجغرافيا، والنباتات، والحيوانات والتاريخ، التي لا تزال محفوظة في المدن الروسية الصغيرة.

جاء يورين إليّ في القرية وذهبت برفقته إلى المرج، خلف النهر. مشينا إلى جسر المشاة على رمال النهر النظيفة. كانت هناك رياح في اليوم السابق، وكما يحدث دائماً بعد الريح، كانت هناك تموجات على الرمال.

– هل تعرف ما يسمّى هذا؟ – سألني يورين، وأشار إلى تموج الرمال.

– لا، لا أعرف.

– موج «свей»، – ردّ يورين. – تشكّل الرياح هذه الأمواج على الرمال. من هنا جاءت هذه الكلمة.

فرِحْت، كما من الواضح، فرِح حارس الغابة عندما عثر على تفسير للكلمة. لهذا كتب يسينين «موج الريح» وأشار إلى الرمل («عبر هذه الرمال...»). أكثر ما أفرحني أن هذه الكلمة عبّرت، كما افترضت، عن ظاهرة من الطبيعة بسيطة وشعرية. كان موطن يسينين قرية كونستانتينفه قرب يوكا (تسّمى الآن «يسينينه»). تُغرب الشمس دائماً من تلك الجهة. ومنذ ذلك الحين، يبدو لي شعر يسينين أفضل تعبير عن غروب الشمس الواسع وراء نهر أوكا وعن الغسق عند المروج الرطبة، عندما يسقط عليها ضباب أو دخان مزرقّ بسبب حروق الغابات. صادفت في هذه المروج، التي قد تبدو خالية من الناس، الكثير من الأحداث واللقاءات غير المتوقعة.

# القواميس

تخطر في البال أحياناً فكرة جيدة تتعلق بتأليف قواميس جديدة للغة الروسية، (إضافة، بالطبع، للقواميس العامة الموجودة حالياً). يمكن أن نجمع في أحد هذه القواميس الكلمات ذات العلاقة مع الطبيعة، وفي آخرَ الكلمات المحلية الجيدة والمعبّرة، في الثالث – كلمات الناس من مختلف الاختصاصات، في الرابع، الكلمات المهملة والميتة وكل الكلمات المبتذلة القذرة التي تملأ اللغة الروسية. هناك حاجة إلى هذا القاموس الأخير من أجل منع الناس من استعمال الكلمات المكسّرة والضعيفة.

جاءتني الفكرة المتعلقة بتجميع الكلمات ذات العلاقة بالطبيعة عندما سمعت عند البحيرة فتاة تعدّد أسماء مختلف أنواع الأعشاب والأزهار. سيكون هذا القاموس تفسيرياً، بالطبع. يجب تفسير كل كلمة، ويجب بعدها إدخال عدّة مقاطع من مؤلفات الكتّاب، والشعراء، والعلماء، التي لها صلة علمية أو شعرية، بهذه الكلمة. على سبيل المثال، بعد كلمة «جليد»، يمكن طباعة مقتطف من بريشفين: «معلقة تحت المنحدر، تحولت جذور الأشجار الطويلة الطويلة الآن إلى جليد تحت المنحنيات المظلمة للمنحدر، ونمت أكثر فأكثر ووصلت إلى الماء. وعندما بدأ النسيم بتحريك الماء ووصلت الموجات الصغيرة إلى نهايات الرخويات تحت المنحدر، أثارت حماسها، وتمايلت، وارتطمت بعضها ببعض، ورنّت، وكان هذا الصوت هو الصوت الأول للربيع، القيثارة الأزلية» ...

وبعد كلمة «أيلول» من المستحسن طباعة مقطع من باراتينسكي:

وها هو أيلول!

بطيء شروق الشمس
شمسه باردة
يرتجف شعاعه
في مرآة الماء.

عندما كنت أفكر بهذه القواميس، خاصة قاموس كلمات «الطبيعة» قسّمته إلى عدة أقسام: «الغابات»، «الحقول»، «المروج»، الكلمات عن أوقات السنة، وعن الظواهر الجوية والماء والأنهار والبحيرات، عن النباتات والحيوانات.

أدركت أنه يجب تأليف هذا القاموس بطريقة تجعل من الممكن قراءته ككتاب. عندها قد يساعدنا على أن نتصور الطبيعة عندنا، كما ثراء اللغة الذي لا حدود له. وبالطبع، فهذا الجهد ليس بمقدور شخص واحد، فلن تكفيه حياته كلها.

تراودني الرغبة في كل مرّة أفكر فيها بهذا القاموس بأن أقتنص من عمري عشرين عاماً، لكيلا أقوم بنفسي، طبعاً، بتأليف هذا القاموس – إذ لا أملك المعارف الضرورية من أجل هذا العمل، بل، على الأقل، لكي أشارك في العمل عليه. حتى إنني بدأت في تدوين بعض الملاحظات لهذا القاموس، ولكن، كالعادة، فقدتها، ومن المستحيل تقريباً استعادتها من الذاكرة.

انشغلت في أحد الأيام بجمع الأعشاب والورود. تعرفت على أسمائها وخواصها من التسميات القديمة للنباتات وسجلت كل هذا في ملاحظاتي. كان هذا جهداً ممتعاً.

لم أتخيل بوضوح قبل الآن منطق كل ما يجري في الطبيعة، وكل التعقيد والكمال الموجود في كل ورقة شجر، وردة، وجذع أو بذرة. يذكّر هذا المنطق بنفسه أحياناً بمظهره الخارجي. في أحد أيام الخريف قضيت مع صديق لي بضعة أيام نمارس الصيد عند مجرى النهر القديم في أوكا. كان المجرى قد فقد صلته بالنهر منذ مئات السنين وتحول إلى بحيرة طويلة وعميقة. كانت النباتات تحيط به، بحيث كان يصعب الوصول إلى الماء

في بعض الأماكن. كنت أرتدي سترة من الصوف التي علقت بها الكثير من الأشواك والبذور المختلفة. كانت النهارات صافية وباردة، وكنا ننام في الخيمة مرتدين ملابسنا. هطل مطر خفيف في اليوم الثالث فتبللت سترتي. شعرت في الليل بألم حاد في بعض أجزاء جسمي مثل اليدين والصدر يشبه نغزات الإبر. اتضح أن البذور المستديرة الشكل من أحد أنواع العشب، المشبعة بالرطوبة، تتحرك، بدأت تلتف بشكل حلزوني وثبتت في سترتي. اخترقتها، ثم تغلغلت في قميصي. وفي منتصف الليل وصلت أخيراً إلى جسدي وبدأت في وخزي بحذر.

كان هذا، على الأغلب، واحداً من أكثر الأمثلة المنطقية وضوحاً. سقطت البذرة على الأرض ومكثت هناك بلا حركة إلى أن هطلت الأمطار الأولى. لم يكن للبذرة نفع في التغلغل في التربة الجافة. لكن ما إن أصبحت التربة رطبة نتيجة المطر، حتى انتعشت البذرة التي تتحرك بشكل لولبي، اخترقت التربة مثل المثقاب، انتفخت، انتعشت، وبدأت تنمو في الوقت الطبيعي المحدد لها.

انحرفت من جديد عن «خط السرد الرئيسي» وتحدثت عن البذور. لكن، في الوقت الذي كنت أكتب فيه عن البذور، تذكرت أيضاً ظاهرة مذهلة. لا أستطيع إلا أن أكتب عنها. خاصة أنها تتضمن شيئاً من إمكانية المقارنة الواضحة، ولو البعيدة، بالعلاقة مع الأدب، وبخاصة بالسؤال حول أي الكتب التي ستعيش حياة طويلة، وأي منها لن يصمد أمام امتحان الزمن وستموت، مثل تلك الزهرة الرومانسية التي «لا تزدهر إلا في الصباح الملبد بالغيوم ثم تذبل». نحن نتحدث عن رائحة زهور الزيزفون الحادة – شجرة متنزهاتنا الرومانسية. يمكن الشعور بهذه الرائحة فقط من مسافة بعيدة. تقريباً، لا يمكن الشعور بها بالقرب من الشجرة. تقف شجرة الزيزفون كما لو كانت محاطة على مسافة كبيرة بحلقة مغلقة من هذه الرائحة. من الواضح أن هذا له فائدته الخاصة، لكننا لم نكتشفها بعد. الأدب الحقيقي – يشبه زهرة الزيزفون.

في الغالب، ثمة حاجة إلى مسافة زمنية لاختبار وتثمين قوة ودرجة كماله، والإحساس بأنفاسه وجماله الذي لا ينضب. إذا كان الزمن يمكنه أن يطفئ

شعلة الحب وبقية المشاعر الإنسانية، فإنه يُخلّد الأدب الحقيقي. يجب أن نتذكر كلمات سالتيكوف شيدرين: لا تشمل الأدب قوانين الاضمحلال. وكلمات بوشكين: «الروح في قيثارتي العزيزة تخرج من رمادها وتستعيد حياتها». وكلمات فيت: «هذه الورقة التي جفت وسقطت تحترق بالذهب الأبدي في الأغاني». يمكن أن نورد الكثير من مثل هذه الأقوال التي يقولها الكتّاب، والرسامون، والشعراء، وعلماء مختلف الأزمان والشعوب.

يجب أن يحفزنا هذا الفكر إلى «تحسين أفكارنا المفضلة حد الكمال»، إلى القلق المستمر، إلى التغلب على آفاق جديدة من المهارة الحرفية، وإلى فهم المسافة الحتمية الكائنة بين إبداع الروح الإنسانية الحقيقي، وذلك الأدب الهزيل الجاف الضعيف الذي لا تحتاجه الروح الإنسانية الحية على الإطلاق.

نعم، يمكن أن يقودنا الحديث عن خصائص زهر الزيزفون إلى آفاق بعيدة!

من الواضح أن كل شيء يمكن أن يكون شريكًا في الفكر الإنساني ولا يمكن إهمال أي شيء. بعد كل شيء، تولد القصص الخيالية بمساعدة متواضعة من مثل هذه الأشياء غير المهمة وحتى غير الضرورية مثل البازلاء الجافة أو عنق زجاجة مكسورة.

بعد هذا الانزياح عن الموضوع، سأحاول مع ذلك أن أستعيد من الذاكرة بعض الإضافات التي قمت بها لقواميس مفترضة (خيالية تقريباً). حسب علمي، لدى بعض كتّابنا قواميسهم «الخاصة» بهم، لكنهم لا يسمحون لأحد برؤيتها ويتحدثون عنها من دون رغبة.

ما كتبته قبل فترة عن النبع، عن المطر عن الرعود، عن الفجر، عن التموج، وأسماء النباتات والأزهار، – هي الاقتراحات للقواميس التي استعادتها ذاكرتي. أول اقتراحاتي كان عن الغابات. ترعرعت في الجنوب الخالي من الغابات، ولهذا كانت الغابات أكثر ما أحببت في الطبيعة في روسيا الوسطى.

كانت كلمة «البرية» أول كلمة عن «الغابة» سحرتني تمامًا. صحيح أنها لا تشير فقط إلى الغابة، ولكن لأول مرة سمعتها من حرّاس الغابة وكذلك كلمة

«البري»). منذ ذلك الحين، أصبحت مرتبطة في تصوري بغابة كثيفة ملأى بالطحالب، غابة رطبة تتناثر فيها الأشجار التي خلعتها الرياح، ذات رائحة اليود الناتج عن التسوس وجذوعها المتعفنة، وسط الغسق المائل إلى الزرقة والصمت. «هل أنت موطني، يا بريتي الأزلية!».

تتالت بعد ذلك كلمات حقيقية عن الغابة: بستان، حور، غابة صغيرة، حرش صنوبر، مستنقعات الغابات الجافة، المحروقة، غابة سوداء، قفر، حافة، تطويق الغابة، غابة البتول، قطع، لحاء، البلوط والعديد من الكلمات البسيطة الأخرى، كلمات ممتلئة بالمحتوى التصويري. حتى إن المصطلح التقني الجاف، من نوع «أعمدة تحديد الحدود بين قطع الأراضي الحرجية» يمتلئ بروعة خاصة. إن كنتم تعرفون الغابات فستتفقون معي.

تنتصب الأعمدة ذات الارتفاع المنخفض عند حدود قطع الأراضي. هناك دائماً تل ترابي بالقرب منها. يتشكل هذا التل من التراب الذي يرمى خارج الحفرة عندما يجري الحفر لنصب الأعمدة. في أعلى العمود أرقام محفورة تحدد رقم «القطعة». دائماً على هذه الأعمدة، تستريح الفراشات بأجنحة مطوية، وتجتهد أسراب النمل بالعمل. الجو في الغابات أكثر دفئاً حول هذه الأعمدة (أو هكذا قد يبدو فقط). لذا تجلس دائما لتستريح هنا مستنداً بظهرك إلى العمود، تنظر نحو السماء وتصغي إلى هسيس القمم الهادئ. تُشاهد القمم التي تسبح الغيوم فوقها ببطء بوضوح من خلال الفجوات. وعلى الأغلب يمكنك الجلوس هكذا لأسابيع وأشهر دون أن ترى أي إنسان. في السماء وبين الغيوم، هناك نفس السلام في منتصف النهار كما هو الحال في الغابة، وفي قلبك.

تتعرف أحياناً بعد عام أو عامين على عمود قديم عرفته. وفي كل مرّة تفكر كم من المياه سالت، وأين تواجدت في هذا الوقت، كم عشت من أحزان وأفراح، وهذا العمود ينتصب هنا، في الليل والنهار، في الشتاء والصيف، كما لو أنه ينتظرك باعتبارك صديقاً مخلصاً موثوقاً. وظهرت عليه فقط أشنات صفراء وتعربشت حتى قمته، وصارت تزهر وتنبعث منها رائحة اللوز المر الذي استوى بفعل حر الغابة. أفضل شيء هو النظر إلى الغابات من أبراج مراقبة الحرائق. حينها يمكنك أن ترى بوضوح كيف تتجه نحو

الأفق، وترتفع إلى التلال، وتنزل إلى التجاويف، وتقف كجدران حصن فوق الثقوب الرملية. هنا وهناك يلمع الماء - مرآة بحيرة غابة هادئة أو دوامة نهر في غابة مياهه «قاتمة». من البرج يمكنك التحديق في كامل الغابة الكثيفة، وأرض الغابة الممتدة بأكملها التي لا حد لها، والتي تدعو الإنسان إلى داخل غاباتها الغامضة. لا يمكن مقاومة هذه الدعوة... تحتاج إلى أخذ حقيبة ظهر وبوصلة على الفور والذهاب إلى الغابات لتضيع في هذا المحيط الصنوبري الأخضر. هذا ما فعلته في أحد الأيام برفقة أركادي غايدار. سرنا في غابات لا طرق فيها طوال اليوم وطوال الليل تقريباً، تحت النجوم التي كانت ترسل أضواءها عبر أشجار الصنوبر لنا وحدنا فقط (لأن كل ما حولنا كان يغط في نوم عميق)، إلى أن وصلنا عند الفجر إلى نهر وسط الغابة كان مغلفاً بالضباب. أشعلنا النار عند ضفة النهر وجلسنا حولها، صمتنا طويلاً، وأصغينا إلى اصطدام الماء بجذع شجرة مقطوع، وصوت غزال حزين. جلسنا صامتين ندخن إلى أن بزغ من الشرق ضوء الفجر الحنون.

- كما لو أنها مائة عام! -قال غايدار. -هل اكتفيت؟

- لا أظن.

- وأنا لم أكتف. ناولني الإبريق. سنغلي الشاي.

ذهب إلى النهر وسط العتمة. سمعته وهو يغسل الإبريق بالرمل ويشتمه لأن مقبض الإبريق انخلع. ثم بدأ يترنم بهدوء بأغنية غير معروفة. كان صوته يبعث على الهدوء. الغابة كذلك استمعت إلى صوت غناء غايدار، والنهر وحده من كان يتذمر، غاضباً من جذع الشجرة المقطوع.

توجد أيضا العديد من الكلمات التي ليست من الغابة، لكنها أيضاً بنفس قوة كلمات الغابة، وتدهشنا بالروعة المخفية بداخلها.

يمكن للكلمات المحلية أن تثري اللغة فقط عندما تكون تصويرية معبّرة وذات وقع ومفهومة. ولا توجد أي حاجة على الإطلاق إلى الشروحات المملة والحواشي كي تكون مفهومة. ببساطة، يجب أن تكون الكلمة مرتبطة بجميع الكلمات المجاورة لها، من أجل أن تكون دلالتها مفهومة

للقارئ فوراً، من دون أية توضيحات من المؤلف أو المحرر. إن كلمة واحدة غير مفهومة يمكن أن تدمّر للقارئ كل البناء التعبيري للجملة. سيكون من العبث القول إن الأدب يحيا ويؤثر فقط طالما أنه مفهوم. إن المؤلفات الأدبية غير المفهومة، أو الغامضة، أو المتصنعة، يحتاجها فقط مؤلفها، ولكن الناس لا يحتاجونها أبداً. كلما كان الهواء أكثر شفافية كانت الشمس أكثر سطوعاً. كلما كان السرد أكثر شفافية، تجاوب قلب الإنسان معه أكثر. عبّر ليف تولستوي باختصار ووضوح عن هذه الفكرة: «البساطة هي الشرط الضروري للرائع».

ثمة الكثير من بين الكلمات المحلية التي سمعتها ما هو غير مفهوم أو لا يثير الاهتمام. لكن تصدف كلمات مذهلة في قدرتها التعبيرية. الكلمات من هذا النوع تُغني اللغة المعاصرة.

سمعت كلمات عامية من هذا النوع من رجل مسن ذي روح طفولية، وهو شغّيل مجتهد وفقير، ليس بسبب الفقر، بل لأنه يكتفي في حياته بالقليل، يدعى العم سيمون. توفي عام 1954. يمثّل العم سيمون الروح الروسية بأفضل صورها – إنسان أبيّ، سخي، عزيز النفس، وذلك على الرغم من الفقر الخارجي لحياته. كان يحكي عن أي شيء بطريقته الخاصة، بحيث يبقى في الذاكرة مدى الحياة. مثلاً ـ كان يحب الحديث عن الحانات، حيث كان الرجال «يغلون» حتى الصباح في الجدل، وشرب الشاي وتنشق دخان التبغ.

يجب ألا تتجاهل أي شيء أثناء البحث عن الكلمات. أنت لن تعرف أبداً متى تعثر على الكلمة الصحيحة. عندما كنت أحاول أن أعرف عن البحر وعن عمل ولغة البحّارة، بدأت أقرأ الكتب الإرشادية (الدليل) الخاصة بالقبطان. في هذه الكتب جميع المعلومات عن هذا البحر أو ذاك: وصف الأعماق، التيارات، الرياح، الضفاف، الموانئ، أضواء المنارات، الصخور التي تحت المياه، وكل ما هناك حاجة إليه من أجل الإبحار الآمن.

كان أول دليل وقع بين يدي عن البحر الأسود. بدأت أقرأ فيه وذُهلت من لغته الرائعة، الدقيقة، والمتميزة. وسرعان ما عرفت سبب هذا التميز:

طبعات هذه الكتب التي لا تحمل تواقيع مؤلفيها في بداية القرن التاسع عشر خلال فترات زمنية متفرقة، علماً بأن كل جيل من البحّارة كان يضيف إلى هذه الكتب تعديلات من عنده. لذلك، تنعكس الصورة الكاملة للتغيرات اللغوية خلال أكثر من مائة عام بوضوح تام في هذه الكتب. تتعايش لغة أجدادنا وأجداد أجدادنا بشكل سلمي جنباً إلى جنب مع اللغة الحديثة. يمكن للمرء أن يحكم على مدى تغير بعض المفاهيم بشكل كبير اعتماداً على هذه الكتب الإرشادية. على سبيل المثال، يقول الدليل حول الرياح الأكثر قسوة وتدميراً في الشمال الشرقي «الشواطئ مغطاة بكآبة سميكة». بالنسبة لأجداد أجدادنا «الكآبة» تعني الضباب الأسودّ، بالنسبة لنا هي حالتنا النفسية.

لغة البحّارة لغة قوية، طازجة، تمتلئ بالفكاهة الخفيفة، وتحتاج إلى دراسة منفصلة، مثلها مثل لغات الناس من مختلف المهن.

لا تقلّ اللغات واللهجات المحلية في بلادنا أهمية عن «كلمات الطبيعة». عادة، يشير سوء استخدام الكلمات المحلية إلى عدم النضج والافتقار إلى محو الأمية الفنية للكاتب. يتم استخدام الكلمات بشكل عشوائي، إما تكون مفهومة قليلاً، أو حتى غير مفهومة تماماً للقارئ العام، وتُستخدم من دون رغبة في إعطاء قوة حية للأشياء.

هناك قمة – لغة أدبية روسية نقية ومرنة. إن إثراءها بالكلمات المحلية يتطلب اختياراً صارماً وذوقاً رائعاً.

# حادثة في متجر الشفانغ

عشت في شتاء عام 1921 في أوديسا، في متجر كان في الماضي يتبع شركة «الشفانغ» للألبسة الجاهزة. استوليت على غرفة تبديل الملابس في الطابق الثاني. كانت تحت تصرفي ثلاث غرف كبيرة فيها مرايا مصنوعة بالطريقة التقليدية اليدوية. كانت المرايا مثبتة على الجدران بقوة، بحيث باءت بالفشل كل جهودي، وجهود الشاعر إدوارد بارفيتسكي لنزع هذه المرايا من أجل أن أستبدل بها بعض البضائع من البازار الجديد. لم تتحرك أي واحدة من المرايا من مكانها. ولم يكن هناك أثاث في غرفة القياس باستثناء ثلاثة صناديق فارغة من الخشب المتعفن. من الجيد أنني تمكنت من إزالة الباب الزجاجي بسهولة من المفصلات. كنت أخلعه كل مساء، وأضعه على درجين وأرتب سريري فوق هذا الباب. كان الباب الزجاجي زلقاً جداً، وبالتالي في الليل انزلقت عنه المرتبة القديمة عدة مرات وسقطت على الأرض. كنت أستيقظ على الفور وأكتم أنفاسي ما إن تبدأ المرتبة بالانزلاق، وأخاف حتى من تحريك أصبعي، آملاً بغباء، أن تتوقف المرتبة عن الانزلاق. لكنها كانت تنزلق ببطء وإصرار، بحيث لم تساعدني حيلتي.

لم يكن هذا أمراً مضحكاً على الإطلاق. كان الشتاء شديد البرودة. تجمّد البحر بدءاً من الميناء حتى أصغر نبع. كانت الجسور المبلطة بالغرانيت تلمع في الشمال الشرقي. هطلت الثلوج عدّة مرّات وهذا ما جعل البرد يبدو أكثر برودة مما لو أن الثلج ثبت فوق الشوارع.

كانت في غرفة القياس مدفأة من الحديد، لكن لم يكن لدي ما أشعله فيها. كما أنه لم يكن ممكناً لهذه المدفأة البائسة أن تدفئ الغرف الكبيرة، واكتفيت

باستخدامها لصنع الشاي. كانت بضع صحف قديمة كافية لهذا الأمر. كان فوق الدرج الثالث طاولة، وكنت أستفيد منها في المساء لإشعال المدفأة.

كنت أستلقي وأتغطى بكل ما يمكن أن يدفئني، وأقرأ قصائد الشاعر خوسيه ماريا إيرديا. نُشرت القصائد في أوديسا في عام الجوع هذا، وأستطيع أن أشهد أنها لم تُضعف شجاعتنا. شعرنا بالصمود مثل الرومان، وتذكرنا قصائد للشاعر السوفييتي شينغيلي: «يا أصدقاء، نحن الرومان، نحن ننزف دماً...».

لم ننزف دماً، بالطبع، لكنا، نحن الشبان المرحين، عانينا أحياناً من البرد والجوع الشديدين. لكن لم يتذمر أحد منّا.

في الأسفل، في الطابق الأول من المتجر، أقيم نشاط محموم ومريب إلى حد ما من قبل مشغل فني خاص. كان يرأس هذا المشغل رسام قديم كثير التذمر معروف في أوديسا تحت لقب «ملك اللافتات». كان المشغل ينفّذ طلبات اللافتات، يخيّط قبعات نسائية، ويصنع «قباقيب» (أحذية نسائية من الطراز القديم الذي يتميز ببساطته: يتم تثبيت بضعة شرائط فقط على النعل الخشبي!)، ويرسم اللوحات الدعائية للأفلام السينمائية.

في أحد الأيام أسعد الحظ المشغل وحصل على تكليف لما يسمّى «زخرفة القوس» للسفينة الوحيدة في البحر الأسود في ذلك الوقت «بيستيل». كانت السفينة تستعد لأول رحلة لها إلى باتوم. كان الهيكل مصنوعاً من صفائح الحديد، وتم طلاؤه على خلفية سوداء بزخرفة نباتية ذهبية. انشغل الجميع بهذا العمل، حتى إن الشرطي جورا كان يترك أحيانًا المركز المجاور للتفرج عليه.

كنت أعمل في ذلك الوقت سكرتيراً في مجلة «البحّار». كان يعمل في المجلة العديد من الكتّاب الشبان. من بين الكتاب القدامى وذوي الخبرة، كان أندريه سوبول فقط يأتي غالبًا إلى مكتب التحرير عندنا – شخص لطيف ومتحمس دائمًا ولا يهدأ. أحضر سوبول في إحدى المرّات قصة له إلى مجلة «البحّار»، كانت قصة مشتتة، مشوّشة، على الرغم من أنها مثيرة للاهتمام من ناحية الموضوع وتنم عن موهبة لا شك فيها.

قرأ الجميع القصة وشعروا بالامتعاض: لا يمكن نشرها في حالتها هذه. لم يجرؤ أحد على أن يقترح على سوبول إعادة كتابتها. كان سوبول من هذه الناحية صعب المراس. وليس ذلك بسبب الغرور الذاتي (فلم يكن الغرور من صفاته تقريباً)، بل بسبب ردود فعله العصبية: ولم يكن باستطاعته مراجعة ما يكتبه وكان يفقد الاهتمام به.

جلسنا وفكّرنا: ما العمل؟ كان يجلس معنا العجوز بلاغوف، المدقق لدينا، المدير السابق للصحيفة الواسعة الانتشار في روسيا «الكلمة الروسية»، المساعد الأيمن للمحرر الشهير سيتين. كان إنساناً قليل الكلام مرعوباً من ماضيه الشخصي. مع كل شخصيته القوية، فهو لم يتناسب على الإطلاق مع الشبان الحيويين والصاخبين في مكتب أسرة التحرير. أخذت مخطوطة سوبول معي إلى متجر الشفانغ، كي أعيد قراءتها مرّة أخرى. في وقت متأخر من المساء (لم تكن الساعة قد تجاوزت العاشرة، لكن المدينة الغارقة في العتمة كانت قد فرغت فعلاً من الناس منذ الغسق، والريح وحدها كانت تعوي عند مفارق الطرق)، طرق الشرطي جورا كوزلوفسكي على باب المتجر.

لففت حزمة من صفحات الصحيفة، أشعلتها ومضيت بها، كأنها مشعل، لكي أفتح باب المخزن الثقيل المسنود بأنبوب غاز صدئ. لم يكن ممكناً أن أحمل الشعلة معي – فقد انطفأت ليس بسبب حركة الهواء الخفيفة فقط، بل حتى من التحديق بها أيضاً.

– أحد المواطنين يرغب بمقابلتك، – قال جورا.

– تحقق من شخصيته، عندها سأسمح له بالدخول. يوجد هنا مشغل. الألوان وحدها تساوي ثلاثة ملايين روبل.

بالطبع، إذا أخذنا بعين الاعتبار أنني، مثلاً، أتقاضى مليون روبل في الشهر من مجلة «البحّار» فإن هذا المبلغ غير ضخم كما تخيل جورا (كان يكفي حسب أسعار السوق لشراء أربعين علبة كبريت).

كان بلاغوف يقف خلف الباب. تأكدت من شخصيته. سمح له جورا بالدخول إلى المتجر، وقال إنه سيعود إلينا بعد ساعة أو ساعتين ليشرب الشاي الساخن.

– إليك الأمر، – قال بلاغوف. ما زلت أفكر بقصة سوبول هذه. قصة موهوبة. يجب ألا تضيع. تعرف، لدي عادة، كما لدى كل ذئب صحفي عجوز، ألا أسمح بأن تفلت القصص الجيدة من يدي.

– ماذا يمكنك أن تفعل؟ – أجبته

– أعطني المخطوطة. أقسم لك أنني لن أغيّر فيها كلمة واحدة. سأبقى هنا لأن العودة إلى البيت مستحيلة في هذا الوقت، فقد يعرّوني من ملابسي. سأمر على المخطوطة أمامك.

– ماذا تقصد بـ «سأمر»؟ – سألته.

– المرور يعني التصحيح. – سبق أن قلت لك، لن أغيّر أي كلمة.

– وماذا ستفعل؟

– سترى.

شعرت بشيء غامض في كلام بلاغوف. سر ما دخل في هذه الليلة الشتوية العاصفة إلى متجر الشفانغ برفقة هذا الإنسان الهادئ. كان يجب أن أعرف هذا السر، لذلك وافقت.

أخرج بلاغوف من جيبه بقية شمعة سميكة جداً من نوع شمع الكنائس. كانت تحيط بها خيوط ذهبية لولبية. أشعل بقية الشمعة ووضعها على الصندوق، جلس فوق حقيبتي المهترئة، ثم انحنى فوق المخطوطة وهو يمسك بيده قلم رصاص.

جاء جورا كوزلوفسكي في منتصف الليل. كنت في هذه اللحظة قد غليت الماء ووضعت الشاي فيه، لكن الشاي هذه المرّة لم يكن من الجزر المجفف، بل من قطع الشمندر المقلي المفروم.

– خذ بعين الاعتبار، – قال جورا، – أنك تبدو من بعيد مثل المزيفين. ما الذي تفعلونه هنا؟

– نصحح قصة. –أجبته. – من أجل العدد القادم.

– خذ بعين الاعتبار، – قال جورا من جديد، – أن كل شرطي عامل سيفهم ما الذي تفعلونه. احمدوا الله، الذي هو غير موجود طبعاً، على أنني

أنا من على رأس عملي، وليس شخصاً آخر. الثقافة بالنسبة لي أعلى من كل شيء. أما المزيفون فهم فنانون من النوع الذي يحوّل الأوراق المزيفة إلى دولارات وتصريح الحصول على الإقامة. يقال إنه في متحف اللوفر مخدّة من المخمل فوقها يد مصنوعة من المرمر جمالها لا يوصف. إنها ليست يد سارا برنار، أو شوبان أو فيرا خولودنايا. إنها نسخة عن يد أكثر المزيفين شهرة في أوروبا. نسيت اسمه. كانوا في ذلك الوقت قد قطعوا رأسه، أما يده فقد أبقوا عليها، كأنه عازف كمان ماهر. قصة مفيدة؟

– ليس كثيراً، – أجبته. –هل لديك سكّر؟

– لدي، – رد جورا. قطع. يمكن أن نتقاسمها.

لم ينهِ بلاغوف العمل على المخطوطة إلا عند الصباح فقط. لم يدعني أرى المخطوطة إلى أن ذهبنا إلى المجلة، وأعادت السكرتيرة طباعتها.

قرأت القصة وعجزت عن الكلام. كانت قطعة من النثر الشفاف. كانت محبوكة جيداً وواضحة. لا وجود للتفتت والارتباك اللفظي السابق. في الوقت نفسه، لم يجرِ شطب أو إضافة كلمة واحدة.

نظرت نحو بلاغوف. كان يدخن سيجارة من النوع الثقيل ويبتسم.

– هذه معجزة! قلت له. – كيف فعلت هذا؟

– ببساطة، وضعت جميع علامات الترقيم في مكانها الصحيح. سوبول يستخدمها بشكل عشوائي. ركّزت بشكل خاص على النقاط والفواصل. إنها مهمة جداً يا عزيزي. حتى إن بوشكين تحدّث عن علامات الترقيم. إنها لتسليط الضوء على الفكرة، لوضع الكلمات ضمن الروابط الصحيحة وإعطاء العبارة رشاقة ووقعاً صحيحاً. علامات الترقيم مثل إشارات النوتة الموسيقية. إنها تجعل النص يتماسك ولا تسمح له بالتفكك.

نشرت القصة. وفي اليوم التالي اقتحم سوبول مكتب التحرير. كان، كما هو حاله دائماً، من دون قبعة، كان شعره غير ممشط، وكانت عيناه تشتعلان بغضب غير مفهوم.

– من تدخّل بقصتي؟ صرخ بصوت حاد وضرب بعصاه على المنضدة حيث مجموعات الصحف، ما جعل الغبار يتطاير فوق الطاولة.

– لم يتدخّل بها أحد، – قلت له. يمكنك أن تتأكد من النص.

– كذب! صرخ سوبول. في كل الأحوال سأعرف من تدخّل!

انتشرت رائحة فضيحة. بدأ المساعدون المرتبكون يختفون بسرعة من الغرفة. لكن، وكما يحدث دائماً هرعت الطابعتان لوسينا ولوسيا وهما تدقان على الخشب. عند ذلك قال بلاغوف بصوت هادئ، وحتى حزين:

– إذا كنت تعتبر أن وضع علامات الترقيم في قصتك في مكانها الصحيح تدخّلاً بها، فاسمح لي: أنا من تدخّل بها. وفقاً لواجبي كمدقق.

اندفع سوبول نحو بلاغوف، هزّ يديه بقوة، ثم عانق العجوز ثلاث مرّات، حسب الطريقة الروسية، وقبّله.

– شكراً! قال سوبول بانفعال. – لقد لقنتني درساً رائعاً. لكن، من المؤسف أن هذا حدث متأخراً. أشعر بأنني أجرمت بحق أعمالي السابقة.

حصل سوبول من مكان ما مساء على نصف زجاجة كونياك، وأحضرها معه إلى متجر الشغانغ. استدعينا بلاغوف، حضر باغريتسكي وجورا كوزلوفسكي الذي انتهت فترة حراسته، وشربنا الكونياك على شرف الأدب وعلامات الترقيم.

بعد ذلك، اقتنعت نهائياً بقوة التأثير المذهلة للنقطة على القارئ إن وضعت في المكان والزمان الصحيحين.

# كأنها توافه

لكل كاتب، تقريباً، ملهمه الخاص، ملهمه العبقري الطيّب، وفي العادة يكون كاتباً أيضاً. يكفي أن تقرأ بضعة أسطر من كتابه حتى تشعر شخصياً بالرغبة في أن تكتب. إن الأمر يشبه العصير المتخمر الذي يخرج من بعض الكتب، ويُسكرنا ويُصيبنا ويجعلنا نمسك القلم.

من المذهل أنه ليس من النادر أن يكون الكاتب، العبقري الطيب، بعيداً عنّا من ناحية شخصيته الإبداعية، وأسلوبه ومواضيعه.

أعرف أحد الأدباء الواقعيين جداً، الإنسان الواعي والهادئ. هذا العبقري اللطيف هو كاتب الخيال العلمي الجامح ألكسندر غرين.

اعتبر غايدار أن تشارلز ديكنز هو ملهمه. أما أنا، فإن أي صفحة من «رسائل من روما» لستاندال، تبعث فيّ الرغبة في كتابة أشياء بعيدة كل البعد عن كتابات ستاندال النثرية، حتى إن هذا يدهشني شخصياً. في يوم من أيام الخريف، بعد أن قرأت ستاندال، كتبت قصة «كشك الحراسة 273» – حول الغابات المحمية عند نهر «بري». ليس في هذه القصة إطلاقا أي شيء مشترك مع ستاندال. أعترف أنني لم أفكر في هذه الحادثة. أذكرها الآن لكي أتحدث عن العديد من الأحوال والعادات التي تبدو غير ذات أهمية للوهلة الأولى، والتي تساعد الكاتب على الكتابة.

يعرف الجميع أن الخريف أفضل أوقات الكتابة عند بوشكين. ليس عبثاً أن قصيدته «الخريف في بولدينسك» أصبحت مرادفة للخصوبة الإبداعية المدهشة. «يقترب الخريف، كتب بوشكين لبليتيف. – إنه أحبّ فصل إليّ – تتحسن صحتي، ويحين أوان اشتغالي على الأدب». على الأغلب، من

السهل أن نخمّن السبب. الخريف – هو الصفاء والبرد، «وداع للجمال» بكل بعده الواضح وأنفاسه الشذية. يُضفي الخريف على الطبيعة لوحة صامتة. تتقلص ألوان الغابة الذهبية والقرمزية في كل ساعة، ما يزيد من حدة الخطوط، ويترك الأغصان عارية.

تعتاد العين على وضوح المنظر الخريفي. يستحوذ هذا الوضوح بالتدريج على الوعي والمخيلة ويد الكاتب. يرتطم نبع الشعر والنثر بالماء المتجلد الصافي، وأحياناً تهتز فيه قطع الجليد الرقيقة. الرأس يقظ، ينبض القلب بقوة وبالتساوي. الأصابع فقط تبرد قليلاً. وفي الخريف ينضج محصول أفكار البشر. تحدّث باراتينسكي عن هذا «الحصاد العزيز قد نضج، وأنت تجمع الأفكار من بذوره، وتبلغ مصائر الناس الكمال».

حسب اعتراف بوشكين فهو يزدهر من جديد في كل خريف. يزداد شباباً في كل خريف. من الواضح أن غوتيه كان محقاً عندما أكّد أن العباقرة يجددون شبابهم على امتداد حياتهم.

كتب بوشكين في أحد أيام الخريف قصائد تعبّر بوضوح غير عادي عن سيرورة الإبداع الشعري:

أنسى الدنيا، وفي الصمت العذب
ومخيلتي تنام بلطف،
يستيقظ الشعر بداخلي:
تخجل روحي من توتري الغنائي،
ترتجف، وترفع صوتها، وتبحث، وكما في
الحلم، تُظهر نفسها بحرية –
وهنا يبين أمامي
سراب غير مرئي
لضيوف، لمعارف قدامى،
ثمار أحلامي.
وتضطرب الأفكار في رأسي بجرأة،
تُسرع القافية مرحة للقائها

تندفع الأصابع نحو القلم، والقلم
نحو الورق – لحظة
وتتدفق الأشعار بحرية.

هذا تحليل دقيق ومدهش للإبداع. لا يمكن أن يحدث ذلك إلا في نوبة من الحماس الروحي العالي.

كانت لبوشكين خاصية أخرى. كان، عندما تتعسر الكتابة عند فقرة ما، يتخطاها ببساطة، لا يتوقف عندها أبداً ويستمر في كتابة ما بعدها. ثم كان يعود إلى الأماكن التي تخطاها، ولكن في لحظات الإلهام فقط، التي لم يحاول قط استحضارها بالقوة.

شاهدت كيف كان غايدار يعمل. لم تكن طريقة عمله تشبه الطريقة التي يعمل بها الكتّاب عادة. كنا نعيش في ذلك الوقت في قرية وسط غابة ميشوريا. سكن غايدار في منزل كبير يطل على شارع القرية، وأنا في منزل وسط بستان كان في الماضي لبنك.

في ذلك الوقت كان غايدار يكتب قصة «مصير عازف الطبل». اتفقنا على أن نعمل من الصباح إلى موعد الغذاء وألا يغوي أحدنا الآخر خلال هذا الوقت لصيد السمك. كنت في أحد الأيام أكتب قرب نافذة مفتوحة. كنت قد انتهيت للتو من كتابة أربع صفحات عندما مرّ غايدار من أمام نافذتي متظاهراً باللامبالاة. تظاهرت بأنني لم ألحظه. تمشى غايدار في البستان وهو يبرطم بشيء ما، ثم عبر من جديد من أمام نافذتي، لكنه الآن يحاول جاهداً أن يُلفت نظري. كان يصفّر ويسعل بقوة.

بقيت صامتاً.

عند ذلك عبر غايدار من أمام النافذة للمرّة الثالثة ثم نظر إليّ بتوتر.

بقيت صامتاً.

لم يحتمل غايدار.

اسمع، – قال، – لا تتغابَ! على أي حال، أنت تكتب بسرعة كبيرة

بحيث لا يكلفك أي شيء لو توقفت قليلاً. لو أنني أكتب هكذا لكان لدي الآن مجموعة كاملة من المؤلفات من مائة وثمانية عشر مجلّداً.

كان هذا الرقم يعجبه كثيراً. كرر بمتعة:

– مائة وثمانية عشر مجلداً! ولا واحد أقل!

– حسناً، – قلت، – أفصح. ماذا تريد؟

– أريد أن تسمع العبارة الرائعة التي ابتكرتها.

– أي عبارة.

– إذن، اسمع: «الرجل العجوز عانى، عانى!» – سأل غايدار. جيد؟

– من أين لي أن أعرفَ؟ –أجبته. حسب موقع الجملة ومن المقصود بها.

اشتاط غايدار غضباً.

«من المقصود بها»، «من المقصود بها»! قلّدني. – من المقصود، من يحتاج إلى من المقصود. اللعنة عليك! اجلس، اكتب مؤلفاتك. أما أنا فسأذهب لأكتب هذه الجملة.

لكنه لم يحتمل أن يغيب فترة طويلة. عاد بعد عشرين دقيقة وتمشى قرب النافذة.

– حسناً، ما هي العبارة العبقرية التي ابتكرتها الآن؟ – سألته.

– اسمع، – قال غايدار.

– دعني وشأني! قلت له. – أرجوك بصدق، لا تزعجني!

– كم أنت متعجرف، – قال غايدار، ومع ذلك انسحب.

عاد بعد خمس دقائق وصرخ وهو لا يزال بعيداً بعبارة جديدة. كانت العبارة في الحقيقة غير متوقعة وجيدة. مدحتها له. وهذا فقط ما كان يحتاج إليه غايدار.

– هكذا! قال. لن أرجع إليك أبداً! بطريقة ما سأكتب من دون مساعدتك

وفجأة أضاف بلغة فرنسية مشوهة:

– أو ريفوار، مسيو إيكريفان سوفييت روس! (الوداع أيها السيد الكاتب الروسي السوفييتي).

كان في ذلك الوقت قد تعلّق باللغة الفرنسية وبدأ في دراستها.

عاد غايدار عدة مرّات من جديد إلى البستان، لكنه لم يزعجني، بل تمشى في طريق بعيدة وكان يتحدث مع نفسه.

هذه كانت طريقته في العمل - يفكّر بالعبارات وهو يمشي، وفيما بعد يكتبها، وفيما بعد أيضاً يعيد التفكير فيها. كان يخرج من المنزل ويمشي طوال اليوم في البستان.

تعجبت منه وكنت متأكداً من أن قصته تتقدم ببطء شديد. لكن تبين فيما بعد أنه خدعني وأنه كتب أكثر بكثير من عبارة واحدة.

أنهى بعد أسبوعين قصته «مصير عازف الطبل»، وجاء إليّ في البنك مرحاً، راضياً، وسألني:

هل تريد أن أقرأ القصة لك؟

وأنا، بالطبع، كنت أرغب بشدة في أن أسمعها.

إذن، اسمع. - قال غايدار.

توقف في منتصف الغرفة ووضع يديه في جيبيه.

لكن، أين المخطوطة؟ سألته.

قادة الأوركسترا الفاشلون، قال غايدار. - وحدهم من يضعون أمامهم دفتر النوتة. أنا لا أحتاج إلى المخطوطة. إنها ترتاح على الطاولة. هل ستسمعني أم لا؟

قرأ لي القصة عن ظهر قلب، من السطر الأول حتى السطر الأخير.

- أنت مع ذلك أخطأت في مكان ما، بعبارة ما. قلت له غير واثق.

- أراهنك، - صرخ غايدار. لا أكثر من عشرة أخطاء! إن أنت خسرت ستذهب غداً إلى مدينة ريازان وتشتري لي مقياس الضغط الجوي من سوق الأشياء المستعملة. سبق لي أن تفحصته عند العجوز - هل تذكرها؟ تلك التي تغطي رأسها بالأباجور عندما يهطل المطر. سأحضر المخطوطة الآن.

أحضر المخطوطة وقرأها مرّة أخرى عن غيب. كنت أتتبع النص. أخطأ

فقط في بعض المقاطع، وكانت الأخطاء غير ذات أهمية. وهذا ما تسبب في جدال بيني وبين غايدار لعدة أيام، فهل ربح غايدار الرهان أم لا؟

عموماً، اشتريت مقياس الضغط، ما سبب له فرحاً عظيماً. قررنا الاستفادة من هذا الهيكل النحاسي الضخم في ممارسة الصيد، لكننا تورطنا على الفور في وضع غبي وتبللنا حتى العظم عندما تنبأ مقياس الضغط الجوي بسماء «صافية»، لكنها في الحقيقة أمطرت لمدة ثلاثة أيام.

كان هذا زمن المزاح المتواصل الرائع، والمقالب، والجدل حول الأدب وصيد السمك في البحيرات. ساعدنا كل هذا بطريقة غير محسوسة على الكتابة.

قيّض لي أن أكون حاضراً عندما بدأ كونستانتين فيدين يكتب روايته «صيف غير عادي». وأرجو أن يعذرني فيدين لأني كتبت عن هذا. لكني أعتقد أن معرفة الطريقة التي يكتب بها كل كاتب، وبخاصة كاتب ماهر مثل فيدين، هي مثيرة للاهتمام ومفيدة، ليس فقط للكتّاب، بل ولجميع الناس الذين يحبون الأدب.

كنا نعيش في بلدة غاغراخ، في منزل صغير يقع على شاطئ البحر مباشرة. كان المنزل يشبه الأثاث الرخيص في بيوت الأحياء الفقيرة في حقبة ما قبل الثورة. كان المنزل يهتز في الأجواء العاصفة بسبب الرياح وضربات الأمواج، يرتجّ ويبدو كأنه سينهار أمام أعيننا. كانت الأبواب تنفتح من تلقاء نفسها بسبب الفجوات والأقفال المخلوعة، تثبت في مكانها بضع لحظات، وتفكر قليلاً، ثم تنصفق بقوة بحيث تتساقط القشور من السقف.

كانت جميع الكلاب الضالة في البلدة تقضي ليلها تحت شرفات المنزل. وكانت أحياناً تتسلل إلى داخل المنزل، مستغلة غياب سكانه، وتستلقي على السرير وتنام بسلام. كان يجب الحذر عند الدخول إلى المنزل، بغض النظر عن شخصية الكلب الذي استولى على السرير. يقفز الكلب المرتبك الحي الضمير من السرير ويندفع يائساً إلى الخارج. ولكن إن دست على قدمه فقد يعضّك بسبب من الذعر. لو صادف أن كان الكلب وغداً وذا خبرة، فهو، إذ يكون مستلقياً على السرير، سيراقبك بعين نصف مغمضة وسيعوي بقوة مخيفة، بحيث تضطر لاستدعاء الجيران لنجدتك.

تطل إحدى غرف فيدين على الشرفة أعلى البحر. أثناء العواصف، يتم تكديس الكراسي المصنوعة من الخيزران بالقرب من النافذة حتى لا تتبلل من زخات المطر. على كومة الكراسي هذه، تجلس الكلاب دائماً وتنظر إلى فيدين الذي كان يكتب على الطاولة. تعوي الكلاب بسبب رغبتها في الدخول إلى غرفته المضاءة والدافئة.

تذمّر فيدين في البداية من أن الكلاب تجعله يرجف. كان يكفي أن يتوقف عن الكتابة ويقف عند النافذة ليتطلع إلى الخارج ويفكر، حتى تحدّق به عشرات العيون الملتهبة بكراهية. حتى إنه كان يشعر ببعض الإحراج من هذا، كما لو كان مذنباً لأنه يعيش في الدفء وكان منخرطاً في عمل لا معنى له بشكل واضح، ويمرر قلمه على الورق. كان هذا، بالطبع، يعيق فيدين عن العمل إلى حد ما، لكنه سرعان ما اعتاد وتوقف عن التذمر من الكلاب.

يبدو لي أن بساطة حياتنا واضطرابها يذكّرانه بزمن الشباب عندما كنا نستطيع، جالسين عند حافة النافذة، تحت ضوء الشموع، في الغرفة الباردة التي يتجمد فيها الحبر، أن نكتب مهما كان الظرف.

يكتب معظم الكتّاب في الصباح، بعضهم يكتب في النهار، وقليل جداً منهم – في الليل.

كان باستطاعة فيدين، وهذا ما كان يفعله، أن يكتب في أي وقت من اليوم. وكان يتوقف أحيانا فقط ليستريح. كان يكتب في الليل تحت وقع صوت البحر الهادر. ولم تكن تزعجه هذه الضجة المعتادة، بل حتى، كانت تساعده. بالعكس، ما كان يعيقه هو الصمت.

أيقظني فيدين في منتصف ليل أحد الأيام وقال وهو مستثار:

– هل تعرف، البحر صامت. تعال لنسمعه من الشرفة.

بدا أن صمتًا كونيًا عميقًا استقر على الشاطيء. هدأنا كي نلتقط في الظلام لو بعض صوت تدفق الموج الضعيف، لكننا لم نستطع أن نسمع شيئاً عدا الوشيش في الأذنين. كان هذا صوت دمنا. وفي الأعالي، أيضًا، تألقت النجوم بخفوت وسط الظلام الكوني. كنّا، نحن المعتادين على ضجيج البحر المتواصل، منذهلين من هذا الصمت. لم يعمل فيدين في تلك الليلة.

عرفت، وأنا أراقب فيدين من دون قصد، أنه كان يجلس للكتابة فقط عندما يكون قد فكّر في الفصل المعني جيداً، دققه، أثراه بالتأملات والذكريات، وعندما يكون النص قد ترسخ في الوعي حتى بكل جملة منفردة. كان فيدين يكتب فقط كل ما يراه بوضوح، وفقط بالعلاقة مع الكلّي المكتمل. لم يستطع عقل فيدين الصافي والصلب وعينه الحادة تحمل هشاشة الفكرة الأولية وتجسيدها الهش. حسب رأي فيدين، يجب أن يتم اختيار النص النثري بأقصى ما يمكن من الدقة وأن يتم صقله ليكون بصلابة الألماس.

أمضى فلوبير حياته كلها في مطاردة مؤلمة وراء كل مقطع لكي يُتقنه. في سعيه لجعل النثر صافيا كالبلّور، لم يكن يستطيع التوقف أحيانًا، فقد كان تدقيق المخطوطات بالنسبة له في بعض الحالات ليس طريقًا لتحسين النص النثري، بل غاية في حد ذاته. وهو فقد القدرة على التقييم الصحيح، أصابه التعب، وصل إلى حالة اليأس، جفف وأخمد جذوة حياة أشيائه، أو كما قال غوغول، «رسم، ورسم، إلى أن استنفد الرسم».

كان فيدين يعرف دائماً متى يتوقف في الوقت المناسب. لا ينام الناقد فيه أبداً، وكذلك لا يضغط على الكاتب.

كان فلوبير يتصف إلى درجة كبيرة بالخاصية التي يتمتع بها الكاتب والتي يصفها منظّرو الأدب بـ «الشخصنة»، وبتعبير أبسط، القدرة على أن يتجسد الكاتب عبر شخصياته بقوة، بحيث إن ما يحدث معها (وفق إرادة الكاتب) يعيشه الكاتب أيضاً بطريقة حية غير عادية. من المعروف أن فلوبير عندما كان يصف موت إيما بوفاري بالسم، فهو كان يشعر بأعراض التسمم، ويضطر إلى طلب المساعدة من الطبيب. كان فلوبير يتعذب بصدق. كان يكتب ببطء بحيث إنه قال بشعور من اليأس: «يجدر بي أن أصفع نفسي بنفسي جرّاء هذا العمل».

جميع الشخصيات، بالنسبة لبلزاك، كانت أناساً أحياء وقريبين منه. كان أحيانًا ينتفض غضباً منهم، ويصفهم بالأوغاد والحمقى، ثم يضحك ويربت على أكتافهم باستحسان، وأحياناً يواسيهم في سوء حظهم. كان إيمان بلزاك

بواقعية أبطاله وبموثوقية ما كتبه عنهم مدهشاً حقاً. يشهد على هذا حادث مثير للفضول حصل أثناء حياته.

في إحدى قصص بلزاك راهبة شابة (لا أذكر اسمها، لكن لنفترض أنه جانا). أرسلت رئيسة الدير جانا إلى باريس لمتابعة شؤون خاصة بالدير. صُدمت الراهبة الشابة من الحياة الرائعة المحمومة والمبهرة في العاصمة. تأملت لساعات على ضوء مصابيح الغاز الثراء غير المسبوق في واجهات المتاجر. شاهدت النساء في ملابس ناعمة معطّرة. كما لو أن هذه الملابس تعرّي تلك النساء الجميلات وتكشف كل روعة ظهورهن الناعمة، سيقانهن الطويلة، ونهودهن الصغيرة البارزة. سمعت من الرجال كلمات الإعجاب المسكِرة – التلميحات والهمس الناعم. كانت فتيّة وجميلة. كانوا يلاحقونها في الشارع. يوجهون لها كلاماً غريباً. صار قلبها ينبض بعنف. صعقتها القبلة الأولى التي انتزعت منها بالقوة في إحدى الحدائق مثل الرعد وأفقدتها رشدها. بقيت في باريس وصرفت كل نقود الدير لكي تتحول إلى باريسية حقيقية. بعد شهر واحد تحولت إلى فتاة شارع.

ذكر بلزاك في هذه القصة اسم أحد أديرة الراهبات كانت فيه شابة اسمها جانا. استدعتها الرئيسة وسألتها بغضب:

– هل تعرفين ماذا يكتب عنك السيد بلزاك؟ لقد جللك بالعار! لقد سوّد سمعة ديرنا. إنه كذّاب وكافر. اقرأي!

قرأت الفتاة القصة واستغرقت في البكاء.

– أسرعي فوراً! قالت الرئيسة بصوت مرتفع. جهزي نفسك فوراً وسافري إلى باريس، ابحثي هناك عن السيد بلزاك وحاولي أن تجعليه يعلن في كل فرنسا أن هذا تلفيق، وأنه لطّخ سمعة فتاة شريفة مع أنها لم يسبق لها أن كانت في باريس قط. أهان الدير وكل رعيتنا. دعيه يتوب عن هذه الخطيئة المجنونة. يجب أن تنفذي هذا. خلاف ذلك، من الأفضل لكِ ألا تعودي.

سافرت جانا إلى باريس. بحثت عن بلزاك، وتمكنت بصعوبة من أن تقنعه بأن يستقبلها. جلس بلزاك في ثوب قديم، يلهث مثل الخنزير. امتلأت الغرفة بدخان التبغ. كانت الطاولة مكتظة بصفحات أوراق كتبت على عجل.

تجهّم وجه بلزاك. لم يكن لديه وقت يضيّعه. كان مقرراً له في حياته أن يتمكن من كتابة لا أقل من خمسين رواية. لكن عيني بلزاك التمعتا. لم يستطع أن يبعد نظره عن جانا.

ارتبكت جانا، احمرّ وجهها. طلبت المساعدة من الرب. أخبرت السيد بلزاك بقصة الدير ورجته أن يمحو أثر العار الذي سببه السيد بلزاك، ولا تعرف لماذا، لعفتها وقداستها. من الواضح أن بلزاك لم يفهم ما هو العار الذي سببه لهذه الراهبة الجميلة.

– أي عار هذا؟ كل ما أكتبه هو حقيقة ناصعة.

كررت جانا رجاءها وأضافت:

أشفق عليّ سيد بلزاك. إن كنت لا تريد مساعدتي، فلن أعرف ما أفعل.

انتفض بلزاك غاضباً.

– كيف؟! صرخ بها. –لا تعرفين ماذا تفعلين! ما هو مكتوب عندي هو بالضبط ما حدث معكِ. هذا واضح تماماً! أي شكوك يمكن أن تكون هنا؟

– هل حقاً أردت أن تقول إنني بقيت في باريس؟ – سألته جانا.

– أجل! صرخ بلزاك. أجل، اللعنة!

– وأنت تريد مني أن...

– لا، اللعنة! صرخ بلزاك ثانية. –أنا فقط أريد أن تخلعي هذا الثوب الأسود. أن يعرف جسدك الشاب، الرائع، مثل جوهرة، ما هي السعادة والحب. أن تتعلمي كيف تضحكين. اذهبي الآن. اذهبي! لكن ليس إلى الشارع.

أمسك بلزاك جانا من يدها وجرّها نحو باب المنزل.

كل شيء مكتوب عندي هناك. اذهبي! أنت لطيفة جداً يا جانا، لكني بسببك خسرت ثلاث صفحات من النص. ويا له من نص!

لم تستطع جانا أن تعود إلى الدير، لأن السيد بلزاك لم يمح عنها العار. بقيت في باريس. يقال إنها شوهدت بعد عام بصحبة مجموعة من الشبّان والطلاّب في مقهى يدعى «الباقة الفضية». كانت سعيدة ومتألقة.

يساوي عدد عادات الكتابة عدد الكتّاب.

عثرت في ذلك المنزل الخشبي قرب ريازان، الذي سبق لي أن أشرت إليه، على رسائل رسام الغرافيك الشهير يـوردان إلى رسام الغرافيك بوجالوستين. يكتب يوردان في إحدى رسائله أنه أضاع عامين وهو يحاول أن يحفر لوحات لفنانين إيطاليين. أثناء عمله، كان يتجول طوال الوقت حول الطاولة التي يضع عليها لوحة النقش ويترك أثراً ملحوظاً على الأرض.

– أُجهدت، – كتب يوردان. مع ذلك استمررت في التجول، والتحرك. هكذا كان يجب أن يتعب نيكولاي غوغول المعتاد على الكتابة أثناء الوقوف على المكتب! إنه حقاً ضحية أعماله.

كان ليف تولستوي يعمل في الصباح فقط. كان يقول إنه في داخل كل كاتب ناقد خاص به. يكون هذا الناقد أكثر قسوة في الصباح، أما في الليل فهو ينام، ولهذا يبقى الكاتب في الليل وحده كلياً، يعمل من دون أي تحذير ويكتب الكثير من التفاهات والزوائد. يستند تولستوي في ذلك إلى روسو وديكنز، اللذين كانا يعملان في الصباح فقط، ويعتبر أن دستويفسكي وبايرون اللذين يعملان في الليل فقط يرتكبان بهذا خطيئة بحق موهبتهما. لا شك في أن العبء الأكبر الذي تحمله دستويفسكي أثناء عمله على الكتابة لم يكن يكمن فقط في أنه كان يعمل في الليل ويشرب الشاي باستمرار، فهذا، على أية حال، لم يؤثر في جودة عمله. العبء الأكبر أن دستويفسكي كان مفلساً ومثقلاً بالديون، ولهذا كان مضطراً إلى أن يكتب كثيراً ودائماً بعجلة. لم يكتب أياً من مؤلفاته وهو في حالة هدوء، بكامل قواه. كان يسلق رواياته سلقاً (ليس من خلال عدد الصفحات المكتوبة، بل من خلال التوسع في السرد). لهذا كانت نتائجها أسوأ مما كان يمكن أن تكون، مما كان يفكر بها. «الأفضل كثيراً من كتابة الرواية هو الحلم بها»، – هذا ما قاله دستويفسكي.

لقد حاول دائماً أن يعيش فترة أطول مع روايته غير المكتوبة، يغيّر فيها طوال الوقت ويثريها. لذلك كان يؤخّر الكتابة، بكل قوته، لأنه في كل يوم وساعة يمكن أن تولد فكرة جديدة، وبالتأكيد لا يمكن إدراجها بأثر رجعي ضمن الرواية.

كانت الديون تجبره على أن يستعجل، على الرغم من أنه كان يدرك،

عندما يجلس للكتابة، أن الرواية لم تنضج بعد. كم من الأفكار والصور والتفاصيل ضاعت سدى، فقط لأنها خطرت على باله في وقت متأخر جداً. عندما كانت الرواية قد انتهت، أو، حسب رأي الكاتب، فسدت بطريقة لا يمكن إصلاحها! «نتيجة للفقر، – قال دستويفسكي عن نفسه، – أنا مضطر للإسراع والكتابة من أجل العيش، لذلك – سأُفسد النص بالتأكيد».

كان تشيخوف في شبابه قادراً على أن يكتب عند حافة النافذة في شقة ضيقة في موسكو مليئة بالضجيج. كتب قصة «إيغور» وهو في حوض الاستحمام. لكن هذه السهولة في العمل تلاشت مع مرور السنين.

كتب ليرمونتوف قصائده على أي ورق وقع بين يديه. يبدو أنها كانت كلها قد تشكلت في وعيه، غنّت داخل روحه، واكتفى بأن ينسخها لاحقاً بسرعة ومن دون أي تعديل.

كان ألكسي تولستوي يستطيع أن يكتب عندما تكون أمامه مجموعة أوراق نظيفة من النوع الجيد. اعترف أنه غالباً ما يعرف عن ماذا سيكتب عندما يجلس وراء طاولة الكتابة. يكون في رأسه تفصيل مشهدي واحد ما. يبدأ من هذا التفصيل وهو يجر خلفه بالتدريج، مثل خيط الساحر، بقية السرد بأكمله. وصف تولستوي حالة العمل والإلهام بكلمة واحدة – دحرجة. «إن تدحرجت – قال تولستوي، – فأنا أكتب بسرعة. لكن إن لم يحصل ذلك، فيجب أن أتوقف».

بالطبع، كان تولستوي إلى درجة كبيرة من النوع الذي يرتجل. كان تفكيره يتفوق على يده. على الأغلب، يعرف جميع الكتاب تلك الحالة الرائعة أثناء عملهم، عندما تظهر فجأة فكرة أو صورة جديدة، كأنها تنفجر مثل ومضات على السطح من أعماق الوعي. إن لم تُكتب على الفور فيمكنها أن تختفي أيضاً بلا رجعة. يرتعش بصيص الضوء فيها، لكنه غير ثابت، مثل الأحلام. فالأحلام التي نتذكرها فقط لجزء من الثانية عندما نستيقظ من النوم ننساها على الفور. ومهما عانينا وحاولنا أن نتذكرها فيما بعد، فلن نتمكن من ذلك. نحتفظ من هذه الكلمات فقط بالإحساس بشيء ما غير عادي، ملغّز، شيء رائع، كما قال غوغول.

يجب التمكن من الكتابة في الوقت المناسب. أي تأخير مهما كان قليلاً – وستطير الفكرة، تومض وتختفي. ربما لهذا السبب لا يستطيع العديد من الكتاب الكتابة على أشرطة ضيقة من الورق، على الحواف، كما يفعل الصحفيون. لا يمكنك رفع يدك عن الورقة مرّات كثيرة، لأنه حتى هذا التأخير الضئيل لجزء من الثانية يمكن أن يكون كارثياً. من الواضح أن عمل الوعي يتم بسرعة مذهلة.

كان الشاعر الفرنسي بيرناجيه يكتب أغانيه في المقاهي الرخيصة. وإيليا إيرنبورغ، حسب علمي، كان يحب أن يكتب في المقهى. هذا مفهوم. لأنه لا توجد وحدة أفضل من الوجود وسط الحشود الحيوية، هذا بالطبع، إن لم يقطعك عن أفكارك أحد أو شيء ولن يلهيك عن تركيزك.

كان هانز إندرسن يحب أن يبتكر حكاياته الخرافية وهو في الغابة. كان حاد النظر إلى درجة كبيرة. لذلك، يمكنه فحص قطعة من اللحاء أو جزء قديم من خشب الصنوبر، ويرى فيه، كما هو الحال من خلال عدسة مكبرة، هذه التفاصيل التي يمكن من خلالها تكوين قصة خيالية بسهولة. بشكل عام، كل شيء في الغابة – كل جذع مطحلب وكل نملة – لصّة حمراء اللون، تجر، مثل أميرة ساحرة مخطوفة، حشرة صغيرة ذات أجنحة خضراء شفافة – كل هذا يمكن أن يتحول إلى قصة خيالية.

لم أرغب في أن أتحدث عن تجربتي الأدبية الخاصة. فمن المستبعد أن يضيف هذا أي شيء جوهري إلى ما قيل أعلاه. مع ذلك، سأضيف بضع كلمات.

إذا أردنا تحقيق أعلى ازدهار لأدبنا، فعلينا أن نفهم أن الشكل الأكثر نجاعة للنشاط الاجتماعي للكاتب هو عمله الإبداعي. يتحول عمل الكاتب المخفي عن الجميع إلى أن يحين أوان نشر الكتاب، وبعد نشره، إلى قضية إنسانية مشتركة. من الضروري توفير الوقت والجهد والموهبة عند الكتابة، وعدم إضاعة الوقت وسط ضجيج اجتماعات مرهقة شبه أدبية. يحتاج الكاتب عندما يعمل إلى الهدوء، وإن أمكن، إلى الابتعاد عن الهموم. وإذا كانت هناك مشكلة تواجهك، حتى ولو كانت مشكلة بعيدة، فمن الأفضل ألا

تبدأ في كتابة المخطوطة. وسوف يسقط القلم من يديك، أو ستنتج عن ذلك كلمات فارغة.

كتبت عدة مرّات أثناء حياتي وأنا خالٍ من الهموم، مركّز وغير مستعجل. أبحرت في أحد أيام الشتاء في قارب بخاري خال تماماً من مدينة باتوم إلى أوديسا. كان البحر رطباً، بارداً وهادئاً. وكانت الشواطئ غارقة في ضباب رمادي. كانت غيوم كثيفة، كما لو كانت في حلم خامل، ترتفع فوق الجبال البعيدة. كنت أكتب وأنا داخل القمرة، أنهض أحياناً إلى سطح القارب وأنظر نحو الشاطئ. كانت النوارس تلتقط طعامها من سطح الماء.

كان من السهل الكتابة. لا أحد يقدر على أن يقطعني عن أفكاري الحبيبة. يجب ألا أفكر في أي شيء باستثناء القصة التي كنت أكتبها. شعرت بأن هذه هي السعادة الكبرى.

حماني البحر المفتوح من كل العوائق الممكنة. وساعدني أيضاً على الكتابة الإحساس بالحركة داخل الفضاء، الانتظار الغامض للمدن الساحلية، التي كان يجب أن نمرّ عليها، وربما التنبؤ بلقاءات قصيرة غير متعبة.

شق القارب المياه بشفرته المعدنية، وبدا لي أنه يحملني نحو سعادة حتمية. هذا ما بدا لي، ومن الواضح أن ذلك لأن كتابة القصة جرت بسلاسة.

كما أنني أذكر أيضاً كم كان من السهل عليّ أن أعمل من الطابق الأرضي من المنزل الخشبي، في الخريف، وحيداً، وسط اهتزاز الشموع. أحاطت بي الليلة الأيلولية (من شهر أيلول)، كما البحر، وحمتني من أي عائق.

من الصعب معرفة السبب، لكن ساعدني كثيراً على الكتابة الوعي بأن بستان المنزل القديم يتجول خلف الجدار طوال الليل. فكرت فيه ككائن حي. كان صموتاً، ينتظر بصبر تلك اللحظة التي أذهب فيها في وقت متأخر من المساء إلى البئر لجلب الماء من أجل إبريق الشاي. ربما كان من الأسهل على البستان أن يسمع في هذا الليل اللانهائي صوت الدلو وخطوات الإنسان، ولكن، على أي حال، فقد ساعدني هذا الإحساس بالحديقة المنعزلة والغابات الباردة الممتدة لعشرات الكيلومترات خارج الضواحي، وبحيرات الغابات، حيث في مثل هذه الليلة، بالطبع، لا يمكن أن

تكون هناك ولا روح بشرية واحدة، بل النجوم فقط التي تنعكس في الماء، مثلما انعكست منذ مائة وألف عام. ربما أستطيع أن أقول إنني في أمسيات الخريف هذه كنت سعيداً حقًا.

من الجيد أن تكتب عندما يكون أمامك شيء ممتع ومبهج ومحبوب، حتى لو كان تافهًا مثل صيد السمك تحت شجر الصفصاف الأسود في منطقة منعزلة عند نهر بعيد.

# عجوز في بوفيه المحطة

جلس رجل عجوز ذو شعر شائك على وجهه في زاوية بوفيه المحطة في ماجوري. اجتاحت زوابع الشتاء خليج ريغا. كان الجليد السميك لا يزال يغطي الشواطئ. تسقط الأمواج وسط الضباب الصاعد فوق الثلوج وتتحطم على حافة الجليد الصلبة.

من الواضح أن العجوز دخل إلى البوفيه ليتدفأ. لم يطلب شيئاً وجلس مكتئباً على الأريكة الخشبية ويداه في أكمام سترة صياد مرقعة بشكل أخرق. جاء مع العجوز كلب أبيض كثيف الشعر. جلس الكلب عند قدمي العجوز وهو يرتعش. جلس بالقرب منه حول الطاولة شبّان ذوو رقاب حمراء يشربون البيرة ويصخبون. كان الثلج يسيل من قبعاتهم. وكانت قطرات الماء الذائب تتساقط في كؤوس البيرة وعلى شطائر السلامي. لكن الشبّان كانوا يتجادلون حول مباراة كرة القدم ولم يعيروا هذا الأمر انتباههم.

لم يحتمل الكلب عندما تناول أحد الشبّان الشطيرة والتهم نصفها دفعة واحدة. اقترب الكلب من الطاولة. وقف على قدميه الخلفيتين متذللاً وبدأ يحدّق بالشاب.

بيتي! - ناداه العجوز بهدوء. - ألا تخجل من نفسك! - لماذا تزعج الناس يا بيتي؟

لكن بيتي واصل الوقوف، وقد كانت قدماه الأماميتان ترتجفان ثم هبطتا من التعب. عندما لامست قدماه بطنه المبلل تماسك الكلب ووقف من جديد. لكنّ الشبان لم ينتبهوا له. كانوا منهمكين بالحديث ويسكبون البيرة الباردة في كؤوسهم بين حين وآخر.

كان الثلج يذوب على النوافذ، فيما يقشعر البدن لرؤية أولئك يشربون البيرة الباردة في هذا الجو الصقيعي.

بيتي! – ناداه العجوز ثانية. – بيتي! تعال هنا!

هز الكلب ذيله عدة مرات، كما لو أنه يريد أن يجعل العجوز يفهم أنه سمعه وأنه يعتذر، لكن ما باليد حيلة. لم يلتفت الكلب نحو العجوز، حتى إنه أدار وجهه نحو الجهة الأخرى. كما لو أنه يقول: «أنا أعرف أن هذا ليس تصرفاً جيداً، لكنك عاجز عن أن تشتري لي شطيرة كهذه».

آخ، بيتي! بيتي! – همس العجوز، وارتج صوته قليلاً بسبب الغضب.

هزّ الكلب ذيله من جديد ونظر نحو العجوز نظرة استعطاف. كما لو أنه يرجوه ألا يناديه أكثر وألا يخجل منه، فهو أيضاً حزين، ولولا أن الجوع بلغ مداه الأقصى لما صار يستجدي الناس الغرباء.

أخيراً، انتبه أحد الشبّان ذو الوجنتين المنتفختين، الذي يضع على رأسه قبعة خضراء.

تستجدي يا عاهر؟ – سأل. – وأين صاحبك؟

هز بيتي ذيله بفرح، نظر إلى العجوز ونبح قليلاً.

ما هذا يا مواطن! – قال الشاب. عليك أن تُطعم الكلب طالما أنت تحتفظ به. هذا تصرّف غير حضاري. الكلب يستجدي الصدقات منك. التسول محظور بموجب القانون في بلدنا.

انفجر الشبّان بالضحك.

– أنت تعذبه يا فالكا! –صرخ واحد منهم ورمى قطعة سلامي للكلب.

– بيتي، لا تجرؤ – صرخ العجوز.

انكمش الكلب وأرخى ذيله، اقترب من العجوز دون أن ينظر نحو السلامي.

– لا تجرؤ على أن تأخذ منهم أي لقمة! قال العجوز.

بدأ يبحث بشكل محموم في جيوبه، وأخرج بعض العملات الفضية والنحاسية وبدأ يحصيها في راحة يده، ثم مسح الوسخ الذي التصق بالعملات المعدنية. كانت أصابعه ترتجف.

– ويغضب أيضا! – قال الشاب ذو الخدين المنتفخين. – يا له من شخصية مستقلة.

– دعه وشأنه. ماذا فعل لك! قال أحد رفاقه لتهدئة الوضع وسكب البيرة للجميع.

لم يقل العجوز أي كلمة. ذهب إلى البائعة ووضع أمامها بعض قطع النقود.

شطيرة واحدة. قال بصوت أجش.

وقف الكلب بجانبه وذيله يتدلى على الأرض. أعطت البائعة للعجوز شطيرتين موضوعتين على طبق.

– شطيرة واحدة! – قال العجوز.

– خذهما! – قالت البائعة بهدوء. – لن أُفلسك...

– شكراً. – قال العجوز.

أخذ الشطيرتين وخرج إلى الرصيف. لم يكن هناك أحد. مرّت موجة، واقتربت الثانية، لكنها كانت لا تزال بعيدة في الأفق. سقط ضوء الشمس الضعيف على الغابات البيضاء خلف نهر ليلوبا. جلس العجوز على مقعد خشبي، أعطى بيتي شطيرة، ولف الثانية بمحرمة جافة ودسها في جيبه.

أكل الكلب بنهم، أما العجوز فكان ينظر إلى الكلب ويقول:

– آه، يا بيتي، بيتي! كلب أحمق!

لكن الكلب لم يسمعه. كان فقط يأكل. نظر العجوز إليه ومسح عينيه بكمّه – كانت فعلاً تذرف الدموع بسبب الرياح.

هذه هي الحكاية الصغيرة كلها التي حدثت في محطة ماجوري عند شاطئ ريجا.

لماذا رويتها؟

تذكرت هذه الحكاية عندما كنت أفكر في أهمية التفاصيل في النص النثري، وأدركت أنني لو نقلتها من دون تفصيل رئيسي – من دون أن أذكر أن الكلب كان يعتذر بكل كيانه لسيده، من دون هذه اللفتة الطيبة من المخلوق الصغير، ستصبح هذه القصة أكثر جفافاً مما كانت عليه بالفعل.

وإن ألغينا تفاصيل أخرى – السترة المرقعة بشكل غير متقن، التي تشهد على الترمل أو الوحدة، وقطرات من الماء الذائب التي تتساقط من قبعات الشباب، والبيرة المثلجة، وقطع النقود الصغيرة مع الوسخ الملتصق بها

في الجيب، وأخيراً، حتى الأمواج التي تصعد، من البحر وترتطم بجدران بيضاء، فتصبح القصة أكثر جفافاً وبلا دم.

في السنوات الأخيرة بدأت التفاصيل تختفي من مخيلتنا الأدبية، خاصة عند الكتّاب الشباب.

لكنّ الأشياء لا تعيش من دون التفاصيل. في هذه الحالة، تتحول السمكة البيضاء المدخّنة إلى عصا جافة، كما قال تشيخوف. السمكة البيضاء نفسها لم تعد موجودة، بل مجرد كتلة واحدة نحيفة.

تكمن قيمة التفاصيل، حسب كلام بوشكين، في أن الشيء الضئيل، الذي تتجاهله العين في العادة، قد يصبح كبيراً، ويلحظه الجميع.

من ناحية ثانية، هناك كتّاب يجهدون أنفسهم في تتبع تفاصيل مملة. إنهم يملأون مقالاتهم بأكوام من التفاصيل - دون اختيار، دون أن يفهموا أن التفاصيل لها الحق في العيش وهي ضرورية فقط إذا كانت مميزة، إذا كان بإمكانها فوراً، مثل شعاع من الضوء، أن تُخرج أي شخص أو أي ظاهرة من الظلام.

على سبيل المثال، لإعطاء فكرة عن بداية مطر كبير، يكفي أن نكتب أن قطراته الأولى كانت تنقر بصوت عال على الصحيفة الملقاة على الأرض تحت النافذة.

أو، للتعبير عن الشعور الرهيب بوفاة رضيع، يكفي أن نقول عنه كما قال أليكسي تولستوي في «المشي عبر الآلام»: «سقطت داشا المنهكة نائمة، وعندما استيقظت كان طفلها قد مات:

«أمسكته، وقلبته على جمجمته العالية، كان شعره الأشقر والخفيف واقفاً.

قالت داشا لزوجها:

- أثناء نومه جاءه الموت.. يجب أن تفهم - وقف شعره حتى النهاية... تعذب وحده. وأنا كنت نائمة...»

لا يمكن لأي حجج أن تتجاهل رؤية صراع الطفل الوحيد مع الموت. هذا التفصيل (شعر الطفل الخفيف، وقف شعره) يساوي العديد من الصفحات الأكثر دقة في وصف الموت.

هذان التفصيلان يصيبان الهدف تماماً. هكذا فقط يجب أن يكون التفصيل – أن يعكس الكلي، إضافة إلى الضروري.

عثرت في مخطوطة لكاتب شاب على هذا الحوار:

«مرحباً، عمة باشا! – قال ألكسي وهو يدخل. (قبل ذلك كتب المؤلف أن ألكسي فتح باب غرفة العمة باشا بيده، كما لو أنه يمكن فتح الباب بالرأس).

– مرحباً إليوشا، – صاحت العمة باشا بمرح، وتوقفت عن الخياطة ونظرت إلى أليكسي. – لماذا لم تأت من فترة طويلة؟

– أنا مشغول جداً. اجتماعات طوال الأسبوع.

– تقول طوال الأسبوع؟

– تماماً، عمة باشا. طوال الأسبوع. فولوديا ليس هنا؟» – سأل ألكسي وهو يتفحص الغرفة الفارغة بنظره.

– لا، إنه في المصنع،

– حسناً، أنا ذاهب. إلى اللقاء عمة باشا. انتبهي لصحتك.

– إلى اللقاء، إليوشا. انتبه لصحتك.

اتجه الكسي إلى الباب، فتحه وخرج. تابعته العمة باشا بنظرها وهزت رأسها. – «رجل مقاتل – مثل الموتور».

يتكون هذا المقطع بأكمله، بالإضافة إلى الإهمال وأسلوب الكتابة غير المدروس، من أشياء لا حاجة لها وفارغة تماماً. كل هذه التفاصيل غير ضرورية ولا تفضي إلى شيء محدد. هناك حاجة للاختيار الدقيق من أجل تحديد الأشياء. التفاصيل وثيقة الصلة بما نسميه الحدس. أنا أفهم الحدس بأنه القدرة على بناء الصورة الكلية من أجزاء منفصلة، من التفاصيل. يساعد الحدس مؤلفي الأعمال التاريخية على إعادة إنشاء، ليس صورة حقيقية لحياة العصور الماضية فقط، ولكن نكهتها الفريدة أيضاً، ومشاعر الناس، ونفسياتهم، التي كانت بالطبع مختلفة إلى حد ما مقارنةً بنا.

ساعد الحدس بوشكين، الذي لم يكن قط في أسبانيا وإنجلترا، على أن يكتب قصائد أسبانية عظيمة، على أن يكتب «الضيف الحجري»، وأن

يرسم في «وليمة وقت الطاعون» صورة إنجلترا في العصور الوسطى، بطريقة ليست أسوأ مما قد يكتبه وولتر سكوت أو بيرنس – أبناء هذه البلاد الضبابية الأصليين.

تستدعي التفاصيل الجيدة في ذهن القارئ تصوراً حسياً وصادقاً عن الكليّ – عن الإنسان وأحواله، عن الأحداث، أو أخيراً، عن العصر.

# الليلة البيضاء

أبحر القارب البخاري العتيق من المحطة في فوزنيسينيه واتجه نحو بحيرة أونجيسك.

انتشر الليل الأبيض[1] في كل مكان. لأول مرة رأيت هذا الليل ليس فوق نيفا وقصور لينينغراد، ولكن في مناطق الغابات والبحيرات الشمالية.

كان القمر شاحباً من جهة الشمال، ولم يكن مضيئاً. تندفع الأمواج التي تنتج عن سير القارب بعيداً من دون ضجيج، تجرّ معها قطعاً من لحاء أشجار الصنوبر.

يبدو أن حارس الكنيسة القديمة قرب الشاطئ قرع أجراس برج الكنيسة اثنتي عشرة مرّة. وعلى الرغم من أننا بعيدون عن الشاطيء، فقد وصل الصوت إلينا، تجاوز الصوت القارب، واندفع على طول سطح الماء نحو الغسق الشفاف، باتجاه القمر المعلّق في السماء.

لا أعرف ماذا أسمي ضوء الليالي البيضاء المرهف: غامض؟ أم سحري؟ تبدو هذه الليالي دائماً سخاء مفرطاً من الطبيعة – في هذه الليالي الكثير من الهواء الناعم ولمعان الألمنيوم والفضة.

لا يمكن أن يتقبل الإنسان الاختفاء الحتمي لهذا الجمال، وهذه الليالي الساحرة. لهذا، على الأغلب، تسبب الليالي البيضاء بعدم ثباتها حزنًا خفيفاً، مثل كل شيء جميل عندما يكون محكوماً عليه بالعيش لفترة قصيرة.

---

1- ليال لا تغيب فيها الشمس في شمال روسيا تسمى «الليالي البيضاء» ولديستويفسكي رواية بهذا العنوان – المترجم

هذه كانت رحلتي الأولى إلى الشمال، لكن كل شيء بدا لي مألوفاً، خاصة نباتات الكرز الأبيض التي تزهر في أواخر الربيع في الحدائق. هناك الكثير من هذه النباتات في فوزنيسينيه. لا أحد هنا يقطفها ولا يضعها أحد في المزهرية على الطاولة.

سافرت إلى مدينة بيتروزافودسك. كان ألكسي مكسيموفيتش غوركي في ذلك الوقت قد فكّر بإصدار سلسلة من الكتب تحت عنوان «تاريخ المعامل والمصانع». استقطب العديد من الكتّاب لهذا المشروع، وكان مقرراً أن يتم العمل من خلال «فرق» عمل، – ظهرت هذه الكلمة في أدبياتنا للمرّة الأولى.

عرض غوركي عليّ عدة مصانع لكي أختار منها. توقفت عند مصنع بيتروفسك القديم. كان بطرس الأول قد أنشأه، وخصصه في البداية لتصنيع المدافع والمراسي، ثم تحول فيما بعد إلى البرونز، ثم انتقل بعد الثورة لتصنيع السيارات.

رفضت أن أعمل مع فريق. كنت أؤمن في ذلك الحين (والآن أيضاً)، أنه لا معنى، ببساطة، للعمل الجماعي في الأدب، وخاصة العمل على تأليف الكتب. يمكن في أحسن الأحوال إنجاز مجموعة من المواضيع المتنوعة، إنما ليس كتاباً كاملاً. اعتبرت أنه لا يمكن أن يعزف اثنان أو ثلاثة على نفس الكمان في وقت واحد، وكذلك أن يُكتب نفس الكتاب كتابة جماعية بواسطة عدّة أشخاص فهذا الكتاب، في رأيي، على الرغم من خصوصيات المادة، يجب أن يتسم بشخصية الكاتب، بكل صفات إدراكه للواقع، يجب أن يظل أسلوبه ولغته حاضرين.

قلت هذه الكلام لألكسي مكسيموفيتش غوركي. عبس، ونقر، كعادته، بأصابعه على الطاولة، فكر وأجاب:

سيتهمونك أيها الشاب بالغرور. لكن، عموماً، تصرّف! فقط، لا ترتبك. متأكد أنك ستُحضر الكتاب. حتما ستفعل!

تذكرت هذا الحديث وأنا في القارب، وآمنت بأني سأكتب الكتاب. كان الشمال يعجبني كثيراً. وهذه الظروف، كما بدا لي في ذلك الحين، ستسهّل

علىّ عملي حتماً. من الواضح أنني كنت آمل أن أُدخل إلى هذا الكتاب عن بتروفسك ملامح الشمال التي أسرتني - الليالي البيضاء، والمياه الهادئة، والغابات، وأشجار الكرز، ولهجة نوفغورود الرخوة، والزوارق السوداء ذات المقدمات المنحنية مثل أعناق البجع، والأعشاب المتعددة الألوان.

كانت المادة تتوسع. مقاطع مثيرة للاهتمام تتوالى، مستقلة عن مقاطع مثيرة للاهتمام مجاورة. كل مقطع مستقل بذاته، غير مدعوم بالشيء الوحيد الذي يمكن أن يبث الحياة في هذه الحقائق الأرشيفية - تفاصيل رائعة، أجواء الزمن، مصير إنساني قريب مني.

كتبت عن السيارة، عن الإنتاج، عن الحرفيين، كتبت بقلق عميق، مدركاً أنه حتى يكون لدي موقفي الخاص تجاه كل هذا، حتى يُنعش حس غنائي، ولو بشكل ضعيف، هذه المادة، لن ينتج شيء عن الكتاب. وبشكل عام لن يكون هناك أي كتاب. (بالمناسبة، أدركت في ذلك الوقت أنه يمكن الكتابة عن السيارات كما نكتب عن الناس، - شاعرين بها، محبين لها، فرحين وحزينين من أجلها. لا أعرف عن الآخرين، لكني أشعر بألم جسدي على السيارة، على الأقل، السيارة الروسية «النصر» عندما تهتز فيما تتسلق بكل قوتها المنعطف المرتفع. أشعر بالتعب نتيجة هذا، ربما، أكثر من السيارة نفسها. قد لا يكون هذا المثال موفقاً، لكني مقتنع، بأنه إذا ما أردت الكتابة عن السيارة، فيجب أن تعاملها على أنها مخلوق حي. لاحظت أن العمّال والحرفيين المهرة يتعاملوت معها بهذه الطريقة).

لا يوجد شيء أكثر إثارة للاشمئزاز وأثقل وطأة من العجز أمام المادة. شعرت بأنني إنسان التزم بعمل لا يفقه فيه، كما لو أنني اضطررت لتعلّم رقص الباليه، أو تحرير كتاب فلسفي لكانت. في حين تطنّ في أذني كلمات غوركي: فقط، لا ترتبك. متأكد أنك ستُحضر الكتاب. حتماً ستفعل! إضافة إلى أنني كنت تحت وطأة حقيقة أنني خرقت قاعدة أساسية في الكتابة المحترفة، التي كنت أعتبرها مقدسة. كنت أعتبر أن من يمكن أن يصبح كاتباً، هو من يستطيع بسهولة، ودون أن يفقد خصوصيته، أن يتمكن من أي مادة. انتهت هذه الحالة التي تلبستني بأن قررت أن أستسلم وألا أكتب أي شيء وأن أغادر بيتروزافودسك.

لم يكن ثمة أحد أستطيع مشاركته مصيبتي، عدا سيرافيما أيونوفنا. كنت قد عقدت عزمي على أن أحدّثها عن فشلي، لكنها كانت قد شعرت به، وعلى الأغلب، نتيجة خبرتها الخاصة كمعلّمة، عن طريق الحدس.

أنت تشبه تلاميذي الأغبياء أثناء الامتحان، – قالت لي. عقولهم مغلقة بحيث لا يرون شيئاً، ولا يستطيعون أن يدركوا ما هو المهم، وما هو الهراء. ببساطة، أنت مجهد. لا أعرف شيئاً عن مهنتك ككاتب، لكني أعتقد أنك لن تحقق شيئاً تحت وطاة الإحساس بالضغط. ترهق أعصابك فقط. وهذا أمر مضِر، وببساطة، خطير. أنت تغادر بسبب الإرهاق. استرخِ، اذهب إلى البحيرة، تجوّل في المدينة. مدينتنا رائعة، بسيطة. قد يحدث معك شيء. ربما سينجح معك ذلك.

لكني قررت أن أغادر رغم ذلك. ذهبت لأتنزه في المدينة قبل المغادرة. لم أكن قد رأيتها كما يجب قبل ذلك. توجهت نحو الشمال بموازاة البحيرة، وذهبت إلى ضواحي المدينة. انتهت البيوت وانتشرت البساتين. كان يمكن رؤية الصلبان وشواهد القبور هنا وهناك وسط البساتين.

كان ثمة رجل عجوز يسقي نبتات الجزر. اقتربت منه وسألته عن هذه الصلبان.

كانت هنا مقبرة. – ردّ عليّ. – يبدو أنهم كانوا يدفنون الغرباء هنا. أما الآن فقد تحولت الأرض إلى بساتين. أُزيلت الشواهد. أما ما بقي منها فلن يبقى فترة طويلة. ستبقى حتى الربيع القادم، لا أبعد من ذلك.

كانت الشواهد، في الحقيقة، قليلة – خمسة أو ستة. كان أحدها مسيجاً بسياج من الحديد الزهري الرائع. اقتربت منه. كان هناك توقيع باللغة الفرنسية على أحد هذه الشواهد. غطى النبات المتسلق معظم الكتابة تقريباً. أزلت النبات وقرأت: «شارل يفغيني لونسيفيل، مهندس المدفعية في جيش الإمبراطور نابوليون. ولد في علم 1778 في بيربينيان، وتوفي في صيف عام 1816 في بيتروزافودسك بعيداً عن وطنه. فلينعم قلبه المجروح بالسلام».

أدركت أن أمامي قبر رجل غير عادي، رجل ذي مصير حزين، وأنه هو بالذات سيحل مشكلتي. رجعت إلى المنزل، وقلت لسيرافينا أيونوفنا إنني

سأبقى في بيتروزافودسك، وذهبت على الفور إلى الأرشيف. هناك كان يعمل رجل عجوز يرتدي نظارات، مدرس رياضيات سابق، جلده جاف تماماً، حتى إنه يكاد يكون شفافاً من النحافة. لم يكن الأرشيف مرتباً تماماً، لكن العجوز كان يتعامل معه جيداً.

أخبرته بما جرى معي. اضطرب العجوز بشدة. اعتاد أن يعطي، وهذا كان نادراً، شهادات مملة، تعتمد بشكل أساسي على سجلات الكنيسة، والآن يتوجب عليه أن يجري بحثاً صعباً وممتعاً في الأرشيف - بحثنا عن كل ما يتعلق بقبطان جيش نابليون الغامض، الذي توفي لسبب ما قبل أكثر من مائة عام في بيتروزافوسك.

كنّا قلقين معاً - أنا والعجوز. هل سنعثر في الأرشيف على أية آثار عن لونسيفيل تساعدنا على أن نستعيد سيرة حياته على نحو صادق بهذا القدر أم ذاك؟

فاجأني العجوز حين أعلن أنه لن يذهب لينام في المنزل، وسيظل يبحث في الأرشيف طوال الليل. أردت أن أبقى معه، لكن تبيّن أنه يمنع على الغرباء دخول الأرشيف. ذهبت بعد ذلك إلى المدينة، اشتريت خبزاً وسلامي، وأحضرت كل هذا للعجوز كي يتمكن من تناول عشائه، وانصرفت.

استمرت عملية البحث في الأرشيف تسعة أيام. كان العجوز يعرض عليّ في كل صباح قائمة بالأحداث التي، حسب توقعه، يمكن أن تشير بطريقة ما إلى لونسيفيل. كان يضع علامة «النجمة» أمام الأحداث الأكثر إثارة للاهتمام، لكنه كان يصفها، كما يفعل أساتذة الرياضيات بـ «أصلية». فقط في اليوم السابع تم العثور على معلومة في سجل المقبرة حول دفن، في ظل ظروف غريبة إلى حد ما، قبطان في الجيش الفرنسي، اسمه تشارلز يوجين لونسيفيل. تم العثور في اليوم التاسع على إشارتين إلى لونسيفيل في رسالتين خاصتين، وفي اليوم العاشر - تم العثور على إخباريتين ممزقتين، من دون توقيع، مرسلتين لمحافظ أولينسك تتعلقان بزيارة قصيرة لبيتروزافودسك من قبل زوجة المدعو لونسيفيل ماريا تسسيليا ترينيتيه، التي جاءت من فرنسا كي تنصب شاهداً على قبره.

استنفدنا المواد كلها، لكن ما عثر عليه رجل الأرشيف العجوز الذي أبهجه هذا النجاح، كان كافياً لكي يحيا لونسيفيل في مخيلتي.

ما إن ظهر لونسيفيل حتى باشرت الكتابة على الفور – ودخلت فجأة فيه جميع المواد المتعلقة بتاريخ المصنع، التي كانت حتى وقت قريب مبعثرة بشكل ميئوس منه. استقر في الكتاب بثبات، كما لو من تلقاء نفسه، قبطان المدفعية، المشارك في الثورة الفرنسية وحملة نابوليون على روسيا، الذي وقع في الأسر من قبل القفقازيين، والذي أُرسل إلى مصنع بيتروزافودسك ومات هناك نتيجة الحمّى.

هكذا جرت كتابة القصة الطويلة «مصير شارل لونسيفيل». كانت المادة بلا روح إلى أن ظهر فيها الإنسان. بالإضافة إلى ذلك، تم توزيع خطة الكتاب المرسومة مسبقاً بالكامل إلى قطع صغيرة. الآن قاد لونسيفيل القصة بثقة. لقد جذب إلى شخصه مثل المغناطيس ليس الحقائق التاريخية فقط، ولكن الكثير مما رأيته في الشمال أيضاً.

في القصة مشهد البكاء على لونسيفيل الميت. ما رثته به النساء من كلمات في القصة نقلته عن رثاء حقيقي. هذه القضية تستحق الذكر.

أبحرت في القارب من بحيرة لادوجسك صعوداً نحو سفيري. وفي مكان ما، على ما يبدو في سفيريتسا، كانوا ينقلون تابوتاً بسيطاً من خشب الصنوبر إلى أسفل الرصيف. اتضح أن القبطان الأقدم والأكثر خبرة في سفيريتسا قد مات. قرر رفاقه من القباطنة أن يبحروا بجثمانه وهو في التابوت خلال امتداد النهر كله – من سفيريتسا إلى فوزنيسينيا، كي يتمكن الراحل من توديع النهر الذي كان يحبه. إضافة إلى ذلك، أن يتيحوا للسكّان عند الضفاف أن يودعوا هذا الرجل الشهير والمحترم جداً في تلك الأماكن. تكمن القضية في أن نهر سفير كثير المنحدرات ومياهه شديدة الاندفاع. لا تستطيع البواخر من دون قبطان متمرس المرور عبر منحدرات نهر سفير. لهذا نشأت عند نهر سفير من قديم الزمان قبيلة كاملة من القباطنة المترابطين فيما بينهم على نحو وثيق. عندما مررنا بمنطقة المنحدرات، تم جر القارب البخاري الخاص بنا بواسطة قاطرتين، على الرغم من حقيقة أنه كان يسير بأقصى سرعة. سارت

القوارب في اتجاه مجرى النهر نحو الأسفل بترتيب معاكس – عمل كل من الباخرة والقاطرة في الاتجاه المعاكس ضد التيار من أجل إبطاء الهبوط نحو الأسفل وعدم الاندفاع في المنحدرات.

أرسلوا برقية إلى أعلى النهر تبلّغ أن قاربنا يحمل جثمان قبطان، لذا كان يلاقينا عند كل مرسى للقارب جموع غغيرة من الناس. تقف في مقدمتهم العجائز النادبات المحترفات. كنّ، ما إن يقترب القارب من المرسى، يشرعن بالنحيب على الميت بأصوات عالية حزينة. لم تكن تتكرر كلمات هذا النواح الشعري على الإطلاق. وأعتقد أنهن يرتجلن كل مرثاة:

وهذه إحدى المراثي:

«لماذا غادرتنا في اتجاه الموت، لماذا تركتنا يتامى؟ ألم نحيِّك، ألم نحيِّك بكلمة لطيفة وحنونة؟ انظر إلى سفير، يا جدّنا، انظر للمرة الأخيرة – المنحدرات شديدة الانحدار مليئة بينابيع الدم، ويتدفق نهر من دموع نسائنا. أوه، لماذا جاءك الموت في غير أوانه؟ أوه، لماذا تحترق شموع الجنازات في جميع أنحاء نهر سفير؟».

هكذا تابعنا طريقنا نحو فوزنيسينيا وسط أصوات النواح التي لم تتوقف حتى في الليل. صعد إلى القارب في فوزنيسينيا رجال ذوو ملامح قاسية – قباطنة، ونزعوا الغطاء عن التابوت. كان يستلقي في التابوت رجل عجوز أشيب ضخم بوجه مائل.

رفعوا التابوت بواسطة أقمشة من الكتّان ونقلوه إلى الضفة على وقع أصوات النواح. سارت وراء التابوت امرأة شابة تغطي وجهها الشاحب بشال. كانت تجر صبياً أبيض الرأس من يده. خلفها كان يسير رجل في أواسط العمر يرتدي بذّة قبطان نهري. أولئك كانوا ابنته، حفيده وزوج ابنة الميّت. نكّسوا العلم فوق القارب الذي أطلقوا منه صفارات الوداع عندما وصل التابوت إلى المقبرة.

وهناك انطباع آخر انعكس في هذه القصة. لا شيء مهماً يُذكر في هذا الانطباع، لكنه لسبب مجهول، يرتبط في ذاكرتي بقوة بالشمال. إنه الألق غير العادي لكوكب الزهرة. لم أر من قبل تألقاً بهذه الحيوية والنقاء. تألق

فينوس مثل قطرة من الألماس الرطب في السماء الخضراء قبيل الفجر. كان هذا بالفعل مبعوث السماء، ممثل فجر الصباح الرائع. لم ألحظه قط في الفضاءات الواسعة في الجنوب. أما هنا، فقد بدأ وحده يتألق، كان كوكب الزهرة يتلألأ كقطرة من الماء في سماء خضراء قبل الفجر، ويهيمن جماله البكر على الأراضي البور والغابات وحدها في ساعات ما قبل الفجر على امتداد أرض الشمال.

# بداية إبداعية حية

لاحظ إميل زولا ذات يوم أثناء وجوده مع بعض الأصدقاء أن الكاتب لا يحتاج إلى المخيلة على الإطلاق. يجب أن يتأسس عمل الكاتب فقط على الملاحظة الدقيقة، كما هو الحال بالنسبة لزولا.

سأله موباسان الذي كان معه: اشرح هذا. هل إنك تكتب رواياتك الضخمة انطلاقاً من مقال صحفي واحد وفي هذه الحالة لا تغادر منزلك لشهور؟

صمت زولا.

تناول موباسان قبعته وغادر. كان يمكن اعتبار مغادرته نوعاً من الإهانة، لكنه لم يخف من هذا. فلم يكن يسمح لأحد، حتى لزولا، أن ينكر أهمية المخيلة. كان موباسان، مثله مثل أي كاتب، يثمّن المخيلة بشدّة – البيئة الممتازة لازدهار الفكر الإبداعي، أرض الشعر والنثر المحتوية على الذهب.

كانت المخيلة البداية الإبداعية الحيّة للفن. وقد وصفها شعراء «الحي اللاتيني» في باريس، المؤمنون بها، بأنها «الآلهة والشمس الأبدية». تتوهج شمس المخيلة التي تعمي البصر فقط عندما تلامس الأرض. لا يمكن لها أن تتوهج في الفراغ، فهي في الفراغ تخبو.

ما هي المخيلة؟ قد تكون الإجابة الأسهل، هي ما أجاب به الكاتب غايدار على مثل هذه الأسئلة الماكرة. نظر باحتقار نحو محادثه وسأله:

تريد أن تُسجّل عليّ نقطة مرّة ثانية؟ اللعنة عليك! لن أجيبك في كل الأحوال؟

كي تكون بعض المفاهيم واضحة بالنسبة لنا إلى هذا الحد أو ذاك، يجب أن نحاول التمعن فيها مثلما يفعل الكبار أثناء حديثهم مع الأطفال.

يسأل الأطفال: «وما هذا؟»، و«من أجل ماذا؟» و«لماذا هذا؟». ولا يهدأ لهم بال قبل أن يجبرونا على البحث عن الإجابات، ولو الممكن قبولها.

فلو وُجد معنا محادث صغير قد يمكنه أن يلفظ كلمة: «المخيلة»، فمن البديهي أن الحديث قد يجري كما يلي:

وما هي المخيلة؟

لو تحدثنا في هذه المناسبة عن «شمس الفن» أو عن «قدس الأقداس» الخاص به لوقعنا في مأزق من النوع الذي لا يمكن التخلص منه إلا بطريقة وحيدة، وهي الهرب من المحادث الصغير الذي نتحدث معه.

الوضوح هو ما يطلبه الأطفال. لهذا السبب فسنكون مجبرين على أن نجيب على سؤال شريكنا المفترض في الحديث بالقول إن المخيلة - خاصية الطبيعة البشرية.

- أي خاصية؟

- إنها خاصية الإنسان الذي يستفيد من ملاحظاته وأفكاره ومشاعره، كي يخلق، إلى جانب الواقع، حياة متخيلة بأشخاصها وأحداثها المتخيلين. (بالطبع، يجب أن يقال هذا بطريقة أبسط بكثير).

- ومن أجل ماذا؟ - سيسألنا محادثنا. -إذ توجد حياة حقيقية، فما حاجتنا لتخيّل حياة أخرى؟

- لأن الحياة الحقيقية كبيرة ومعقّدة ولن يتمكن الإنسان أبداً من أن يعرفها بكاملها وبكل تنوعاتها. كما أنه لا يستطيع أن يرى وأن يختبر الكثير فيها. على سبيل المثال، لن يستطيع أن يعود إلى الوراء ثلاثمائة عام وأن يصبح العالم غاليليو، أن يكون مشاركاً في احتلال باريس في العام 1814 أو أن يلمس بيده وهو جالس في موسكو أعمدة أكروبوليوس في اليونان. أو أن يتحدث وهو يتجول في روما مع غوغول في روسيا. أو أن يجلس في المؤتمر ويستمع إلى خطاب مارات زمن الثورة الفرنسية. أو يشاهد المحيط الهادئ المرصع بالنجوم من على سطح السفينة، هذا على الرغم من أن الشخص لم يسبق له أن شاهد البحر. والإنسان يرغب في أن يشاهد ويسمع كل شيء، يريد أن يختبر كل شيء. وهكذا فإن المخيلة تمنحه كل ما

لم يتمكن الواقع من أن يمنحه له أو لم يسعفه الوقت لذلك. تملأ المخيلة فراغ الحياة البشرية.

وأنت، بطبيعة الحال، ستنسى من تتحدث معه وستبدأ في قول أشياء غير مفهومة بالنسبة له.

من يستطيع أن يرسم حدوداً دقيقة بين المخيلة والفكر؟ لا وجود لمثل هذه الحدود.

بالمخيلة تم اكتشاف قانون الجاذبية، معادلة نيوتن، رواية «تريستان وإيزولد» الحزينة، تجزئة الذرّة، مبنى الأميرالية في لينينغراد، لوحة «الخريف الذهبي» للرسام ليفيتان، «المارسيليز» [1] الراديو، الضوء الكهربائي، نظرية النسبية وفيلم «بومباي».

لا تكون الفكرة الإنسانية مثمرة من دون المخيلة، تماماً مثلما أن المخيلة المفصولة عن الواقع غير مثمرة.

ثمة تعبير فرنسي: «الأفكار العظيمة تخرج من القلب». ربما كان من الأصح القول إن الأفكار العظيمة تخرج من الوجود الإنساني كله. القلب، المخيلة والعقل – هذا هو القلب الذي تولد منه ما نطلق عليه تسمية الثقافة. لكنْ هناك شيء واحد لا تستطيع حتى مخيلتنا القوية تخيله. إنه اختفاء الخيال، وبالتالي، كل ما تجعل منه المخيلة حياً. إذا اختفت المخيلة، فسيتوقف الإنسان عن كونه إنساناً. المخيلة هدية عظيمة من الطبيعة. إنها متأصلة في الطبيعة البشرية. لا يمكن للمخيلة، كما سبق لي أن قلت، أن تعيش من دون الواقع، فهي تتغذى منه. ومن ناحية أخرى، غالباً ما تؤثر المخيلة إلى حد ما على مجرى حياتنا وأفعالنا وأفكارنا وموقفنا تجاه الناس.

تحدّث بيساريف عن هذا بشكل جيد، كما أشرت سابقاً. قال إنه إذا كان الإنسان لا يستطيع تخيل المستقبل في صور مشرقة وكاملة، وإذا كان الإنسان لا يعرف كيف يحلم، فلن يجبره أي شيء على التصرف باسم هذا المستقبل، وخوض صراع عنيد، وحتى التضحية بحياته.

---

1- نشيد الثورة الفرنسية – المترجم

بالصدفة على سكين في الجيب
أبحث عن ذرّة غبار من أراض بعيدة –
وسيظهر العالم مرة أخرى غريباً،
ملفوفاً في ضباب ملون!

هذه الأبيات لألكسندر بلوك. وقال شاعر آخر:

رائحة المحيط في كل بركة
عبير الصحراء في كل حجر...

ذرّة غبار الصحراء وحجر في الطريق! غالباً ما يبدأ عمل المخيلة التي لا يمكن كبحها من هذا الغبار ومن هذا الحجر. بهذا الصدد تذكرت قصة أحد النبلاء الأسبان. من المحتمل أن يكون هذا النبيل قد عرف أياماً أفضل، ولكن في وقت قصتنا كان يعيش بشكل سيئ في مزرعته في قشتالة. المزرعة – قطعة أرض مع منزل حجري قاتم، يشبه قلعة – ورثها عن أسلافه. كان إنساناً وحيداً. كانت مربية عجوز فقط تعيش عنده في البيت. كانت تجهّز بصعوبة أكثر أنواع الأكل سهولة، ولا تتذكر شيئاً. حتى إنه كان من العبث التحدث معها. كان النبيل يقضي أيامه جالساً عند النافذة المقوّسة ويقرأ الكتب. كان صوت تفسّخ الصمغ الجاف الذي تُلصق به صفحات الكتب وحده من يخرق السكون.

كان في أحيان نادرة يتطلع عبر النافذة. كانت هناك شجرة جافة، سوداء كالحديد، وهضبة جرداء ممتدة على طول الأفق. كانت هذه المنطقة من أسبانيا مهجورة ولا تُشجّع أحداً على زيارتها، لكن النبيل كان معتاداً عليها. كان قد تجاوز مرحلة الشباب، بحيث يغادر منزله في رحلات متعبة وطويلة قد تصادفه فيها الكثير من الأمور المزعجة. إضافة إلى ذلك، ما الفائدة من الرحلات في حين ليس له أقارب أو أصدقاء!

قلّة من الناس من كانوا يعرفون كيف كانت حياة النبيل في الماضي. قالوا إنه كانت لديه زوجة وابنة جميلة، لكنهما ماتا في نفس العام والشهر نتيجة وباء

قاتل. ومنذ ذلك الوقت أغلق على نفسه باب المنزل، وكان يسمح على مضض بدخوله فقط لعابري السبيل الذين يداهمهم الليل أو الطقس السيئ. في أحد الأيام طرق على الباب رجل يرتدي عباءة خشنة ليحتمي من الرياح. ربط حماره العجوز إلى شجرة سوداء. أخبر النبيل أثناء العشاء قرب المدفأة المشتعلة أنه، بفضل السيدة العذراء – رجع سالماً من رحلة بحرية خطرة نحو الشمال، إلى حيث أرسل الملك، الذي أغواه حديث أحد الطليان ويدعى كولومبوس، عدداً من الفرسان. أبحروا عبر المحيط عدة أسابيع وكانوا يسمعون أصوات حوريات البحر – الصافرات. كانت الحوريات يرجون بمكر أن يتم رفعهن إلى الأشرعة كي يمكنهن أن يتدفأن فوق الصواري، وأن يغطين أجسادهن العارية بشعرهن الطويل وكأنه غطاء من القماش. أمر الكابتن ألا يستجيبوا لما تطلبه الحوريات. امتعض البحّارة. فقد لوّعهم الحب، حب خصور النساء اللدنة المدورة. انتهى كل هذا بتمرد فاشل. تم شنق ثلاثة من زعماء التمرد على الصارية. تابعوا الإبحار وشاهدوا بحراً ليس مثله بحر، مغطى بالأعشاب البحرية. أينعت بين الأعشاب ورود كبيرة الحجم زرقاء اللون. عند ذلك أقاموا صلاة القدّاس وبدأوا يلتفون حول البحر إلى أن ظهرت في الأفق فجأة أرض جديدة غير معروفة – أرض مجهولة ورائعة. جلبت الريح القادمة من جهة الشاطئ معها صوت حفيف أشجار الغابة ورائحة النبات الفوّاحة. صعد القبطان فوق الجسر، أخرج السيف، ورفعه باتجاه السماء، فلمعت نار ذهبية على حافة السيف الحادة – علامة على أنهم اكتشفوا بلاد «إلدورادو»، حيث الجبال مليئة بالأحجار الكريمة والذهب والفضة.

استمع النبيل لهذه القصة بصمت. أخرج الضيف من حقيبة جلدية قبل مغادرته صَدفة بحرية من بلاد إلدورادو وأهداها للنبيل العجوز كتعبير عن امتنانه بسبب العشاء والمنامة. كانت الهدية تافهة، لهذا قبلها النبيل.

غادر الرجل، وفي الليل هبّت عاصفة رعدية، واندلع ضوء البرق بخفة ثم انطفأ فوق السهل الصخري.

وضع النبيل الصَدَفة على الطاولة بجانب سريره. حين استيقظ، رآها مضاءة بوميض من النار السماوية. وفي أعماق الصَدَفةَ، تومض وتتلاشى رؤية البلاد السحرية المصنوعة من الضوء الوردي والزَبد والغيوم.

توقف البرق. انتظر النبيل التماعته التالية، ومن جديد رأى البلاد داخل الصَّدَفة بوضوح أكثر من المرّة السابقة. تدفقت من ضفافه الشديدة الانحدار شلالات غزيرة من المياه في البحر، تتسبب في رغوة وتتلألأ. ماذا كان هذا؟ ربما هي أنهار. حتى إنه بدا له كأنه يشعر بنضارة هذه الأنهار. غطت رغوة المياه على وجهه. عزا هذا الشعور إلى حلم لم ينقطع، نهض، نقل كرسيه إلى الطاولة، جلس بقرب الصَّدَفة، انحنى فوقها، وبقلب ينبض بطريقة غير مفهومة، حاول التمعن في كل التفاصيل الجديدة للبلاد الكامنة داخل الصَّدَفة. لكن البروق أصبحت أقل، وسرعان ما توقفت تماماً.

تخوف النبيل من إشعال الشمعة، كي لا يجعله ضوؤها المتوهج يقتنع أن كل هذا عبارة عن خداع بصري، وأنه لا وجود لأي بلاد في الصَّدَفة. جلس هكذا حتى الصباح. مع تباشير الفجر تبيّن له أنه لا شيء مميزاً في الصَّدَفة.

لم يكن هناك شيء في باطنها سوى الشفق الضبابي الملحوظ بالكاد، كما لو أن البلد الغامض قد انتقل بعيداً بين عشية وضحاها لآلاف من السنين.

سافر النبيل في نفس اليوم إلى مدريد وحنى ركبتيه راكعاً أمام الملك، ورجاه، باعتباره واسع الرحمة، أن يمنحه المباركة الملكية كي يجهّز، على حسابه الخاص، سفينة ليبحر نحو الغرب للبحث عن بلاد إلدورادو غير المرئية.

كان الملك رحيماً وسمح له بهذا. وقال بعد مغادرة النبيل للمقربين منه:

هذا النبيل مجنون حقيقي! ما الذي يمكن له أن يحققه بسفينة واحدة بائسة؟ لكن الله يقود حتى المجانين في الطريق. إنه لأمر جيّد أن يضيف هذا العجوز أراضي جديدة لمملكتنا.

أبحر النبيل عدّة أشهر نحو الشمال. كان يكتفي بشرب الماء فقط، القليل منه. جفّ جسده من القلق. حاول ألا يفكّر بالبلاد السحرية، خشية ألا يتمكن من الوصول إليها. وإن رآها، فقد تكون سهلاً مليئاً بالعشب الشائك، وستثير الرياح أعمدة الغبار فوقه.

صلّى النبيل للعذراء من أجل ألا يتعرض لهذه الخيبة. كان تمثال العذراء المنحوت من الخشب معلقاً بثبات على مقدمة السفينة. كان يتمايل ويهتز

بفعل الأمواج. تحدّق عيونها الزرقاء المنتفخة بلا حراك في مدى البحر. كان الرذاذ يلمع على شعرها المذهب والأرجواني الباهت وعلى عباءتها.

أرشدينا! تضرّع إليها النبيل. – لا يمكن أن تكون هذه البلاد غير موجودة. فأنا أراها بوضوح في الحلم.

التقط البحّارة في أحد الأيام غصن شجرة مكسوراً. كان هذا يعني أن الأرض قريبة. كان الغصن مغطى بأوراق كبيرة تشبه ريش النعامة. وكانت رائحة الأوراق طيبة وطازجة.

لم ينم أحد من الذين في السفينة في تلك الليلة.

أخيراً، انكشفت في ضياء فجر الصباح، من أحد أطراف البحر إلى الطرف الآخر، بلاد تشعّ بألون جبالها المتعددة الألوان. انحدرت أنهار شفافة من هذه الجبال نحو المحيط. حلّقت فوق الغابات الخضراء أسراب من الطيور الفرِحة. كانت الغصون كثيفة بحيث عجزت الطيور عن اختراقها إلى داخل الغابة ولهذا كانت تدور حول قممها. كانت رائحة الزهور والفواكه المبهجة تتطاير من الشاطئ. بدا أن أي نفحة من هذه الرائحة تدخل معها الخلود في الصدور.

أشرقت الشمس، وفجأة اكتست البلاد المحاطة بغطاء من ضباب الشلالات بكل الألوان التي يعطيها ضوء الشمس عندما ينكسر على حواف أوعية الكريستال. كانت البلاد تلمع مثل عرق من الألماس ملقى على أطراف البحر من قبل آلهة السماء والضياء.

ركع النبيل على ركبتيه، مدّ ذراعيه المرتجفتين نحو الأرض غير المرئية وقال:

شكراً لكِ أيتها الرؤية! جعلتني أشعر في أواخر حياتي بالرغبة في التجديد وأجبرت روحي على أن تتوق لرؤية هذه البلاد المباركة. فمن دون ذلك ما كنت بحثت عنها، وكان يمكن أن تجف عيناي وتعمى من رؤية منظر الجبال العارية الرتيب. سأطلق على هذه الأرض السعيدة اسم ابنتي فلورنسا.

اندفعت من الشاطئ للقاء السفينة عشرات أقواس القزح الصغيرة التي جعلت رأس النبيل يدور. كانت الشمس قد أشعلت أقواس القزح هذه برغوة الشلالات، لكنها هربت باتجاه السفينة، واقتربت منها بسرعة.

رفعت الأشرعة بشكل رسمي على الصواري ورفرفت لافتات الاحتفال التي رفعها الطاقم. سقط النبيل على وجهه على سطح السفينة الرطب الدافئ وهمد. لم يحتمل قلبه المتعب فرحته الوحيدة الرائعة التي هبطت عليه في هذا اليوم. ومات.

هكذا، كما يقولون، تم اكتشاف البلاد التي سمّيت فيما بعد فلوريدا. من الصعب تفسير هذه القصة. لكن مع ذلك، يجب تحديد دلالتها الرئيسية بحيث تصبح الفكرة واضحة تماماً، وهي أن الخيال، المنبثق من الحياة، يكتسب بدوره في بعض الأحيان السلطة على الحياة.

حصل النبيل على دفعة من المخيلة من الرجل ذي المعطف الخشن. سيطرت المخيلة في هذه اللحظة على النبيل العجوز، ولهذا السبب فقط رأى في عمق الصَّدَفة بلاداً عجيبة.

تكمن إحدى الخواص الرائعة للمخيلة في أن الإنسان يؤمن بها. وهي ستكون لعبة فارغة من ألعاب العقل من دون هذا الإيمان، ومشكال للأطفال (كاليدوسكوب) لا معنى له.

هذا الإيمان بالخيال هو القوة التي تجعل الشخص يبحث عن الخيال في الحياة، ويكافح من أجل تجسيده، ويذهب إلى نداء الخيال، كما فعل النبيل العجوز، وأخيراً يخلق الخيال في الواقع. لكن قبل كل شيء والأهم هو أن المخيلة ترتبط بالفن، بالأدب وبالشعر.

تتأسس المخيلة على الذاكرة، والذاكرة بدورها تتأسس على الواقع. لا يتسم مخزون الذاكرة بالفوضى. ثمة قانون – قانون التداعيات، أو كما أسماه لومونوسوف، «قانون التخيل المشترك»، الذي يرتب كل فوضى الذكريات عن طريق التشابه أو القرب في الزمان والمكان – وبعبارة أخرى، يعممها – وينقلها إلى سلسلة متتابعة مستمرة. سلسلة توارد التداعيات هذه – هي الخيط الذي يربط المخيلة.

يؤشر غنى التداعيات على غنى عالم الكاتب الداخلي. تكتسب أي فكرة أو موضوع صفات حية بسبب وجود هذا الغنى.

توجد ينابيع معدنية غزيرة جدًا. ويكفي أن ترمي في نبع من هذا النوع

غصناً أو مسماراً، أو أي شيء آخر، فهو خلال وقت قصير سيؤدي إلى تشكّل العديد من قطع الكريستال البيضاء، التي ستتحول إلى منتج فني حقيقي. يحصل نفس الشيء تقريباً مع الفكرة الإنسانية المنغمسة في نبع الذاكرة، في الوسط المشبع بالتداعيات. تتحول الفكرة إلى منتج فني.

يمكن استخدام أي مثال يتعلق بالتداعيات. هنا يجب أن ندرك أن تداعيات كل منّا ترتبط بحياته، بسيرته الذاتية وبذكرياته. لهذا فإن تداعيات شخص واحد يمكن أن تكون غريبة تماماً بالنسبة لشخص آخر. يمكن لذات الكلمة أن تستدعي تداعيات مختلفة عند أشخاص مختلفين. تكمن مهمة الكاتب في أن ينقل، أو يوصل تداعياته إلى القارئ وأن يثير فيه تداعيات مشابهة.

استشهد العالم لومونوسوف بأبسط مثال على التداعيات في مؤلفه «البلاغة». التداعيات، وفق كلام لومونوسوف هي:

«هناك موهبة روحية تتمثل في تقديم شيء واحد، يجعل من الممكن تخيل أشياء أخرى بطريقة ما مرتبطة به، على سبيل المثال: عندما نتخيل سفينة في أذهاننا، نتخيل قارباً معها والبحر الذي يطفو فيه، مع البحر – عاصفة، مع العاصفة – أمواجاً، مع الأمواج – ضوضاء في الشواطئ، مع الشواطئ – حجارة، وإلى آخره».

هذا ما يمكن اعتباره «نماذج مدرسية» من التداعيات. في العادة تكون التداعيات أكثر تعقيداً.

وإليكم أحدها، على سبيل المثال.

أنا أكتب الآن في منزل صغير يقع عند ضفاف خليج ريغا. يقرأ شاعر مرِح قصائده بصوت مرتفع – شاعر من ليتوانيا. يرتدي سترة حمراء محاكة. شاهدت مثل هذه السترة من قديم، من زمن ما قبل الحرب، يرتديها المخرج السينمائي آيزنشتاين. التقيت بآيزنشتاين في الشارع في يالتا. كان يحمل حزمة من الكتب التي اشتراها للتو. كان اختياره للكتب غريباً نوعاً ما: «دليل اللعب بالكرة الطائرة»، «مقتطفات من تاريخ العصور الوسطى»، «تعليم الجبر» وغير ذلك.

– من المفترض أن يعرف المخرج كل شيء، وأن يعثر على تعبير بصري لكل شيء.

– حتى ما يخص مسائل الجبر؟ – سألته.

– بالتأكيد! – ردّ آيزنشتاين.

كتب الشاعر فلاديمير لوغوفسكي قصيدة طويلة في ذلك الوقت. كان فيها مقطع عن آيزنشتاين وضع له عنوان «المآتا – مدينة الأحلام». تضمّن المقطع وصفاً للقبعات المكسيكية المعلقة في الغرفة في بيت آيزنشتاين. كان قد جلبها من رحلة في أمريكا الوسطى.

عموماً، كل تاريخ غزو أميركا – هو تاريخ النذالة الإنسانية. هكذا يجب أن نعنونه. إنها عنونة جيدة لرواية تاريخية: «النذالة». إنها تبدو مثل صفعة.

آه، أيها البحث المضني المتواصل عن «العنوان»!

ثمة حاجة إلى موهبة قوية كالتي عند مكسيم غوركي كي تسرد نفس القصة عدّة مرات، ثم تكتبها بطريقة أخرى مختلفة عن الطريقة التي سردتها بها، كأنها قصة جديدة! وغوركي كان راوياً رائعاً. ينمو الحدث العادي لديه على الفور بالتفاصيل. تتشعب التفاصيل في كل مرّة جديدة يروي فيها الحدث، وتتغير وتصبح شيّقة أكثر.

كانت حكاياته الشفوية في جوهرها إبداعاً حقيقياً. لذا كان غوركي يشعر بالملل بشكل لا يطاق بين الناس التافهين الذين يشددون على الدقة، الذين يسمحون لأنفسهم بالشك في صحة قصصه. كان يعبس ويصمت، كأنه يقول: «من الممل العيش معكم في هذا العالم، أيها الرفاق!».

امتلك الكثير من الكتّاب هذه القدرة على السرد الشفوي الرائع المبني على وقائع حقيقية. مثلاً، مارك توين. اتهم أحد النقاد من الذين يدافعون عن الحقيقة التافهة مارك توين بأنه يكذب. احتدّ مارك توين. «كيف يمكن لك أن تحكم إن كنت كذبت أم لم أكذب، – قال له مارك توين – إذا كنت أنت نفسك لا تعرف حتى كيف تكذب بغباء وليس لديك أي فكرة عن كيفية القيام بذلك؟ كي تستطيع تأكيد هذا بجرأة كبيرة، تحتاج إلى الكثير من الخبرة في هذا الأمر. وأنت لا تملكها ولا يمكنك الحصول عليها. في هذا المجال أنت جاهل».

حدّثنا الكاتب إيلف أنه شاهد في مدينة صغيرة في وطن مارك توين

نصباً تذكارياً لتوم سوير وغيلبير فين[1]. يمسك فين في هذا النصب بذيل قطة ميتة.

حقاً، لماذا لا ينصبون عندنا تماثيل شخصيات الروايات الأدبية؟ مثلاً، دون كيشوت أو غوليفار، بافل كورشاغين، تاتيانا لورينا، تاراس بولبا، بيير بزاوخوف، شقيقات تشيخوف الثلاث أو شخصية مكسيم مكسيموفيتش عند ليرمونتوف.

كل ما كُتب أعلاه سلسلة من التداعيات. قد يكون عددها لا نهائياً. لو جمعنا معاً أول وآخر اسمين في هذه التداعيات – السترة الحمراء وتمثال مكسيم مكسيموفيتش – فإن كل تتابع هذه التداعيات سيبدو نوعاً من الهذر.

أتحدث كثيراً عن التداعيات فقط لأنها تشارك بقوة في عملية الخلق الإبداعي.

ثمة شيء واحد واضح فقط في هذا الحديث الطويل عن المخيلة – من دون المخيلة لا أدب حقيقي ولا شعر.

ربما أن أفضل من تحدّث عن المخيلة هو بيستوجوف مارلينسكي: «الفوضى هي مقدمة لخلق شيء حقيقي وعالٍ وشاعري. دع شعاعاً من العبقرية فقط يخترق هذا الظلام. المتعادون المتساوون بالقوة حتى الآن سيحيون بالحب والوئام، ويلتحمون في قوة واحدة ويتحولون إلى كريستال يتلألأ، ويتشكلون مثل جبال، وينسابون مثل بحر، وستكتب القوة الحية العالم الجديد بحروفها الهيلوغرافية الضخمة».

يحل الليل، وتنتعش قوى الروح شيئاً فشيئاً، – ليس لها اسم حتى الآن. ماذا نسميها؟ المخيلة، الفنتازيا، توغل في أدق مراحل الوعي البشري، الإلهام؟ السعادة الروحية أم السكينة؟ الفرح أم الحزن؟ من يعرف!

أُطفئ المصباح، وبدأ الليل يتضح ببطء. الظلام مشبع بانعكاس الثلج، يتحول خليج البحر إلى جليد. مثل مرآة ضخمة قاتمة تضيء الليل وتحوله إلى غسق شفاف. تُرى قمم أشجار صنوبر البلطيق السوداء. يتصاعد ضجيج

---

1- شخصيات رواية مغامرات توم سوير لمارك توين – المترجم

القطار الذي يمر في مكان بعيد. سكون من جديد، سكون من النوع الذي تسمع فيه حتى أدنى حفيف لإبر الصنوبر خارج النافذة وفرقعة طفيفة غير مفهومة. إنه يتزامن مع توهجات النجوم. ربما يكون الجليد يتطاير منها ويتطاير بلطف ويصدر عنه الرنين. مكتبة سُر مَن قرأ

البيت فارغ. أنا وحدي فيه. بقربي – البحر على بعد مئات الأميال. خلف نهر الدون مستنقعات واسعة وأشجار قصيرة. لا أحد حولي. لكن ما إن أُشعل المصباح وأجلس أمام الطاولة وأبدأ الكتابة عن أي شيء مهما كان، حتى ينتهي الإحساس بالوحدة. أنا لست وحدي. أستطيع من هذه الغرفة أن أتحدث مع آلاف الأشخاص، مع العالم كله. أستطيع أن أروي لكم كل أنواع القصص، أن أجعلها تُضحك أو تُحزن، أن أجعلها تستدعي التفكير أو تثير الغضب، الحب أو التعاطف، أن تقود القارئ من يده، مثل المرشد، في دروب الحياة. لقد خُلِقتْ هنا، داخل هذه الجدران الأربعة، لكنها ستصل إلى المعمورة كلّها. سأقودها من يدها للقاء الفجر. سيطلع الفجر حتماً. لقد ارتفعت بالفعل في الشرق مظلة الليل المعتمة بشكل ملحوظ قليلاً، وأضاءت حافة السماء بزرقة بعيدة جداً، بالكاد يمكن ملاحظتها.

أنا نفسي لا أعرف حتى الآن ما سأكتب. الفكرة تعتمل في داخلي، كإثارة، كرغبة في أن أنقل للآخرين كل ما يملأ عقلي وقلبي وكياني كله الآن. تحيا الفكرة في داخلي، لكن في أي شيء ستصب، ما هي دروبها نحو التعبير، هذا ليس واضحاً لي حتى الآن. لكني أعرف لمن سأكتب. سوف أتحدث مع عالمي. من الصعب، حتى من المستحيل تقريباً، أن أتخيل هذا المفهوم – العالم كله.

تفكر دائماً بشخص واحد ما، على الأقل بفتاة ذات عيون مشرقة لا تحتمل، ركضت ذات مرة لمقابلتي في المروج، ثم قالت لي حين وصلت وأمسكت بمرفقي وهي تلهث من الجري:

– أنا أنتظرك هنا منذ زمن. جمعت باقة كاملة من الورود وقرأت تسع مرات عن عيب الفصل الثاني من «يفغيني أنيغين». وما زلت أنتظرك في البيت، لأننا نشعر بالملل وحدنا. والآن أخبر الجميع بما حصل معك في

البحيرة، ومن فضلك، ابتكر شيئاً مثيراً للاهتمام. أو لا، لا تبتكر، بل تحدث عن كل شيء كما كان، لأن المروج جميلة جداً والوردة أزهرت للمرة الثانية! وهذا جيد عموماً!

أو ربما لا شيء يخيفنا الآن بالنسبة لامرأة ترتبط بقوة حياتها بحياتي منذ سنوات، بكل أحزانها وأفراحها. وربما أيضاً للأصدقاء، الذين تتقلص أعدادهم عاماً بعد عام. لكني في كل الأحوال أكتب لجميع من يرغب في أن يقرأ ما أكتبه.

لا أعرف ماذا سأكتب. ربما لأنني أريد أن أقول الكثير ولم أختر بعد أي فكرة من أفكاري، التي، مثل المغناطيس، ستجذب البقية وتجعلهم يتناسبون بشكل متناغم مع حدود السرد. هذه الحالة مألوفة لجميع الكتاب.

«الشعراء، – قال تورجينيف، – لا يتحدثون عبثاً عن الإلهام. بالطبع، لا ينزل الوحي عليهم من أوليمبوس[1]، ولا يقدّم لهم أغنيات جاهزة، لكنهم يتمتعون بمزاج خاص يشبه الإلهام». تعبّر بشكل رائع عن هذا المزاج قصائد فيت، تلك التي أضحكتنا، والتي يقول فيها إنه شخصياً لا يعرف ما سيغني، لكن « الأغنية فقط تنضج».

لا يُعدم وجود لحظات تشعر فيها بالرغبة في الكتابة، ولا تعرف عن ماذا بالضبط، لكنك تشعر أنك ستكتب. يسمي الشعراء هذا المزاج بـ «الاقتراب من الله». تشكّل هذه اللحظات متعة الفنان الوحيدة. فلو لم تكن، لما كتب أحد. بعد ذلك، عندما تضطر إلى ترتيب كل ما في رأسك، عندما يتعين عليك وضع كل شيء على الورق، تبدأ «المعاناة».

يعلو صوت فجأة في وسط الليل. إنها صافرة سفينة واحدة. من أين أتى إلى هنا وسط الجليد؟ بالأمس كتبت صحيفة ريجا أن كاسحة جليد غادرت لينينغراد متوجهة إلى الخليج. من الواضح أنها صافرة كاسحة الجليد.

يخطر على بالي فجأة قصة ملاح في إحدى كاسحات الجليد عن أنه رأى، عندما كان يعبر خليج فنلندا، على الجليد مجموعة من الورود البرية. كانت مغمورة بالثلج. من الذي فقدها هنا، في الصحراء الجليدية؟ من الواضح أنها سقطت من سفينة ما حين حطمت الجليد الرخو الأول.

---

1- أعلى جبال اليونان – المترجم

نشأت الصورة. بدأت تقود بقوة غامضة نحو حكاية غير واضحة أيضاً.

يجب كشف سر هذه الورود المتجمدة. يشترك كل شيء في هذا اللغز. لكل من شاهد هذه الورود تصوراته الخاصة بهذا الصدد. أنا أيضاً لدي تصوراتي على الرغم من أنني لم أر تلك الورود. هل هي تلك الورود التي جمعتها الفتاة في المرج عندما هرعت لملاقاتي؟ على الأغلب، هي ليست ذات الورود. لكن كيف أصبحت على الجليد؟ يمكن أن يحصل هذا فقط في حكاية خرافية لا تعرف أية حواجز لا في الزمان ولا في المكان.

تنشأ هنا فكرة حول علاقة أنثوية خاصة مع الورود. إنها تختلف عن علاقتنا، نحن الذكور. بالنسبة لنا – الورود مجرد زينة. بالنسبة للنساء – هي مخلوقات حية، ضيوف من العالم، الذي نلاحظه، نحن الناضجين، المشغولين بالأعمال، بشكل عابر ونتعامل معه بترفع وتجاهل.

من المؤسف أن الفجر يمضي بسرعة. يمكن لضوء النهار أن يطرد هذه الأفكار، أن يجعلها، ببساطة، مضحكة في عيون الأشخاص الجادين. تنكمش العديد من الحكايات الخرافية في ضوء الشمس وتختبئ مثل القواقع في أصدافها. نعم، لكن حكاية قد وُلدت – وهي لا تزال غامضة. يكاد يكون من المستحيل إيقاف حكاية أو قصة أو قصة طويلة عندما تظهر في الضوء. هذا يعادل قتل كائن حي. تبدأ الأفكار في الازدهار في أذهاننا كما لو أنها أتت من تلقاء نفسها.

وأخيراً، تحين الساعة التي تصبح فيها الحكاية على الورق. صعوبة كتابتها تعادل صعوبة وصف رائحة العشب الخفيفة بالكلمات. أنت تكتب حكاية دون أن تتنفس تقريباً – حتى لا تهدر أجود حبوب اللقاح التي تغطيها. وتكتب بسرعة لأن وميض الضوء والظلال والصور المفردة يتم بسرعة وسهولة. ممنوع التأخير، ممنوع التخلف عن ركض المخيلة.

انتهت الحكاية. وتشعر بالرغبة في أن تلقي نظرة امتنان على تينك العينين البراقتين اللتين ستحيا فيهما إلى الأبد.

مكتبة
t.me/soramnqraa

# عربة سفر ليلي

كنت أرغب في كتابة فصل مستقل عن قوة المخيلة وتأثيرها في حياتنا. لكني بعد أن أمعنت التفكير، كتبت بدلاً من هذا الفصل قصة عن الشاعر أندرسون. يبدو لي أنه يمكن أن يحل محل هذا الفصل وأن يقدّم صورة أكثر وضوحاً عن المخيلة منها في الأحاديث العامة حول هذا الموضوع. في أحد فنادق البندقية القديمة والقذرة، لا يمكن الحصول على الحبر. ولماذا يكون هناك حبر؟ لكتابة فواتير متضخمة للضيوف؟

عندما نزل كريستيان أندرسون في الفندق كان قد بقي في المحبرة القليل من الحبر. بدأ يكتب به حكاية. لكن الحكاية، ساعة إثر ساعة، بدأت تبهت أمام عينيه، لأن أندرسون أضاف الماء إلى الحبر. وهكذا لم يتمكن من أن ينهي الحكاية – بقيت نهاية الحكاية السعيدة في قاع المحبرة.

ضحك أندرسون وقرر أن يطلق على الحكاية التالية عنوان: «القصة التي بقيت في قاع محبرة جافة».

لقد أحب البندقية ووصفها بـ«اللوتس الذابل».

حلّقت فوق البحر سحابات خريفية منخفضة. سالت المياه الملوثة في القنوات. هدرت الرياح الباردة عند التقاطعات. ولكن عندما ارتفعت الشمس، ظهر الرخام الوردي من تحت العفن على الجدران، وبدت المدينة خارج النافذة، مثل لوحة رسمها فنان البندقية القديم كاباليتو.

أجل، لقد كانت مدينة رائعة، رغم أنها حزينة بعض الشيء. لكن الوقت قد حان لمغادرتها نحو مدن أخرى.

لهذا شعر أندرسون بأسف خاص عندما أرسل خادم الفندق ليشتري له تذكرة لعربة السفر، المتجهة مساء نحو فيرونا. كان الخادم مناسباً للفندق –

كسولاً، دائماً ما يكون غائباً، غير أمين، ولكنه ذو وجه مكشوف وبريء. لم ينظف غرفة أندرسون قط، حتى إنه لم يمسح بلاط الأرضية.

حلقت فراشات في أسراب ذهبية فوق الستائر الحمراء المخملية. كان على المرء أن يغتسل في حوض قيشاني متصدع عليه نساء يسبحن لهنّ صدور كبيرة. كان مصباح الزيت مكسوراً. بدلاً من ذلك، كان هناك شمعدان فضي ثقيل على الطاولة مع بقية شمعة من الشحم. من الواضح أن أحداً لم يقم بتنظيفه منذ أمد بعيد. انبعثت من الطابق الأول، حيث المطبخ، رائحة لحم الخروف المشوي والثوم المقلي. كانت النساء الشابات يقهقهن هناك ويتجادلن مرتديات ثياباً رثة مشدودة بشرائط ممزقة. كانت النساء يتشاجرن أحياناً ويشدُدْن بعضهن شعر بعض. عندما كان يصدف أن يمر أندرسون قرب النساء المتشاجرات، كان يتوقف وينظر بإعجاب إلى جدائلهن المتناثرة، ووجوههن المحمرّة من الغضب ورغبة الانتقام الحادة في عيونهن. لكن المشهد الأكثر سحراً كان، بالطبع، دموع الغضب التي تتناثر من عيونهن وتسيل على خدودهن مثل قطرات الألماس.

كانت النساء يهدأن عندما يرين أندرسون، إذ كنّ يرتبكن أمام هذا السيد النحيل الأنيق ذي الأنف الحاد. اعتبرنه ساحراً جوالاً، على الرغم من أنهن كنّ يدعونه باحترام «السيد الشاعر». كنّ، حسب فهمهنّ، يعتبرنه شاعراً غريب الأطوار. لا يفور الدم في عروقه. ولم يغن وهو يعزف على الجيتار الأغاني الشعبية التي تفطر القلوب ولم يقع في حب كل واحدة من النساء على التوالي. مرة واحدة فقط أخذ وردة قرمزية من عروة سترته وقدمها إلى أبشع فتاة – غسالة الصحون. كانت أيضاً عرجاء مثل البطة.

اندفع أندرسون نحو النافذة عندما ذهب الخادم لإحضار التذكرة، أزاح الستارة الثقيلة وراقب كيف يمشي الخادم، متثاقلاً، بموازة القناة. ضغط، فيما هو يمشي، على صدر بائعة الروبيان حمراء الوجه، وتلقى صفعة تصم الآذان على وجهه. ثم بدأ الخادم يبصق لفترة طويلة مركزاً من الجسر المقوس على القناة، محاولًا الوصول إلى النصف الفارغ من قشرة البيض التي تسبح بالقرب من الطحالب.

أخيراً أصابها، فغرقت القشرة. اتجه الخادم بعد ذلك نحو صبي يضع

على رأسه قبعة مهترئة. كان الصبي يصطاد. جلس الخادم بجانبه وحدق بهدوء في السنارة، منتظراً أن تقفز سمكة طائشة.

– إلهي! – صاح أندرسون بيأس. – لن أرحل اليوم بسبب هذا الأحمق؟

فتح أندرسون النافذة بقوة. ارتج زجاجها بشدة بحيث سمع الخادم صوتها ورفع رأسه. رفع أندرسون ذراعيه نحو السماء وهز قبضتيه بغضب. نزع الخادم القبعة عن رأس الصبي لوح بها باتجاه أندرسون، ثم أعادها إلى رأس الصبي، وقفز واختفى خلف الزاوية.

ضحك أندرسون. لم يعد يشعر بأي غضب. حتى إن هذه التصرفات التافهة المضحكة زادت يوماً إثر يوم من رغبته في الترحال.

تتضمن الرحلات دائماً مفاجآت. لن تعرف أبداً متى تلمع من تحت الرموش نظرة أنثوية ماكرة. متى تبدو في البعيد قلاع مدينة مجهولة وتلوح في الأفق أشرعة السفن الثقيلة، وأية قصائد تخطر في البال عند سماع الرعود التي تهدر فوق جبال الألب، وصوت من سيغني لك، مثل جرس الطريق، أغنية عن الحب.

أحضر الخادم تذكرة العربة، لكنه لم يعط بقية النقود لإندرسون. أمسكه أندرسون من حزامه وقاده بأدب إلى الممر. هناك صفع الخادم مازحاً على رقبته، واندفع إلى أسفل الدرج المتهالك، وقفز فوق الدرج وغنّى بأعلى ما في حنجرته من صوت.

بدأ المطر يهطل عندما انطلقت العربة نحو فينيسيا. حل الليل على المستنقعات. تذمر السائق من أن الشيطان نفسه لا بد أنه من فكّر في إرسال العربات من البندقية إلى فيرونا ليلاً.

لم يردّ المسافرون عليه. شتمهم الحوذي في قلبه، ثم حذّرهم من أنه لم تبق لديه شموع، باستثناء بقية شعلة في الفانوس. ولم يهتم المسافرون حتى بهذا. ثم أعرب السائق عن شكوكه بشأن سلامة ركابه، وأضاف أن فيرونا حفرة جوفاء، حيث لا يوجد فيها ما يفعله الأشخاص المحترمون.

كان المسافرون يعرفون أن هذا ليس صحيحاً، لكن لم يرغب أحد منهم في الاعتراض على الحوذي.

عدد المسافرين ثلاثة – أندرسون، قس مسن ضخم الجسم وسيدة

ترتدي معطفاً أسود. بدت لأندرسون أحياناً شابة، وأحياناً مسنّة، وأحياناً جميلة، وأحياناً بلهاء. كل هذه كانت مقالب الشعلة في الفانوس. كان ينير السيدة بشكل مختلف في كل مرة – كما يحلو له.

– هل يمكن أن تطفئ الشعلة؟ – سأله أندرسون. –لا حاجة إليها الآن. عندما نحتاجها فيما بعد لن نجد ما نشعله.

– هذه الفكرة لن تخطر على بال إيطالي! صرخ القس.

– لماذا؟

– الإيطاليون غير مؤهلين للتنبؤ بشيء. ينتفضون ويصرخون بعدما لا يكون هناك مجال لإصلاح أي شيء.

– من الواضح، – سأله أندرسون، – حضرتك لا تنتمي إلى هذه الأمة الساذجة؟

– أنا نمساوي! ردّ القس بغضب.

توقف الحديث. أطفأ أندرسون الشعلة. قالت السيدة بعد فترة صمت:

– من الأفضل السفر ليلاً من دون ضوء في هذا الجزء من إيطاليا.

– سيفضحنا ضجيج العجلات في كل الأحوال، – اعترض عليها القس وأضاف بانزعاج: – يجب على النساء المسافرات أن يصحبن معهن أحد أقاربهن كمرافق.

– مرافقي، – ردت المرأة وابتسمت بخبث، – يجلس بجواري.

كانت تقصد أندرسون. خلع أندرسون قبعته وشكر المرأة على ما قالته.

اشتدت الأصوات والرائحة ما إن انطفأت الشعلة، كما لو أنها فرحت لاختفاء المنافس. صار وقع صوت الحوافر أعلى، وصار صوت طقطقة العجلات على الحصى مسموعا أكثر وكذلك سيلان الينابيع ونقر قطرات المطر على سطح العربة. ونفذت رائحة الأعشاب الرطبة والمستنقعات بكثافة من النافذة.

– شيء مدهش! – قال أندرسون. – في إيطاليا، كنت أتوقع أن أشم رائحة بساتين الكلامنتينا[1]، لكنني أتعرف على هواء موطني الشمالي.

---

1– فاكهة من فصيلة البرتقال – المترجم

– سيتغير كل شيء الآن، – قالت السيدة. – نحن نصعد نحو التلال. الهواء هناك أدفأ.

تابعت الخيول سيرها. صعدت العربة فعلاً تلاً منبسطاً. لكن هذا لم يبدد ظلام الليل. على العكس، امتدت أشجار الدردار العتيقة على جانبي الطريق. وتحت أغصانها المنتشرة، خيّم الظلام بهدوء وثبات، وبالكاد تُسمع أصوات نقر المطر على أوراق الشجر.

فتح أندرسون النافذة. تسلل غصن شجرة إلى داخل العربة. قطف أندرسون بضع أوراق منه كتذكار. مثل العديد من الأشخاص الذين يتمتعون بخيال حي، كان لديه شغف بجمع كل أنواع الأشياء التافهة أثناء السفر. غير أن هذه الأشياء التافهة كانت تتمتع بخاصية واحدة – كانت تعيد إحياء الماضي، تعيد إحياء الحالة التي عاشها أندرسون في نفس اللحظة التي التقط فيها جزءاً من فسيفساء أو ورقة شجرة دردار أو حدوة حصان صغير.

«الليل» قال أندرسون في داخله. كانت عتمة الليل الآن تبدو أكثر إمتاعاً من ضوء الشمس. تسمح العتمة بالتفكير بهدوء بكل شيء. وعندما يملّ أندرسون من هذا، كانت العتمة تساعده على أن يبتكر قصصاً مختلفة يكون هو فيها البطل الرئيسي. تخيل أندرسون نفسه في هذه القصص جميلاً دائماً وشاباً وحيوياً. ينثر حوله بسخاء تلك الكلمات المسكرة التي يسميها النقاد العاطفيون «أزهار الشعر».

في الواقع، كان أندرسون بشعاً جداً، وكان يعرف هذا جيداً. كان نحيلاً وخجولاً. تتأرجح ساقاه مثل إنسانٍ لعبة معلق بحبل. يطلقون على أمثاله في بلده صفة «رجل دمية».

لم تكن هذه الصفات تسمح له بأن يأمل بإثارة اهتمام النساء. ومع ذلك، كان قلبه يتفجر غضباً عندما تمر بجانبه نساء شابات، كما لو أنهن يمررن بقرب عمود الإنارة.

غفا أندرسون. كان أول ما رآه عندما استيقظ نجمة خضراء كبيرة. كانت تطوف فوق الأرض مباشرة. من الواضح أن هذا كان في وقت متأخر من الليل.

توقفت العربة. سُمعت أصوات في الخارج. أصغى أندرسون. كان الحوذي يساوم بعض النساء اللاتي أوقفن العربة في الطريق. وكانت أصوات

النساء متزلفة وعالية إلى الحد الذي يجعل كل هذه المساومة اللحنية تذكّر بخطبة مغناة في أوبرا قديمة.

لم يوافق الحوذي على إيصال النساء إلى، ما يبدو - أنه مكان أو بلدة صغيرة لقاء المبلغ الذي عرضنه عليه. أكدت النساء أنهن ثلاثتهن معاً وأنه ليس معهن المزيد من النقود.

- كفى، - قال أندرسون للحوذي. - سأدفع لك المبلغ الذي تطلبه بوقاحة. وسأدفع زيادة إن توقفت عن أن تكون فظاً مع المسافرين وتثرثر بكلام تافه.

- حسناً، يا حلوات، - قال الحوذي للنساء. - اجلسن. اشكرن العذراء لأنكن صادفتن أميراً أجنبياً ممتلئاً بالنقود. هو، ببساطة، لا يريد أن تتأخر العربة بسببكن. وهو لا يحتاجكن أكثر مما يحتاج معكرونة من العام الفائت.

- يا يسوع، - همهم القس.

- اجلسن بجواري يا بنات، - قالت السيدة. هناك الدفء أكثر.

تهامست الفتيات فيما بينهن وتناقلن الأشياء ثم صعدن إلى العربة. وألقين التحية، شكرن أندرسون بخجل، وجلسن صامتات. وسرعان ما فاحت رائحة جبن الغنم والنعناع. لاحظ أندرسون بشكل خافت كيف كان الزجاج يتلألأ في أقراط الفتيات الرخيصة.

انطلقت العربة. ومن جديد طقطق الحصى تحت عجلات العربة. بدأت الفتيات يتهامسن.

- ترغب الفتيات، - قالت السيدة، وخمّن أندرسون أنها تبتسم وسط العتمة، - في معرفة من أنت. هل أنت فعلاً أمير أجنبي؟ أم مجرد مسافر عادي في الغابات؟

- أنا عرّاف، - أجاب أندرسون دون أن يفكر. - أستطيع أن أتنبأ بالمستقبل وأن أرى في العتمة. لكني لست دجالاً. وقد أكون أميراً فقيراً من ذلك البلد الذي عاش فيه هاملت يوماً ما[1].

- لكن ما الذي تستطيع رؤيته في هذه العتمة؟ - سألته إحدى الفتيات بدهشة.

---

1- يقصد الدنمارك -المترجم

– أنتِ، على الأقل، – ردّ أندرسون. – أراكِ بوضوح بحيث يمتلئ قلبي بالإعجاب أمام روعتك.

قال هذا وشعر بأن وجهه بدأ يبرد. فقد داهمته تلك الحالة التي كانت تسيطر عليه في كل مرّة يفكر فيها في قصائده وحكاياته. يتوحد في هذه الحالة قلق خفيف مع تيار الكلمات التي تندفع من مكان مجهول والإحساس المباغت بالقوة الشعرية والسلطة على القلب البشري. كما لو أن غطاء الصندوق السحري القديم قد انفتح بضجة، الذي تُحفظ فيه الأفكار التي لم تُكتب والمشاعر الملتهبة، وكل سحر الأرض، – كل الورود، الألوان والأصوات، الرياح العاصفة، فضاءات البحار، ضجيج الغابات، آلام الحب ولعثمة الأطفال.

لم يعرف أندرسون ماذا تسمى هذه الحالة. اعتبرها البعض إلهاماً، والبعض الآخر دهشة، وآخرون – موهبة الارتجال.

– استيقظت وسمعت أصواتكن وسط الليل، – قال أندرسون بعد لحظة صمت. –هذا كاف بالنسبة لي يا فتياتي العزيزات كي أعرفكنّ، وأكثر من هذا – كي أحبكنّ باعتباركنّ أخواتي الصغيرات. أنا أراكنّ جيداً. شعركنّ ناعم فاتح. أنتنّ مرحات وتعشقن كل ما هو حي، لدرجة أن الشحارير تجلس على أكتافكنّ عندما تعملن في البستان.

– آه يا نيكولينا! إنه يتحدث عنكِ! –همست إحدى الفتيات بصوت مرتفع.

– لك يا نيكولينا قلب حار، – تابع أندرسون بهدوء. لو حصلت مصيبة لحبيبك، لمشيت، دون تفكير، آلاف الأميال، عبر الجبال والثلوج والصحاري القاحلة كي تلتقي به وتنقذيه. هل أقول الحقيقة.

– نعم، ربما قد أفعل... – همهمت نيكولينا بارتباك. –هل حقاً تظن هذا؟

– ما أسماؤكن يا فتيات؟ – سأل أندرسون.

– نيكولينا، ماريا وآنّا، – أجابت إحداهن بحماس نيابة عن البقية.

– حسناً، ماريا، لا أريد أن أتحدث عن جمالك. أنا لا أتحدث الإيطالية جيداً. لكن حتى في شبابي، أقسمت أمام إله الشعر أن أُعظّم الجمال أينما رأيته.

– يا يسوع! – قال القس بهدوء. – لدغه عنكبوت. فقد عقله.

– هناك نساء جمالهن فعلاً مذهل. طبيعتهن دائماً تقريباً كتومة. يتحملن وحدهنّ كبت رغباتهنّ، يخفين مشاعرهن بداخلهن. أنتِ من هذا النوع يا ماريا. عادة ما يكون مصير مثل هؤلاء النساء غير عادي. إما حزيناً جداً، أو سعيداً جداً.

– وأنتَ، هل سبق لكَ أن التقيت بنساء من هذا النوع؟ – سألته السيدة.

– ليس مثل الآن، – أجاب أندرسون. لا أقصد بكلامي ماريا فقط، بل أقصدك أنتِ أيتها السيدة أيضاً.

– أعتقد أنك لا تقول هذا كي تختصر الوقت في الليل، – قالت السيدة بصوت راعش. هذه ستكون قسوةً مبالغاً فيها بحق هذه الفتاة الرائعة. وبحقي أيضاً، – أضافت بصوت منخفض.

– لم أكن قط جاداً هكذا، يا سيدة، كما أنا في هذه اللحظة.

– إذن، ما رأيك؟ سألته ماريا. – هل سأكون سعيدة؟ أم لا؟

– أنتِ تريدين أن تحصلي من الحياة على الكثير ـ على الرغم من أنك فتاة ريفية بسيطة. لهذا ليس سهلاً عليكِ أن تكوني سعيدة. لكنك ستلتقين في حياتك بالإنسان الذي يستحق قلبك المتطلب. بالطبع، يجب أن يكون من تختارينه شخصاً مميزاً. ربما أنه سيكون رساماً، شاعراً، مناضلاً من أجل حرية إيطاليا... وربما سيكون راعياً بسيطاً أو بحّاراً، إنما بروح غنية. في النهاية، نفس الشيء.

– سيدي، – قالت ماريا باستحياء، – أنا لا أراك، لذا لا أخجل من أن أسألك. فماذا أفعل لو أن هذا الشخص سيطر على قلبي؟ لقد رأيته فقط بضع مرات، وحتى إنني لا أعرف أين هو الآن.

– اعثري عليه، – صرخ أندرسون، وسوف يحبّك!

– ماريا! قالت آنّا بفرح، – إذن هو الرسام الشاب من فيرونا...

– اصمتي! صرخت عليها ماريا.

– فيرونا ليست مدينة كبيرة، بحيث يمكنك أن تبحثي هناك، – قالت السيدة. – تذكري اسمي. اسمي إيلينا غفيشيولي. أنا أعيش في فيرونا. أي ساكن في فيرونا سيدلّك على منزلي. تعالي يا ماريا إلى فيرونا، وستقيمين عندي إلى أن يتحقق هذا الحدث السعيد الذي تنبأ به لك مرافقنا اللطيف.

عثرت ماريا وسط العتمة على يد إيلينا غفيشيولي وضغطتها على خدّها الساخن.

صمت الجميع. لاحظ أندرسون أن النجمة الخضراء انطفأت. غابت وراء نهاية الأرض، هذا يعني أن الوقت تجاوز منتصف الليل.

– حسناً، لماذا لم تعدني بشيء؟ – سألت آنّا، أكثر الفتيات حديثاً.

– سيكون لك الكثير من الأطفال، – ردّ أندرسون بثقة. – سيقفون في صف واحد من أجل كوب الحليب. ستضيعين الكثير من الوقت في كل صباح كي تحميمهم وتسرحين شعرهم.. سيساعدك زوج المستقبل في هذا.

– أيمكن أن يكون بيترو؟ – سألته آنّا. لست بحاجة إلى بيترو الكسول هذا!

– وستضطرين لإضاعة الكثير من الوقت لتقبيل كل هؤلاء الفتيان والفتيات الصغار عدة مرات في اليوم في عيونهم الفضولية.

– لا مجال لمثل هذا الكلام الجنوني الذي لا معنى له في رحاب البابا! قال القس وهو يرتجف، لكن لم يهتم أحد بما قاله.

تهامست الفتيات فيما بينهن من جديد وهنّ يضحكن. أخيراً، قالت ماريا:

– والآن نريد أن نعرف أي إنسان أنت يا سيد. فنحن لا نستطيع رؤيتك في العتمة.

– أنا شاعر جوّال، – أجاب أندرسون. – أنا شاب. لي شعر كثيف أجعد ووجه أسمر داكن. تقريباً دائماً تضحك عيناي الزرقاوان، لأني عديم الخبرة ولم أقع في الحب حتى الآن. هوايتي الوحيدة – تقديم هدايا بسيطة للناس وارتكاب تصرفات طائشة لإرضاء القريبين مني.

– أية تصرفات، مثلاً؟ – سألته إيلينا غفيشيولي.

– ماذا أخبركم؟ عشت في الصيف الماضي عند أحد معارفي من حرّاس الغابات في يوتلاند. تجولت في أحد الأيام في الغابة واتجهت إلى سهل ينمو فيه الفطر. رجعت في نفس اليوم إلى السهل وخبأت حبة ملبّس مغلفة بورق فضي أحياناً، وحبة تمر أحياناً، وأحياناً وردة شمعية صغيرة، وأحياناً كشتباناً وشريط حرير.

ذهبت في اليوم التالي إلى تلك الغابة برفقة ابنة حارس الغابة. كانت في

السابعة عشرة من العمر. وهكذا عثرت تحت كل حبة فطر على أشياء صغيرة غير عادية. الناقص فقط كانت حبة التمر. من المحتمل أن الغراب التقطها. أتمنى لو استطعتنّ رؤية البهجة في عيني هذه الصغيرة المتوهجتين. أكدت لها أن الأشباح هي من خبأ هذه الأشياء.

– خدعت مخلوقاً بريئاً! –قال القس. –هذه خطيئة كبيرة!

– لا، ذلك لم يكن خداعاً. فهي ستتذكر هذه اللحظة طوال عمرها، وأؤكد لك أن القلب لا يقسو بسهولة، كما عند أولئك الذين لم يعيشوا تجربة هذه الحكاية. بالإضافة إلى ذلك، ليس من عادتي، أيها المحترم، الإصغاء إلى الإرشادات التي لا تهمني.

توقفت العربة. جلست الفتيات بلا حراك مثل المسحورات. صمتت إيلينا غفيشيولي وطأطأت رأسها.

– هيا يا حلوات! صرخ الحوذي. استيقظن، وصلنا.

تهامست الفتيات من جديد ونهضن. وفجأة، وسط العتمة، عانق ذراعان قويان أندرسون والتصقت شفتان حارتان بشفتيه.

شكراً، – همست هاتان الشفتان الحارتان، فتعرّف أندرسون على صوت ماريا.

شكرته نيكولينا وقبّلته بحذر ولطف، أما آنّا، فبقوة وصوت مرتفع. قفزت الفتيات إلى الأرض. تابعت العربة سيرها في الطريق الممهد. نظر أندرسون من النافذة. لم يتمكن من رؤية شيء عدا قمم الأشجار السوداء تحت سماء تكاد تميل إلى الزرقة. طلع الفجر.

أذهلت فيرونا أندرسون بأبنيتها الرائعة. تنافست الواجهات المزينة فيما بينها. كان من المفترض أن تعزز الهندسة المعمارية المتناسقة راحة البال. لكن أندرسون لم يكن مرتاح البال.

دق أندرسون في المساء على باب منزل فيشيولي القديم الواقع في شارع ضيّق يؤدي إلى القلعة. فتحت له إيلينا غفيشيولي الباب بنفسها. فستانها الأخضر من المخمل التف حول خصرها بإحكام. انعكس لون المخمل على عينيها، وبدت لأندرسون خضراء تماماً، وجميلة بشكل لا يوصف. مدّت ذراعيها نحوه وضغطت على راحتيه بأصابع باردة وتراجعت، ثم قادته

نحو صالة صغيرة. قالت ببساطة وابتسمت معتذرة: افتقدتك كثيرًا. – أنا حقاً اشتقت إليك.

اصفرّ وجه أندرسون. كان يتذكرها طوال اليوم بقلق صامت. عرف أنه كان حتى وجع القلب يمكن له أن يُحب كل كلمة من هذه المرأة، كل رمش مفقود، كل ذرّة غبار على ثوبها. لقد فهم هذا. أدرك أن قلبه لن يتسع لو سمح لمثل هذا الحب أن يستعر. إنه سيجلب كمّية من المعاناة والسعادة، من البكاء والضحك، بحيث لن تكفيه قواه أن يحتمل كل تقلباته ومفاجآته.

من يعرف، ربما أن التدفق السردي لحكاياته سيغادره ولن يعود أبداً، بسبب هذا الحب. ماذا ستكون قيمته آنذاك. في كل الأحوال سيتبين أن حبه بلا نتيجة. حصل هذا معه عدّة مرّات. نساء من هذا النوع، مثل إيلينا غفيشيولي، مزاجيات بطبعهن. ستلاحظ في يوم ما أنه مسخ. هو نفسه لا يحب نفسه. كان دائماً يشعر بنظرات السخرية من وراء ظهره. عند ذلك كان يتصلب في مشيته، يتعثر ويكون مستعداً لأن يغور في الأرض.

«فقط في المخيلة»، أكّد لنفسه، – يمكن للحب أن يستمر إلى الأبد، ويمكن أن تحيط به إلى الأبد الشاعرية السماوية المتألقة. يبدو أنني أستطيع أفضل أن أبتكر الحب من أن أختبره في الواقع».

لهذا جاء لزيارة إيلينا غفيشيولي بقرار ثابت أن يراها ثم يغادر، كي لا يلتقي معها ثانية. لم يستطع أن يقول لها هذا مباشرة، فلم يكن قد حدث أي شيء بينهما. التقيا فقط الأمس في العربة ولم يقل أي منهما شيئاً للآخر.

توقف أندرسون عند باب الصالة ونظر حوله. في الزاوية كان رأس ديانا[1] المرمري المضاء بالشمعدان، يبدو كأنه صار شاحباً بسبب الارتباك أمام جمالها.

– من خلد وجهك في تمثال ديانا هذه؟ سأل أندرسون.

– كانوفا[2]، – أجابت إيلينا وأخفضت عينيها. يبدو أنها خمّنت كل شيء، ما يدور في رأسه وفي نفسه.

– جئت أودعك، – غمغم أندرسون بصوت مكتوم. – سأغادر فيرونا.

---

1– آلهة الصيد والولادة في الأساطير الرومانية – المترجم

2– نحّات إيطالي من القرن التاسع عشر – المترجم

– عرفت من أنت، قالت إيلينا غفيشيولي وحدّقت في عينيه. –أنت كريستيان أندرسون الشاعر وكاتب الحكايات الشهير. لكن، يبدو أنك في حياتك تخاف من الحكايات. لا تملك القوة والشجاعة حتى لحب قصير الأمد.

– هذا صليبي الثقيل، – اعترف أندرسون.

– حسناً، يا شاعري المتجول اللطيف، قالت إيلينا بحزن ووضعت يدها على كتف أندرسون، – أسرع! أنقذ نفسك! فلتضحك عيناك على الدوام. لا تفكر بي. لكن إن كنت ستعاني من الرغبة، من الفقر والمرض، فيكفي أن تقول كلمة فقط – وأنا سأجيء، مثل نيكولينا، سيراً على الأقدام آلاف الأميال، عبر الجبال الثلجية والصحاري القاحلة، كي أواسيك.

انحنت وجلست على المقعد وغطت وجهها بيديها. اهتزت الشموع في الشمعدانات. رأى أندرسون كيف تتسرب وتومض من بين أصابع إيلينا غفيشيولي الرقيقة، وتسقط الدموع وتسيل ببطء على الفستان المخملي. ارتمى عليها، وركع على ركبتيه، وضغط بوجهه على ساقيها الدافئتين القويتين الناعمتين. وهي، من دون أن تفتح عينيها، مدت يديها، أحاطت برأسه، انحنت وقبّلته في شفتيه. سقطت دمعة حارة أخرى على وجهه، وشعر بطعمها المالح.

– اذهب، – قالت بهدوء. – وليسامحك إله الشعر على كل شيء.

نهض، ارتدى القبعة وخرج.

قرعت الأجراس في كل أرجاء فيرونا من أجل صلاة المساء.

لم يلتقيا قط بعد ذلك لكنهما كانا يفكران بعضهما ببعض طوال الوقت. ربما لهذا السبب قال أندرسون لأحد الكتّاب الشبان قبل موته بوقت قصير:

– لقد دفعت ثمناً باهظاً، كما يقال، مقابل حكاياتي الخيالية. من أجلها تخليت عن سعادتي وفات الوقت الذي كان على الخيال فيه، رغم كل قوته وكل تألقه، أن يتراجع ويفسح المجال أمام الواقع...

كن قادراً، يا صديقي، على أن تتمتع بالمخيلة من أجل سعادة الناس وسعادتك الخاصة، وليس من أجل الحزن.

## الفن يرى العالم

يعلمنا الفن كيف ننظر ونـرى «هذين شيئين مختلفين ونادراً ما يتطابقان». وبفضل هذا، فإن الرسم يحافظ على الشعور.

• ألكسندر بلوك

يتوقف الإنسان مشدوهاً أمام تلك الأشياء التي لا تستطيع أن تلعب أي دور في حياته: أمام انعكاسات لا يمكن القبض عليها، أمام منحدرات صخرية لا يمكن زرعها، أمام لون السماء المدهش.

• جون ريسكين

هناك حقائق يصعب دحضها، لكنها غالباً ما تكون غير مجدية، ولا تستجيب بأي شكل من الأشكال للنشاط البشري، بسبب كسلنا أو جهلنا. إحدى هذه الحقائق التي لا شك فيها تتعلق بحرفة الكتابة، وبخاصة عند كتّاب النثر. وهي تتلخص في أن جميع مجالات الفن المتداخلة – الشعر، الرسم، الهندسة، النحت والموسيقى، تثري على نحو غير عادي العالم الداخلي للكاتب وتضفي على نثره قدرة تصويرية خاصة.

يمتلئ النثر بضوء وألوان الرسم، بسعة وطزاجة الكلمات، بخصائص

الشعر، بتناسق الهندسة المعمارية، ببروز ووضوح خطوط النحت، بإيقاع اللحن الموسيقي. هذا كله إثراء إضافي للنثر، كأنه ألوان إضافية.

لا أصدق الكتّاب الذين لا يحبون الشعر والرسم. هم في أحسن الأحوال كسالى نوعاً ما، لا يتمتعون بعقل راجح، وفي أسوأ الأحوال - جهلة. لا يستطيع الكاتب أن يتخلى عما يوسع رؤيته للعالم، بالطبع، إن كان مبدعاً، وليس مجرد حرفي، إن كان مبدعاً للنفائس الثمينة، وليس شخصاً عادياً، يستهلك متع الحياة، مثلما تُمضغ العلكة الأمريكية.

غالباً ما يحصل أن لا شيء يبقى في الذاكرة من قصة قُرِئت، قصة طويلة، أو حتى رواية، باستثناء صخب الأشخاص الجاهلين. تتعذب وأنت تحاول رؤية هؤلاء الأشخاص، لكنك لا تراهم، لأن المؤلف لم يُضف عليهم أية صفة حية. تجري أحداث هذه القصص والروايات في وسط يوم جيلاتيني خالٍ من اللون والضوء، وسط الأشياء التي تمت تسميتها فقط، ولكن لم يرها المؤلف، وبالتالي لا تظهر لنا، نحن القراء.

بغض النظر عن حداثة الموضوع، يتضح العجز من هذه الأشياء المكتوبة جزئياً بفرح مزيف. يسعون من خلاله لجعله بديلاً عن البهجة، خاصة بهجة العمل. يكمن سبب هذه الكآبة ليس في الخواء العاطفي للمؤلف وأميته فقط، ولكن كذلك في عينه الضعيفة الرؤية أيضاً.

أرغب في تدمير مثل هذه القصص والروايات، كما النافذة المحكمة الإغلاق في غرفة متسخة ومليئة بالأتربة، بحيث تتطاير الشظايا مع اندفاع الرياح، وأصوات المطر، وصراخ الأطفال، وصافرة القاطرات البخارية، وتألق الأرصفة المبتلة - كي يمكن للحياة غير المنتظمة للوهلة الأولى أن تعبر بكل تنوع ضوئها الرائع والألوان والضوضاء.

لدينا عدد غير قليل من الكتب التي كتبها عميان، فيما هي موجهة للمبصرين، ومن هنا تتضح سخافة ظهور مثل هذه الكتب.

لا يكفي أن تتلفت في كل الاتجاهات لكي تبصر. يجب أن تتعلم كيف ترى. يستطيع أن يرى من الناس والأرض بشكل جيد فقط أولئك الذين يحبونهما. النثر الباهت وعديم اللون غالباً ما يكون نتيجة لبرودة دم الكاتب،

وعلامة مرعبة على موته. لكن في بعض الأحيان يكون هذا مجرد ضعف بسيط يدل على نقص الثقافة. وهذه الحالة، كما يقال، قابلة للإصلاح.

كيف نرى وكيف نستقبل الضوء والألوان – هذا ما يمكن للرسامين أن يعلمونا إياه. إنهم يرون أفضل منّا. وهم يستطيعون أن يتذكروا ما رأوه.

قال لي رسام من معارفي وأنا ما زلت بعد كاتباً شاباً:

– أنت يا عزيزي لا تزال لا ترى بوضوح كاف. رؤيتك غائمة قليلاً. مشوشة. إذا حكمنا من خلال قصصك، فإنك تلاحظ فقط الألوان الأساسية والأسطح الملونة للغاية، أما التدرجات والتباينات فتندمج عندك في شيء رتيب.

– ماذا يمكنني أن أفعل! أجبته مدافعاً عن نفسي. –هكذا هي العين.

– هراء! العين الجيدة – مسألة تدريب. تدرب على الرؤية. لا تتكاسل. وكما يقال، اضبط نغمة الوتر. حاول أن تنظر إلى كل شيء لمدة شهر أو شهرين مع التفكير في أنك بالتأكيد بحاجة إلى أن ترسمه بالألوان. تأمّل الناس وأنت في الحافلة، في أي مكان، بهذه الطريقة بالذات. وستقتنع خلال يومين أو ثلاثة أنك لم تر في هذه الوجوه جزءاً من عشرة مما لاحظته الآن. وستتعلم خلال شهرين كيف ترى، ولن تكون بحاجة إلى إجبار نفسك على فعل هذا.

أطعت الرسام، وبالفعل – تبين أن كلاً من الناس والأشياء أصبحوا أكثر إثارة للاهتمام من ذي قبل، عندما نظرت إليهم لمحاً وبسرعة. وشعرت بأسف شديد على الزمن الضائع بغباء، الذي لا يمكن استعادته. كم كان يمكن لي في السنوات الماضية أن أرى أشياء رائعة. كم ضاعت أشياء مثيرة ولا يمكن استعادتها!

كان هذا أول درس تلقيته من رسام. الدرس الثاني كان أكثر وضوحاً.

سافرت ذات خريف من موسكو إلى لينينغراد، لكن ليس من خلال كالينين، بل من محطة قطار سافيلوفسكي – عبر كاليازين.

لا يوجد أي تصور لسكان موسكو ولينينغراد عن وجود هذا الطريق. وعلى الرغم من أنه أطول، فإنه أكثر إثارة وإمتاعاً من الطريق المعتاد. أكثر إثارة، لأن الطريق يمر عبر مناطق جرداء ومناطق غابات.

كان رفيقي في الطريق رجلاً صغيراً يرتدي ملابس فضفاضة ذا عينين ضيقتين ولكنهما مفعمتان بالحيوية. كان مع الرجل صندوق كبير ممتلئ بالألوان الزيتية ولفة من قماش الرسم. لم يكن صعباً أن أُخمن أن هذا الرجل رسام.

تبادلنا الحديث. أخبرني رفيقي أنه يسافر إلى منطقة تيخفين، حيث له صديق يحرس الغابات، وسيقيم عنده ويرسم الخريف.

– ولماذا تسافر بعيداً هكذا، إلى تيخفين؟ – سألته.

– هناك مكان أحبه كثيراً، – أجابني الرسام كاشفاً سره. – مكان عن جميع الأمكنة! لن تجد مثيلاً له في أي مكان. غابة خريفية بالكامل! تعثر هنا وهناك فيها على بعض أشجار التنوب النادرة. في بعض الأماكن تكتسب أشجار أسبن[1] مظهراً أنيقاً في الخريف، وهي مثل أي أشجار أخرى، لديها أوراق ذات لون نقي. الأرجواني والليموني وحتى الأسود مع بقع ذهبية. تبدو تحت الشمس مثل نار رائعة. سأعمل هناك حتى الشتاء، وبعد ذلك في الشتاء سأتوجه إلى شاطئ الخليج الفنلندي وراء لينينغراد. هناك، كما تعلم، أفضل صقيع في روسيا. لم أر مثل هذا الصقيع في أي مكان من قبل.

قلت، على سبيل المزاح بالطبع، إنه بمثل هذه المعرفة، يمكن لرفيقي أن يؤلف دليلاً قيّماً للرسامين عن أين وماذا يرسمون.

– وماذا تعتقد! ردّ عليّ الرسام بجدية. – التأليف ليس صعباً، غير أنه بلا معنى. سيحتشد الجميع في مكان واحد. هذا في حين أن كلاً منهم يبحث عن الجمال الخاص به. هذا ليس الوضع الأمثل.

– لماذا؟

– البلاد شديدة التنوع. ثمة الكثير من الروعة في الأرض الروسية بما يكفي جميع الرسامين آلاف السنين. لكن عليك أن تعرف، – أضاف بشعور من القلق، – بدأ الإنسان يدوس على الأرض ويدمرها. هذا في حين أن جمال الأرض – أمر مقدّس، أمر عظيم في حياتنا الاجتماعية. هذا واحد

---

1– من أنواع الحور – المترجم

من أهدافنا النهائية. لا أعرف رأيك، لكني مقتنع بهذا. كيف يمكن أن يكون الإنسان طليعياً إن لم يفهم هذا!

غفوت في النهار، لكن سرعان ما أيقظني جاري.

– أرجو ألا تغضب مني، قال لي مرتبكاً، لكن من الأفضل أن تنهض. تتكشف لوحة مدهشة – رعد في أيلول. انظر!

نظرت من النافذة. ارتفعت سحابة كثيفة من الجنوب إلى وسط السماء. اهتزت بفعل ومضات من البرق.

– أمنا العذراء! صرخ الرسام. – يا لها من حزمة ألوان! لن تستطيع رسم هذه الألوان حتى لو كنت ليفيتان.

– أي ألوان؟ سألته منذهلا.

– إلهي! قال الرسام يائساً. – إلى أين تنظر؟ انظر هناك – الغابة هناك معتمة، صماء؛ هذا لأن ظل السحابة يخيّم عليها. وعلى مسافة أبعد، توجد عليها بقع صفراء باهتة وخضراء: إنها نتيجة تغطية السحب لضوء الشمس. وفي البعيد تشرق الشمس على كل شيء. تخترق كل شيء. كلّ مثل جدار مزخرف بالذهب. أو يبدو عبر الأفق مثل الألواح التي طرزتها النساء الحرفيات في مشاغل أعمالهن الذهبية. الآن انظر عن كثب إلى أشجار التنوب. هل ترى لمعان البرونز على رؤوس الشجر؟ هذا بسبب جدار الغابة الذهبي. إنه يغمر التنوب بضوئه. الضوء المنعكس. صعب رسمه – تشويهه سهل. وهناك، كما ترى، لا يوجد سوى توهج خافت، أود أن أقول – مثل إضاءة لطيفة، بالطبع، تحتاج إلى يد هادئة للغاية ومخلصة لتصويرها.

نظر الرسام إليّ وضحك.

– مع ذلك، يالها من قوة للضوء المنعكس من غابات الخريف! المقصورة كلها تتوهج. وخاصة وجهك. أتمنى لو أرسمه هكذا. لكن، للأسف، كل هذا عابر.

– هذه مهمة الرسامين، – قلت له، – كي يحفظوا الأشياء العابرة مائة يوم.

– نحاول، – ردّ الرسام. هذا إن لم يفاجئنا هذا العابر، مثلما حدث الآن.

أقول، من حيث الجوهر، يجب ألا يفترق الرسام أبداً عن ألوانه، عن قماشه وريشته. وضعكم أفضل ككتّاب. تحملون هذه الألوان في ذاكرتكم. انظر كيف يتحول هذا بسرعة. انظر كيف يتناوب الضوء والعتمة على الغابة.

اندفعت الغيوم المتفرقة نحونا قبل السحب الرعدية، وبحركتها السريعة، اختلطت كل الألوان على الأرض. بدأ الخلط بين اللون القرمزي والذهبي الأحمر والأبيض والأرجواني والأزرق على امتداد الغابة.

أحياناً، كان شعاع الشمس الذي يخترق السحب يسقط على أشجار حور منفصلة، فكانت تتوهج واحدة تلو الأخرى، وتخبو في الحال. هبت الرياح التي تسبق الرعود وزادت من خلط الألوان.

– والسماء، يا لها من سماء! – صرخ الرسام. انظر ماذا تصنع!

أطلقت السحابة الرعدية دخاناً مغبراً كثيفاً وهبطت بسرعة على الأرض. كانت كلها متشابهة ذات لون أزرق مائل إلى السواد. لكن كل ومضة من البرق احتوت على أعاصير مائلة للصفار وكهوف زرقاء وشقوق متعرجة مضاءة من الداخل بنار موحلة وردية اللون. استبدل وميض البرق الخارق في أعماق السحابة بلهب نحاسي متوهج. وبالقرب من الأرض، بين السحب والغابات كانت خطوط الأمطار الغزيرة قد هطلت بالفعل.

ما هذا! – صرخ الرسام مستثاراً. – قليلاً ما ترى هذا الشيء الشيطاني!

انتقلت وإياه من عند نافذة المقصورة إلى نافذة الممر. كانت الستائر تهتز بفعل الريح وتزيد من وميض الضوء. انهمر المطر. رفع المرافق النوافذ على عجل. وتدفقت حبال المطر المائلة على النوافذ. كان الضوء خافتاً وبعيداً بشكل رهيب، في الأفق ذاته، من خلال حجاب المطر، كان لا يزال آخر شريط ذهبي من الغابة يضيء.

– هل تذكرت شيئاً ما؟ – سألني الرسام.

– شيئاً ما.

– وأنا فقط تذكرت شيئاً ما، – قال بنوع من الأسى. سينتهي المطر، وتكون الألوان حين ذاك أكثر ثباتاً. هل تفهم، الشمس ستسخن فوق الأوراق والغصون الرطبة. بالمناسبة، حدّق في الضوء في يوم غائم قبيل المطر، هو قبل المطر شيء – وشيء آخر أثناءه، بعد المطر – متميز كلياً بشكل خاص.

ذلك لأن الأوراق المبتلة تضفي لمعاناً خفيفاً على الهواء. والرطوبة، ناعمة ودافئة. عموماً يا عزيزي، دراسة الألوان والضوء متعة. أنا لن أبدل قسمتي كرسام بأي شيء.

غادر الرسام في الليل عند محطة صغيرة. رافقته إلى الرصيف كي أودّعه. كان مصباح الكاز مشتعلاً. كان القطار البخاري أمامنا يبث دخاناً كثيفاً.

حسدت الرسام، وفجأة شعرت بالغضب على كل المشاغل التي عليّ بسببها أن أتابع السفر، ولا أستطيع أن أبقى ولو لبضعة أيام في المنطقة الشمالية. وهنا يمكن لكل فرع من فروع الشجر أن يثير الكثير من الأفكار التي ستكون كافية للعديد من القصائد داخل النثر.

الآن بدا لي الأمر مؤلماً بشكل خاص، لأنني طوال حياتي، مثل كثيرين غيري، لم أسمح لنفسي بالعيش بناءً على ما يطلبه قلبي، لكنني كنت مشغولًا فقط بالأمور المستعجَلة والإلزامية. يجب ألا نكتفي بتأمل الألوان والضوء في الطبيعة، بقدر ما، ببساطة، أن نعيشها. المادة التي تصلح للفن هي التي تحتل مكاناً راسخاً في القلب.

الرسم مهم لكاتب النثر ليس لأنه يساعده على أن يحب الألوان والضوء فقط. الرسم مهم أيضاً لأن الرسام غالباً ما يلاحظ ما لا نراه أبداً. نحن نبدأ بعد لوحاته فقط برؤية هذا وننده‌ش من كوننا لم نلاحظ هذا من قبل.

سافر الرسام الفرنسي مونيه إلى لندن ورسم لوحة دير ويستمينستر. عمل مونيه وسط يوم لندني ضبابي عادي. في لوحة مونيه، بالكاد تبرز الخطوط العريضة للدير القوطي وسط الضباب. اللوحة مرسومة ببراعة.

عندما عُرضت اللوحة أثارت امتعاض جمهور اللندنيين. صعقهم أن الضباب عند مونيه كان قرمزي اللون، في حين أنه من المعروف للجميع أن لون الضباب رمادي. أثارت وقاحة مونيه السخط في البداية. لكن الساخطين الذين خرجوا إلى شوارع لندن، حدقوا في الضباب، ولأول مرة لاحظوا أنه كان قرمزيًا حقًا. شرعوا على الفور في البحث عن تفسير لهذا. واتفقوا على أن درجة اللون الحمراء للضباب تعتمد على كثرة الدخان. بالإضافة إلى ذلك، تضفي منازل لندن المبنية من الطوب الأحمر هذا اللون على الضباب.

لكن، مهما يكن، فقد انتصر مونيه. بدأ الناس بعد لوحته يرون ضباب لندن تماماً كما رآه الرسام. حتى إنهم أطلقوا على مونيه تسمية «خالق ضباب لندن».

إذا لجأت إلى أمثلة من حياتي الخاصة، فسأقول إنني للمرة الأولى رأيت كل الألوان المتنوعة لسوء الطقس الروسي بعد لوحة ليفيتان «فوق السلام الأبدي». وحتى الآن، يبدو لون الطقس السيئ في نظري لوناً وحيداً كئيباً.

ما يبعث على الكآبة في الطقس السيئ، كما كنت أفكر، هو بالذات أنه يبتلع الألوان ويغطي الأرض بالطين. لكن ليفيتان رأى في هذه الكآبة درجة معيّنة من العظمة، وحتى الاحتفالية، ووجد فيها العديد من الألوان النقية. منذ ذلك الحين، لم يعد الطقس السيئ يؤرقني. بالعكس، حتى إنني أحببته بسبب نقاء الهواء، والبرد، عندما يحمرّ الخدان، وتتموج الأنهار بلون القصدير، وحركة السحب الثقيلة. أخيراً، الحقيقة أنه أثناء الطقس السيئ تبدأ في تقدير أبسط النعم الأرضية – كوخ دافئ، نار في موقد روسي، غليان الماء في السماور، القش الجاف على الأرض، المرتّب على شكل طبقات صلبة من أجل النوم، ضوضاء المطر الهادئة على السطح وقيلولة لذيذة.

كل رسام، تقريباً، مهما كان الزمن أو المدرسة التي ينتمي إليها، يكشف لنا صفات جديدة للواقع.

أسعفني الحظ عدة مرات بأن أكون في صالة عرض في دريزدين. بالإضافة إلى لوحة رافائيل «العذراء المقدسة»، هناك العديد من لوحات الأساتذة القدامى، التي، ببساطة، من الخطر التوقف أمامها. فهي لا تدعك تبتعد عنها بسهولة. يمكنك أن تنظر إليها لساعات، وربما لأيام، وكلما نظرت فترة أطول، تنامى فيك شعور غير مفهوم بالانفعال الذي يصل إلى درجة يصعب فيها على المرء السيطرة على دموعه.

ما هو سبب هذه الدموع التي لم تنهمر؟ يكمن السبب في حقيقة أن هذه اللوحات تحتوي على كمال الروح وقوة العبقرية، ما يجعلنا نسعى جاهدين نحو نقاء أفكارنا وقوتها ونبلها.

عند التأمل في الجمال ينشأ القلق الذي يسبق تنقيتنا الداخلية. كما لو

أن كل نضارة الأمطار والرياح وتنفس الأرض المزهرة وسماء منتصف الليل والدموع التي أريقت بسبب الحب، تخترق قلبنا الممتن وتستحوذ عليه إلى الأبد. كما لو أن الانطباعيين سكبوا على قماش لوحاتهم ضوء الشمس. كانوا يرسمون تحت السماء المكشوفة، وربما، أحياناً، تقصّدوا تقوية الألـوان. أدى ذلك إلى أن تظهر الأرض في لوحاتهم بنوع من الإضاءة المبهجة. أصبح مظهر الأرض احتفالياً. لا يوجد أي إثم في هذا، تماماً كما لا يوجد أي إثم في أي شيء، على الأقل مما يضيف القليل من الفرح للإنسان.

الانطباعية ملك لنا، مثل كل تراث الماضي الغني. التخلي عنها يعني أن تقيّد نفسك بوعي. بعد كل شيء، نحن لا نتخلى عن «العذراء المقدسة» لرافائيل، على الرغم من أن هذه اللوحة الرائعة تتعلق بموضوع ديني. لماذا يُعتبر المبتكرون بيكاسو، أو الانطباعيون ماتيس أو فان غوغ أو غوغان خطرين علينا؟ غوغان، الرجل الذي، بالمناسبة، دخل في صراع مع السلطات الاستعمارية الفرنسية من أجل استقلال التاهيتيين

سافرت إلى لينينغراد بعد لقائي مع الرسام. تكشفت أمامي من جديد مجموعة حدائقها المرتبة ومبانيها المتناسقة. تأملتها زمناً طويلاً محاولاً اكتشاف سر هندستها المعمارية. يكمن السر في أن هذه المباني توحي بالعظَمة، وهي عظيمة حقاً. كان اكتشاف السر سهلاً. استندت عظمة المباني إلى تناسقها، إلى التجانس بين أجزائها وإلى العدد القليل من الزخارف – إطارات النوافذ والرسوم والنقوش البارزة. تدرك وأنت تتأمل هذه المباني أن الذوق الرفيع – هو قبل كل شيء الإحساس بالتناسب.

أنا واثق من أن قوانين التناسب هذه، والبساطة، التي يمكن أن تُرى بها الأشياء، حيث يكون كل خط مرئياً ويمنح متعة حقيقية – كل هذا له علاقة بالنثر. لن يسمح الكاتب الذي وقع في حب كمال الأشكال المعمارية الكلاسيكية بأن يكون نثره ذا تكوين ثقيل ومربك. وسيسعى إلى تناسب الأجزاء وتناسق الرسم بالكلمات. وسيتجنب الكثير من التنميق الذي يثقل على النثر – ما يسمى بأسلوب التنميق.

يجب أن يصل تكوين المادة النثرية إلى وضع لا يمكن فيه حذف أو إضافة أي شيء دون خرق فكرة السرد ومنطقية سير الأحداث.

كعادتي في لينينغراد كنت أقضي الكثير من الوقت في المتحف الروسي الأرميتاج. بدت لي قاعات الأرميتاج بعتمتها الخفيفة ولمعان الذهب مكاناً مقدساً. دخلت إلى الأرميتاج كما لو إلى مستودع للعبقرية البشرية. في زيارتي الأولى للأرميتاج، وكنت شاباً آنذاك، شعرت بسعادة أن أكون إنساناً. أدركت كم يمكن أن يكون الإنسان عظيماً وجيداً.

في المرّة الأولى التي تجولت فيها بين موكب الفنانين الرائع، كان رأسي يدور من وفرة وكثافة الألوان، ولكي أستريح، ذهبت إلى القاعة حيث تعرض المنحوتات.

جلست هناك مدة طويلة. وكلما نظرت إلى تماثيل النحاتين الهيلينيين المجهولين أو إلى نساء كانوفا المبتسمات بطريقة بالكاد ملحوظة، فهمت بشكل أكثر وضوحاً أن هذا التمثال بأكمله هو دعوة للجمال في حد ذاته، وأنه يبشّر بأنقى فجر للبشرية. عندها سيبسط الشعر سلطته على القلوب وعلى النظام الاجتماعي – فإن هذا النظام الذي نسعى نحوه خلال سنوات من العمل والمشاغل والضغط النفسي – سيتأسس على جمال العدل وجمال العقل والقلب والعلاقات الإنسانية والجسد الإنساني.

ليس عبثاً أن الشاعر هينريتش هاينه[1]، كان يدخل إلى متحف اللوفر، ويقف لساعات أمام تمثال فينيرا[2]، ويبكي.

على ماذا؟ على الكمال الإنساني المهدور. وعلى أن الطريق إلى الكمال صعب وبعيد، وبالنسبه له، هاينه، بالطبع، لن يصل إلى الأرض الموعودة، إلى حيث دعاه قلبه القلق طوال حياته. هذه هي قوة النحت، تلك القوة التي من دون نارها الداخلية لا يمكن تصور الفن المتقدم، خاصة فن بلادنا. وبالتالي، فإنه لا معنى للنثر الكامل القيمة.

أود، قبل أن أنتقل إلى تأثير الشعر في النثر، أن أقول بضع كلمات عن

---

1- شاعر ألماني من القرن التاسع عشر يعتبر من أهم الشعراء الرومانسيين – المترجم

2- تمثال لامرأة يعتبر نموذجاً للنحت الكلاسيكي – المترجم

الموسيقى، خاصة أنه لا يمكن فصل الشعر عن الموسيقى. سأضطر لحصر هذا الحديث عن الموسيقى فقط بما نسميه الإيقاع وموسيقية النثر.

للنثر الحقيقي دائماً إيقاعه الخاص. يتطلب إيقاع النثر، قبل كل شيء، ترتيب الكلمات بحيث يستقبلها القارئ من دون تشويش، كلها دفعة واحدة. ذكر تشيخوف هذا لغوركي عندما كتب له «أنه في وعي القارئ يجب أن يستقر الخيال الأدبي فوراً، خلال ثانية».

يجب ألا يتوقف القارئ أثناء قراءة الكتاب كي يعيد إنشاء حركة الكلمات الصحيحة، المتجانسة مع مقطع النثر هذا أو ذاك. عموماً، على الكاتب أن يبقي القارئ في تشوق دائم، أن يقوده وراءه، وألا يسمح بوجود مقاطع غير واضحة أو مشتتة، كي لا يخاطر القارئ ويتوه في هذه المقاطع، ويخرج بالتالي عن سيطرة الكاتب.

تكمن وظيفة الكاتب وفاعلية النثر في هذا التشويق، في السيطرة على القارئ، في إجباره على أن يفكر ويشعر بالتوازي مع المؤلف.

أعتقد أنه لا يمكن التوصل إلى إيقاعية النثر بوسائل مصطنعة. يعتمد إيقاع النثر على الموهبة، على الإحساس باللغة، على «سَمَع الكاتب» الجيد. يتطابق هذا السمع الجيد إلى حد ما مع السمع الموسيقي.

لكن معرفة الشعر هي أكثر ما يثري لغة كاتب النثر.

يتمتع الشعر بخاصية واحدة مدهشة. إنه يعيد الكلمة إلى نضارتها الأصلية العذراء. إن أكثر الكلمات المستهلكة التي «أشبعناها» استخداماً، والتي فقدت بالفعل صفاتها التصويرية بالنسبة لنا، والتي تعيش فقطْ كصدفَة لفظية، تبدأ في التألق والرنين فقط في الشعر!

لا أعرف كيف يمكن تفسير هذا. أفترض أن الكلمة تستعيد حياتها في حالتين.

أولاً، عندما يعيدون لها قوتها اللفظية (الصوتية). وعمل هذا أسهل في الشعر الغنائي مما في النثر. لهذا تؤثر الكلمات فينا من خلال الشعر والرواية بطريقة أقوى مما في الحديث العادي.

ثانياً، حتى الكلمة المستهلكة، الموضوعة في الأبيات في تتابع موسيقي

لحني، تبدو مشبعة باللحن العام للقصيدة وتبدأ في التناغم مع جميع الكلمات الأخرى.

وأخيراً، الشعر غني بالجناس. هذه واحدة من صفاته الثمينة. للنثر أيضاً الحق في الجناس.

ليس هذا هو المهم.

المهم هو أنه عندما يصل النثر إلى الكمال، يصبح، في جوهره، شعراً حقيقياً.

اعتبر تشيخوف أن «تامان» ليرمونتوف و«ابنة القبطان» بوشكين تبرهنان على القرابة بين النثر والشعر الروسي الخالص.

«أين هي الحدود بين النثر والشعر، – كتب ليف تولستوي، لن أفهم أبداً». ويسأل بحرارة نادرة بالنسبة له في مؤلفه «ذكريات الصبا»:

لماذا يرتبط الشعر ارتباطًا وثيقًا بالنثر والسعادة بالتعاسة؟ كيف يتعايشان؟ هل نحاول فجأة الجمع بين الشعر والنثر، أو الاستمتاع بشيء ثم نبدأ العيش تحت رحمة آخر؟ وفي الحلم جانب أفضل من الواقع. وفي الواقع هناك بالفعل جانب أفضل من الحلم. السعادة الكاملة ستكون مزيجاً من الاثنين.

تتضمن هذه الكلمات التي قيلت على عجل فكرة صائبة:

إن السعادة الحقيقية، وهي أعلى ظاهرة مسيطرة في الأدب، يمكن أن تكون فقط اندماجاً عضوياً بين الشعر والنثر، أو بدقة أكثر، نثراً مليئاً بجوهر الشعر، وعصائره الواهبة للحياة، والهواء الأكثر شفافية، وقوته الآسرة.

أنا لا أخاف في هذه الحالة من تعبير «آسر» (بكلمات أخرى – الذي يأسر). لأن الشعر يأسر. يأسر بطريقة غير ملحوظة، لكنه بقوة غير محدودة يسمو بالإنسان، ويقرّبه من تلك الحالة التي يصبح فيها فعلاً زينة للأرض.

كان فلاديمير أودوفسكي محقاً جزئياً عندما قال إن «الشعر هو نذير بالحالة الإنسانية عندما تتوقف عن الإنجاز وتبدأ في استخدام ما تم إنجازه».

# كتاب مفكّر فيه من زمن

قررت منذ زمن بعيد، منذ أكثر من عشرة أعوام خلت، أن أكتب، كما فكرّت آنذاك، وكما أفكر الآن، كتاباً صعباً وممتعاً. كان من المفترض أن يتألف الكتاب من سير ذاتية لأشخاص رائعين. كان من المفترض أن تكون السير الذاتية قصيرة ورائعة، حتى إنني بدأت في إعداد قائمة بأشخاص رائعين لهذا الكتاب. قررت أن أضمّن هذا الكتاب لوحات حية عن أشخاص عاديين، سبق لي أن التقيت بهم – أشخاص غير معروفين، منسيين، لكنهم لا يقلون أهمية، في جوهرهم، عن الذين أصبحوا مشهورين ويشار إليهم بالبنان. فهم، ببساطة، لم يكونوا محظوظين، ولم يستطيعوا أن يتركوا خلفهم في ذاكرة الأحفاد، ولو أثراً ضعيفاً. وكانوا في معظم الأحيان من غير المرتزقة ومن الزاهدين، الذين تسيطر عليهم عاطفة متواضعة ما.

أحدهم كان القبطان النهري أولينين فولغار – إنسان حياته أسطورية فعلاً. نشأ في أسرة من الموسيقيين ودرس الغناء في إيطاليا. لكنه أراد أن يقطع أوروبا كلها سيراً على الأقدام، فترك الدراسة، وفعلاً سار عبر إيطاليا، أسبانيا وفرنسا بصفة مغني شوارع. كان يغني في كل بلد بمرافقة الغيتار أغاني بلغته الأم.

تعرّفت على أولينين فولغار في هيئة تحرير إحدى الصحف الموسكوفية. في أحد الأيام، بعد العمل، طلبنا من أولينين فولغار أن يغني لنا بعض الأغاني من مجموعة أغاني الشارع. أحضرنا غيتاراً من مكان ما، وفجأة تحوّل هذا العجوز الذي يرتدي ملابس القبطان النهري، إلى موهبة فنية، إلى ممثل ومغنٍ، كان صوته شاباً تماماً.

تابعنا ونحن متجمدون كيف انطلقت الأغاني الشعبية الإيطالية، كيف صدحت أغاني الباسك، كيف أبهجتنا موسيقى نشيد المارسيليز الخارجة من البوق والدخان.[1]

عمل أولينين فولغار بعد جولته في أوروبا بحاراً في السفن، نجح في اختبار القبطان في السفن التي تبحر إلى مسافات بعيدة. عبر البحر المتوسط عدة مرات جيئة وذهاباً، ثم عاد إلى روسيا وعمل قبطاناً في نهر الفولغا. في الوقت الذي تعرفت فيه عليه كان يقود سفينة ركّاب من موسكو إلى نوفوغورد السفلى. لقد كان أول من خاطر، على مسؤوليته، بتمرير باخرة الركاب الكبيرة من فولغا عبر معابر موسكو المائية الضيقة والمتداعية. أكّد جميع القباطنة والمهندسين أن هذا مستحيل. لقد كان أول من اقترح تعديل مجرى نهر موسكو في منطقة مارشوج الشهيرة، حيث كان النهر متعرجًا لدرجة أنه حتى أن نظرة واحدة على خريطة إلى المنعطفات التي لا تعد ولا تحصى يمكن أن تجعل رأسك تدور.

كتب أولينين فولغار العديد من المقالات الرائعة حول الأنهر الروسية. هذه المقالات الآن مفقودة ومنسية. كان يعرف كل الدوامات والتفرعات والمنعطفات على عشرات الأنهار. كان لديه خططه الخاصة البسيطة وغير المتوقعة لتحسين الملاحة في هذه الأنهار. كان يترجم في أوقات فراغه «الكوميديا الإلهية» لدانتي إلى اللغة الروسية. كان إنساناً جاداً، طيباً وهادئاً، يعتبر أن جميع المهن محترمة لأنها تخدم مصلحة الشعب وتعطي الفرصة لكل واحد كي يُظهر نفسه باعتباره «إنساناً جيداً يعيش على هذه الأرض الطيبة».

وكان أحد معارفي إنساناً بسيطاً ولطيفاً – هو مدير متحف التاريخ المحلي في بلدة صغيرة من روسيا الوسطى. يقع المتحف في منزل قديم. لم يكن ثمة مساعد للمدير باستثناء زوجته. قاما معاً ليس بتنظيم المتحف فقط، بل كانا يقومان بعمليات إصلاح المنزل بأنفسهما، يجهزان الحطب وينفذان كل الأعمال الوضيعة.

---

1- (إشارة إلى الثورة الفرنسية – المترجم)

فاجأتهما في أحد الأيام وهما منشغلان بأمر غريب. سارا على طول الشارع بالقرب من المتحف – وهو شارع هادئ ممتلئ بالنمل – والتقطا كل الحجارة والطوب المكسور المتناثرة فيه. تبيّن أن الأولاد ألقوا حجراً على نافذة المتحف. حتى لا يتمكن الأولاد في المستقبل من إلقاء الحجارة، قرر المدير جمع كل الحجارة من الشارع ووضعها إلى الفناء.

تمت دراسة ووصف كل عنصر في المتحف بعناية – من الدانتيل العتيق أو الطوب المسطح النادر من القرن الرابع عشر إلى عينات الجفت وفأر الماء الأرجنتيني – وهو نوع تم إطلاقه مؤخراً للتكاثر في المستنقعات المحيطة. لكن هذا الإنسان المتواضع، الذي يتحدث بصوت خفيض، ويسعل خجلاً، كان يمتلئ بهجة عندما يعرض لوحة الفنان بيريليتشكوف التي وجدها في دير مهجور.

حقاً، كانت اللوحة عبارة عن منظر طبيعي مدهش يُرى من خلال فتحة النافذة، في مساء شمالي أبيض تبدو فيه أشجار البتولا الناعسة، ومياه بحيرة صغيرة تلمع مثل القصدير.

كان عمل هذا الرجل صعباً. ودخله منه قليل. كان يعمل بصمت ولا يزعج أحداً. ولكن حتى لو لم يجلب متحفه الكثير من الفوائد، ألن يكون وجود مثل هذا الشخص في حد ذاته بالنسبة للسكان المحليين، وخاصة الشباب، مثالاً على التفاني والتواضع والحب لمنطقتهم؟

عثرت منذ فترة على قائمة بالأشخاص الرائعين، التي سجلتها من أجل هذا الكتاب. إنها طويلة جداً. لا حاجة لأن أذكرها كلها. سأختار منها عشوائياً أسماء بعض الكتّاب.

كتبت بعض الملاحظات القصيرة بجانب كل اسم، حول تلك المشاعر التي ارتبطت بهذا الكاتب أو ذاك. أورد هنا بعض هذه الملاحظات بعد أن وسّعتها قليلاً ورتبتها.

# تشيخوف

لدى الكثير منا عادة سيئة تتمثل في كتابة أفكارنا وانطباعاتنا وأرقام هواتفنا على علب السجائر بكلمتين أو ثلاث. ثم، كقاعدة عامة، تضيع هذه العلب، ومعها تختفي من الذاكرة أيام كاملة من حياتنا. يوم واحد في الحياة – ليس أمراً بهذه البساطة وليس زمناً قليلاً، كما قد يتصور البعض. حاولوا أن تتذكروا يومكم دقيقة فدقيقة: كل اللقاءات، الأحاديث، الأفكار، التصرفات، كل الأحداث والأوضاع النفسية، المتعلقة بكم أو بغيركم، – وستقتنعون بأن إعادة إحياء كل تيار الزمن هذا ممكن فقط بكتابة كتاب كامل، أو كتابين، او حتى ثلاثة كتب!

اقترح علينا كاتب سيرة تشيخوف، أ. ي. روسكين، عندما كنا مجتمعين في الشتاء في مقر كتّاب يالتا، أن ننشغل، كما قال مازحاً، بهذا «العمل البسيط».

لاقت فكرة روسكين الترحيب منّا. شرع كل واحد منّا في تأليف «كتاب اليوم الواحد»، لكن سرعان ما تخلى الجميع عن هذا العمل. اتضح أن هذا «العمل البسيط» هو أكثر صعوبة، وحتى ليس بمقدور الكتّاب الأكثر مهارة والأكثر خبرة. فهو يتطلب شحذاً متواصلاً للذاكرة، ويستغرق الكثير من الوقت، بغض النظر عن أن الكاتب خلال ذلك لا يُشغل ذهنه بمسائل الموضوع والحبكة والتكوين، فالحياة نفسها هي التي تقترح علينا كل هذا.

أنا أيضاً كانت لي عادة أن أكتب أفكاري على كل ما تقع يدي عليه، وخاصة على علب الدخّان. وكنت أحسب دائماً أنني سأحتفظ بها، لكني كنت أفقدها على الفور.

بررت إهمالي لهذه الملاحظات لكوني استمعت إلى إدوارد باغريتسكي

وهو يقرأ أبياتاً من شعره وهي مكتوبة على علبة دخّان ممزقة. لكن مع ذلك بقيت لدي بعض العلب سالمة. إحدى هذا العلب تتعلق بتشيخوف ومنزل تشيخوف في يالتا.

سأحاول فك شيفرة هذه الملاحظات القصيرة شبه الممحية التي حُفظت بواسطة هذه العلبة.

وعدت إحدى الصحف بأن أكتب مقالة عن تشيخوف. لكني اقتنعت، بمجرد ما إن بدأت كتابتها، أن الكتابة عن تشيخوف الآن ضمن هذا النوع الذي حددوه لي بكلمة واحدة «مقالة» أمر صعب، وربما، تقريباً مستحيلة. يبدو أن كل كلمات اللغة الروسية التي يمكن كتابتها عن تشيخوف صارت مستهلكة. لقد تجاوز حب تشيخوف ثروتنا اللغوية. هو، مثل كل حب عظيم، سرعان ما استنفد أفضل تعابيرنا. هناك خطر التكرار والمقاطع العامة.

كما لو أن كل شيء قد قيل عن تشيخوف. لكن حتى الآن قيل القليل عما أورثنا إياه تشيخوف من شخصيات، وكيف أن وجود تشيخوف حدد اليوم حياة أولئك الذين هو عزيز عليهم.

تقريباً، لم يُقل شيء عن «إحساس تشيخوف» - الإنسان الحي دائماً والعزيز على قلوبنا، عن الإحساس القوي والممتنّ.

وهكذا قررت ألا أكتب المقالة، وأن أعود إلى ملاحظاتي على علبه الدخّان. إذ قد ينسلّ من هناك «إحساس تشيخوف» ذاك الذي لا أستطيع أن أحدده بدقة.

هذه الملاحظات، كما ذكرت سابقاً، قصيرة جداً. على سبيل المثال: «عام 1950. أنا وحدي في البيت. الكلب الأشعث ينبح في الأسفل. حسب التقاليد، سمّوه «كاشتانكا»[1].

حصلت الذاكرة على دفعة خفيفة وبدأت تستعيد الماضي.

كان هذا في خريف عام 1950. ذهبت لزيارة ماريا بافلوفنا[2] في بيت

---

1- كاشتانكا، عنوان قصة لتشيخوف من عدة فصول بطلها كلب - المترجم

2- (مدبّرة بيت تشيخوف في حياته - المترجم)

تشيخوف في يالتا. لم تكن هناك لأنها ذهبت لزيارة إحدى الجارات، فجلست أنتظرها في البيت. قادتني العجوز العاملة في المنزل إلى الشرفة.

كان ذلك في خريف يالتا الخادع والمدهش، عندما كان من المستحيل فهم ما إذا كان الربيع يتفتح أو أن الخريف الشفاف يزهر. خلف الدرابزين، شجيرة من بعض أنواع الزهور تحترق في الشمس بكل بياضها البكر.

فاحت رائحة الزهور بالفعل من كل هبة نسيم، أو بالأحرى نسمة هواء. كنت أعلم أن أنطون بافلوفيتش قد زرع هذه الشجيرة، وكنت أخشى أن ألمسها، على الرغم من أنني أردت أن أختار حتى أتفه غصن كتذكار. أخيراً، عزمت أمري ومددت يدي وقطفته. في الأسفل، من البستان، حدّق بي كلب أشعث اسمه كاشتانكا. كان ينبش الأرض بقدميه الخلفيتين ويعوي بالطريقة ذاتها التي وصفها تشيخوف:

– هر. هر. عو. عو![1].

ضحكت رغماً عني. جلس الكلب وأرخى أذنيه وبدأ يصغي. أضاءت الشمس عينيه الصفراوين المسالمتين. كان الجو هادئاً ودافئاً. ارتفع بخار حرارة الشمس الأزرق نحو السماء من جهة البحر مثل ستارة عريضة. وخلف هذه الستارة ظهرت سفينة تتقدم شيئاً فشيئاً بشجاعة وثقة.

سمعت صوت ماريا بافلوفنا في الغرفة، وفجأة انقبضت نفسي بقوة، بحيث تمكنت بصعوبة من كبح دموعي. ما السبب؟ لأن تلك الحياة لا رحمة فيها، ولأن بعض الأشخاص، على الأقل، الذين لا يمكننا تقريباً العيش بدونهم، يجب أن يُمنحوا، إن لم يكن الخلود، فحياة طويلة، حتى نشعر دائماً بيدهم الخفيفة على كتفنا.

حاولت فوراً أن أطرد هذه الأفكار، لكن الحزن لم يتلاشَ. يقول العقل شيئاً، ويقول القلب شيئاً آخر.

شعرت في هذه اللحظة أنني على استعداد لأعطي نصف عمري كي أسمع من خلف الباب الخطوات الهادئة وسعال صاحب البيت الذي غادره

---

1- يهرّ ويعوي

منذ زمن سحيق. منذ زمن سحيق! مرّ ستة وأربعون عاماً على موته. بدت لي هذه المدّة ضئيلة وفي نفس الوقت ضخمة لا تطاق. تساقطت الزهور خلف الدرابزين بهدوء. راقبت رفرفة البتلات الأخف وزناً، وخشيت أن تدخل ماريا بافلوفنا في وقت مبكر وتلاحظ توتري، وهدّأت نفسي بأفكار متعمدة بأنّ في كل فرع من هذه الشجيرة شيئاً أبدياً، حركة مستمرة من السوائل تحت اللحاء – ثابتة، كحركة النجوم في الليل فوق البحر الهادر بهدوء.

جاءت ماريا بافلوفنا، تحدثت عن ليفيتان[1]، أخبرتني أنها كانت مغرمة به، واحمرّ وجهها من الخجل، مثل صبية.

دون أن أعرف السبب، لكن بعد الاستماع إلى ماريا بافلوفنا، قلت:

لكل شخص، حتماً، قصته الشبيهة بـ «السيدة صاحبة الكلب»[2]. إن لم تكن، فحتماً ستكون.

ابتسمت ماريا بافلوفنا بتواضع ولم تجب بشيء.

زرت بيت تشيخوف بعد ذلك عدّة مرّات في أوقات مختلفة من العام. نادراً ما كنت أدخل إلى البيت. في الغالب كنت أتكئ على السياج، أقف بعض الوقت ثم أغادر.

كان هذا المنزل جذاباً بشكل خاص في فصل الشتاء. يعلو الظلام الخفيف فوق البحر. كانت الأضواء الجانبية للباخرة تُرى بشكل خافت وسط البحر، وقد عرفت من قصص البحارة، أنه من أعلى السارية يمكن للمرء أحياناً أن يرى بواسطة منظار نافذة مكتب تشيخوف مضاءة بمصباح ذي غطاء أخضر. من الغريب أن نفكّر بأن ضوء هذا المصباح وصل إلى أطراف البلاد.

اخترت أيضاً ملاحظة أخرى: «شتاء في يالتا، ثلج في يايلا، انعكس ضوؤه فوق أوتكا». أجل، تراكمت أكوام الثلج الثلج الخفيف في يايلا. لمع تحت ضوء القمر. خيّم سكون الليل على الجبال في يالتا.

شاهد تشيخوف كل هذا مثلنا، عرف كل شيء. حسب كلام ماريا، كان

---

1- رسام روسي تميز برسم الطبيعة – المترجم.

2- قصة لتشيخوف – المترجم.

أحياناً يطفئ المصباح ويجلس وحيداً فترة طويلة في العتمة، يتأمل من خلال النافذة كيف يستقر الثلج بهدوء.

كان يخرج إلى البستان أحياناً، لكن سراً، كي لا يوقظ أو يخيف والدته وشقيقته. كان يضنيه الأرق، وكان يسير وحيداً لفترة طويلة في العتمة، كما لو أنه منسي من الجميع، على الرغم من أن صيته قد ذاع في أرجاء العالم كله. لكن هذه الليالي لم تكن تزعجه.

بجانبي كان يتوهج البيت الذي أصبح مضافة للأدب الروسي. همدت فيه منذ زمن أصوات كوبرين، غوركي، مامينا سيبيرياكا، ستانسلافسكي، بونين، رخمانينوف، كورولينكو، غير أنه لا توجد تقريباً في كتب السيرة الضخمة عن تشيخوف أية إشارة إلى أنه بكى في يوم من الأيام.

ومع ذلك، فقد شاهد الكاتب تيخونوف هذه الدموع، عندما سافر تشيخوف، قبل وقت قصير من موته، إلى الأورال برفقة سافا موروزوف. كانت هذه دموعاً ليلية لشخص وحيد، مهجور ومحتضر، مخفية عن الجميع. أخفى تشيخوف دموعه وآلامه بسبب لطفه، بسبب شجاعته الهائلة ونبله – حتى لا ينغّص على حياة أحبائه، حتى لا يتسبب حتى بظلال من المتاعب لمن حوله.

اخترت ملاحظة أخرى: «روسيا ينقصها شيء دائماً» – وتذكرت على الفور الأمسية عندما وقفت أنا والشاعر لوغوفسكي في مكتب تشيخوف أمام المدفأة وتأملنا «أكوام القش» في لوحة ليفيتان.

الشفق الرمادي والقمر الشاحب فوق المستنقعات المغطاة بالضباب، الزعيق المزعج، مساحات الغابات الشاسعة التي امتدت هذه الليلة ومئات الليالي الأخرى بلا جدوى. لأنه لم يرَ أحد أوراق الشجر الرطبة والمتألقة من البتولا أو سمِع حفيفها الغامض.

كانت الغابات صحراء مهجورة. عبثاً يسعى الليل المتوحد المهيمن على الغابات للوصول إلى الفجر البعيد. وكان تشيخوف يتألم في أعماق قلبه لأنه أضاع الكثير من الوقت هنا، في القرم، دون أن يشاهد شيئاً، في حين كان يجب عليه قطعاً أن يكون هناك، في روسيا، في الشمال، لمتابعة انعكاسات

الليل في موطنه وهو جالس على السطح الخشبي للكوخ أو في برك البحيرات الساكنة. كان متحمساً للعودة إلى روسيا، يتعذب ويشعر بالمرارة لأنه لم يشاهد، بل خمّن فقط كل جمالها غير المكتشف والمسكوت عنه.

عذبه في هذا البيت المريح أسفه على هذه الحياة القصيرة جداً، التي هي، برأيه، غير مثمرة تقريباً، وأرخت جناحها السريع عليه بخفة. وليس هو وحده فقط، فتقريباً، كل إنسان وجد نفسه في هذا البيت، بدأ يفكر بمصيره، خاصةً إذا ما تأمل حياته وفقط الآن استعاد ذاته. من الواضح أن الانسجام في حياة تشيخوف ومضمونها أجبر الناس على التحقق من حياتهم الخاصة من خلال ذلك.

ذكرتني الملاحظة حول «سلسلة الصور الفوتوغرافية» بواحدة من الأماسي التي تمكنت فيها فوراً من الحصول بسرعة على العديد من صور تشيخوف. رتبت الصور حسب السنوات - ابتداء من سنوات المدرسة وصولاً إلى الصورة الأخيرة التي التقطت قبل موته.

لم يسبق لي أن رأيت أي شيء أكثر قدرة على أن يكون دليلاً مرشداً. كل طريق تشيخوف - بدءاً من الإنسان العادي المجنون والممازح الأجوف مع بعض النذالة إلى الإنسان ذي الجمال الداخلي المدهش والشجاعة الخيّرة الهادئة - إنه طريق واضح تماماً.

ثقّف نفسه بنفسه ولقننا درساً قاسياً فيما يتعلق باحترام العلاقة مع الناس، ومع عمله ككاتب. الملاحظتان الأخيرتان كانتا مختصرتين جداً، فقط كلمة واحدة. الملاحظة الأولى - «عبقري»، والثانية «الطيبة».

لا شيء غامضاً في هاتين الملاحظتين بالنسبة لي.

تشيخوف - كاتب عبقري. هذا غير مختلَف عليه. لكن، احتراماً لتواضعه الاستثنائي، لم يشر أي من الذين كتبوا عنه إلى هذا مباشرة. حتى إننا نخجل بعد موت تشيخوف من أن نكتب عن هذا خشية أن يغضب. تشيخوف نفسه حظَر هذه الكلمة.

كان تشيخوف متواضعاً، تواضع إنسان عظيم فعلاً. لم يكن يطيق التباهي والغطرسة والتفاخر. كتب أن أهم صفة يتميز بها الكاتب غير الموهوب تكمن

في أنه يتصرف بغطرسة وعنجهية، مثل رئيس الكهنة. التواضع – أحد أعظم صفات الشعب الروسي. الروس البسيطون الرائعون كلّهم متواضعون. لم يمارس الغرور أي أحد منهم، لم يسخر من غريبي الأطوار ولم يقدّم نفسه كنموذج يقتدون به. التواضع هو قوة ونقاء الشعب الأخلاقية، أما التفاحر فهو تفاهة وقلة العقل.

يمكنني أن أقول الكثير حول ملاحظتي «الطيبة». يمكن قول الكثير حول طيبة تشيخوف نفسه كإنسان، لكن الأهم من ذلك بكثير هو أن تشيخوف كان طيباً وإنسانياً بصفته كاتباً. ربما ليس هناك شخص آخر في أدبياتنا مثله يعامل الناس بنوايا حسنة، ويعاني من أجلهم ويسعى جاهداً لمساعدتهم. نعم، لقد كان لطيفاً، لكنه لا يرحم. كان يعرف كيف يكره، ولم يكن واعظاً غفوراً رقيق القلب. لكنه كان يعرف عمق الحزن الإنساني وهول مصائب البشر، يعرف ذلك، كطبيب وككاتب، وكان يطالب الناس بأن يكونوا رحيمين بعضهم مع بعض.

تأثير تشيخوف في هذا المجال كان وسيبقى عظيماً. إلى حد ما، كل نماذج السينما الإيطالية الطليعية، مثل «روما الساعة الحادية عشرة»، «سارقو الدراجة»، «الميكانيكي»، «شرطة ولصوص»، «أحلام على الطريق»، خرجت من إنسانية تشيخوف.

طيبة تشيخوف هذه، إنسانيته الصارمة، تفتقر إليهما بعض أعمالنا الأدبية. هذا يفقرها ويحرمها من إحدى أهم الصفات – قوة التأثير في روح القارئ.

هذا هو فك رموز الملاحظات التي عثرت عليها على علبة الدخّان القديمة الخاصة بي. تمكنت بفضلها من مشاركة أفكاري حول تشيخوف، الرجل الساحر والكاتب الرائع. يذكرنا وجوده بحد ذاته بإمكانية تحقيق السعادة الإنسانية الحقيقية، التي من أجلها نعمل ونكافح وننتصر.

# ألكسندر بلوك

لا توجد مهمة أصعب من التحدث عن رائحة مياه النهر أو صمت الحقول. وأثناء ذلك، التحدث بطريقة تجعل من تتحدث إليه يسمع هذه الرائحة ويشعر بصمت الحقول، وبكيف نوصل «الرنين البلوري» (على حد تعبير بلوك) لقصائد بوشكين التي تظهر في ذاكرتنا فجأة في ظل ظروف مختلفة.

في العالم مئات الظواهر المدهشة. وليس لدينا حتى الآن كلمات تصفها، ولا جمل تعبّر عنها. كلما كانت الظاهرة أكثر إدهاشاً، كانت أكثر روعة، تزداد صعوبة التحدث عنها بكلماتنا الميتة.

تمثّل حياة وقصائد ألكسندر بلوك إحدى هذه الظواهر الرائعة في واقعنا الروسي التي يصعب تفسيرها.

كلما مرّ المزيد من الزمن على موت بلوك التراجيدي، ازدادت صعوبة إدراك حقيقة وجود هذا الإنسان العبقري بيننا. ربطه الكثيرون منّا بأشخاص غير عاديين، بشعراء عصر النهضة، بأبطال الأساطير المشتركة بين البشر. بالنسبة لي، بخاصة، بلوك هو من بين الأشخاص شبه الأسطوريين المفضلين لدي، أو حتى الأشخاص الأسطوريين، مثل أورلاند، بترارك، تريستان، ليوباردي، شيلي، أو ليرمونتوف الذي لمّا يزل غير مفهوم بعد – الصبي الذي تمكن خلال فترة حياته القصيرة أن يحكي عن حرارة الروح التي تبددت في الصحراء.

حلّ بلوك محل ليرمونتوف. كتب عنه كلمات دقيقة وحزينة: «في نوبات ضعفه – حنين لربيع غير مسبوق».

أعتبر كوني لم ألتق بلوك ولم أسمعه إحدى الخسائر الكبيرة في حياتي. لم أسمع بلوك، لا أعرف كيف كان يلقي قصائده، لكني أُصدّق الشاعر بياست الذي كتب بحثاً صغيراً عن هذا.

كانت نبرة صوت بلوك مكتومة، نائية، هادئة ومتشابهة. وقد وصل صوته إلى معاصريه، مثل صوت قادم من بعيد. كان بداخله شيء سحري، ثابت، مثل طنين الوتر الذي لم يهدأ لفترة طويلة.

بلوك، هذا الذي أتحدث عنه، وجوده راسخ في وعيي وفي حياتي، ولن أستطيع أبداً أن أفكر به بطريقة أخرى. أمضيت عدة ليال معه وسط الصمت، وغالباً ما كان قلبي يتفطر بعد كل بيت أقرأه وأترنم به. «هذا الصوت – لك، سأكرّس حياتي وحزني لوقعه الغامض».

هكذا دخل في حياتي حتى منذ سنوات الصبا الصعبة البعيدة، هكذا بقي بالنسبة لي حتى الآن، عندما، وفق كلمات يسينين، «آن الأوان للملمة أشلاء الحياة من الطريق».

أبداً لن تكون قصائد بلوك من «أشلاء الحياة». لأنها لا تخضع لقانون الاضمحلال، قانون الرماد، وستبقى تحيا طالما يحيا الإنسان على وجه الأرض وطالما لا تختفي «إحدى معجزات الله»، – الكلمة الروسية الحرّة.

أجل، أنا أتأسف على أني لم أعرف بلوك. فهو قد قال: «يأتي إدراك أن المعجزة كانت قريبة منّا بعد فوات الأوان».

الحياة المنتهية لا تستعاد. لن نستطيع أن نحيي بلوك الإنسان ولن نراه أبداً في حياتنا اليومية. غير أنّ في العالم ظاهرة، مساوية للمعجزة، ظاهرة تتجاهل قوانين الطبيعة القاسية في كثير من الأحيان، وبالتالي فهي مطمئنة. هذه الظاهرة هي الفن. يستطيع الفن أن يخلق كل شيء في وعينا وأن يحيي أي شيء! أعد قراءة «الحرب والسلام»، وأنا أضمن أنك ستسمع بوضوح خلف ظهرك ضحك ناتاشا روستوفا المختبئة وستقع في حبها كشخص حي حقيقي.

أنا متأكد من أن حب بلوك والحنين إلى بلوك عظيمان للغاية لدرجة أنه سيظهر عاجلاً أم آجلاً في قصيدة أو قصة ما، حياً تماماً ومعقداً وآسراً، يختبر

معجزة ولادته الثانية. أنا أؤمن بهذا لأن البلاد لا تفتقر إلى المواهب، وتعقيد الروح الإنسانية لم يتحول بعد إلى صفة عامة.

اعذروني، لكني مضطر هنا أن أقول بعض الكلمات عن شخصي.

بدأت بكتابة قصة طويلة عن سيرتي الذاتية، ووصلت في كتابتها إلى منتصف عمري. إنها ليست ذكريات، بل تحديداً، قصة طويلة، يكون فيها المؤلف حراً في تجاهل أحداث حقيقية. لكن مع الحفاظ على الأحداث الرئيسية بهذا القدر أو ذاك. أكتب في روايتي القصيرة لسيرتي الذاتية عن حياتي وكيف كانت في الواقع. ولكن يجب أن تكون ثمة حياة ثانية لكل إنسان، سيرة ذاتية ثانية. وهي لم تخرج إلى الحياة الفعلية، ولم تحدث. إنها موجودة فقط في رغباتي وفي مخيلتي.

وأنا أريد أن أكتب عن هذه الحياة الثانية. أن أكتب عما قد تكون عليه حياتي لو أنني بنيتها بإرادتي، بغض النظر عن جميع المصادفات.

وهكذا أرغب في سيرتي الذاتية الثانية أن ألتقي عن قرب مع بلوك، وحتى أن أعقد صداقة معه، وأن أكتب عنه كل ما أفكر به، بكل الامتنان العظيم والحنان الذي أشعر به تجاهه. أرغب من خلال هذا أن أطيل حياة بلوك بداخلي.

يحق لكم أن تسألوني لماذا هذا ضروري.

هذا ضروري من أجل أن تكتمل حياتي بانسجام، ومن أجل إظهار قوة شعر بلوك من خلال مثال حياتي. أكرر لم أر بلوك. كنت في بيتروغراد في أواخر أيام حياته. لكنني الآن أحاول تعويض هذه الخسارة بشكل غير مباشر على الأقل.

ربما يبدو هذا ساذجاً إلى حد ما، لكني أبحث عن اللقاء مع كل ما ارتبط ببلوك، – مع الناس، مع الأوضاع، مع المناظر الطبيعية في بيتربورغ. فلم يتغير شيء تقريباً منذ موت الشاعر.

بدأت تؤرقني منذ فترة طويلة رغبة، غير مفهومة بالنسبة لي، في العثور على منزل في لينينغراد حيث عاش ومات بلوك، ولكن العثور عليه بكل الوسائل بمفردي، دون مساعدة من أحد، دون تفحص ودراسة خريطة لينينغراد.

وها أنا الآن إذ بتُ أعرف موقع نهر برياجكا (سكَن بلوك في شارع

الديكابريين القريب منه)، اتجهت نحو نهر برياجكا سيراً على الأقدام ولم أسأل أحداً عن الطريق. لماذا تصرفت هكذا، أنا نفسي لا أعرف. كنت واثقاً من أنني سأعثر على الطريق بحدسي، وأن قوة التزامي تجاه بلوك ستقودني من يدي في الطريق إلى بيته.

لم أتمكن في المرّة الأولى من الوصول إلى نهر برياجكا. فقد طافت مياه النهر وأُغلقت الجسور.

كنت أعرف أن بيت بلوك قريب من شاطئ البحر، ومن البديهي أنه أول من يتلقى لطمات العواصف القادمة من بحر البلطيق. وفقط في المرّة الثانية تمكنت من الوصول إلى البيت بجانب نهر برياجكا. لم أكن أسير وحدي. كانت معي ابنتي البالغة من العمر تسعة عشر عاماً، التي كانت تشتعل فرحاً وحزناً، فقط بسبب أننا نبحث عن بيت بلوك.

سرنا بمحاذاة النهر، ولسبب ما تذكرت الطريق كله بوضوح غير عادي.

كان ذلك في أحد أيام تشرين الأول، يوم ضبابي تتطاير فيه أوراق الشجر المتساقطة. في مثل هذه الأيام يبدو أن الضباب النادر الحدوث قد غطى الأرض منذ زمن طويل. يسقط منه رذاذ خفيف منعش على الصدر، وتغطي قطرات صغيرة منه حديد الشبابيك الزهرية اللون.

لبلوك تعبير يقول: «ظل أيام الخريف». هكذا إذن كان ذاك اليوم الممتلئ بهذه الظلال – معتماً وبارداً.

لمعان نوافذ الأبنية التي أصيبت بشظايا القذائف زمن الحصار يعمي البصر. فاحت رائحة الفحم الحجري – يبدو أنها جاءت من المرفأ. سرنا إلى النهر، ورأيت على الفور خلف المباني الحجرية المنخفضة البيت الكبير الوحيد – المبني من الطوب والعادي للغاية. كان هذا بيت بلوك.

– ها قد وصلنا، – قلت لرفيقتي.

توقفتْ. لمعت عيناها من الفرح، لكن سرعان ما امتزج بريق الدموع ببهجة الفرح. حاولت أن تتماسك، لكن دموعها لم تستجب لها، واستمرت تنهمر بقطرات صغيرة من خلال رموشها. ثم ارتمت على كتفي وضغطت بوجهها على ذراعي كي تخفي دموعها.

فكرت في مدى سعادة الشاعر، الذي يعطيه الشباب حبه الأول – الخجول والممتن. الشباب يعترف بالشاعر الشاب. ذلك لأننا على الدوام سنظل نتخيل بلوك شاباً. هذه قسمة جميع الشعراء الذين عاشوا حياة تراجيدية أو كان موتهم تراجيدياً.

حتى في سنواته الأخيرة، قبل وفاته بفترة وجيزة، لم يعبّر بلوك عن قلقه الداخلي، وبقي غامضاً، لكنه احتفظ بالسمات الخارجية للشباب.

هنا من الضروري أن نستطرد قليلاً.

من المعروف على نطاق واسع أن هناك كتاباً وشعراء يتمتعون بقوة إبداعية معدية. نثرهم وقصائدهم، التي دخلت وعيك، حتى بأصغر الجرعات، تثيرك، وتسبب فيضاً من الأفكار، ومجموعة من الصور، وتصيبك برغبة لا تقاوم لكتابة كل هذا على الورق.

من هذه الناحية، من المؤكد أن بلوك أثّر في العديد من الشعراء والكتّاب. أثّر، ليس من خلال قصائده فقط، بل من خلال ظروف حياته أيضاً. أورد هنا مثالاً، ربما قد لا يكون نموذجياً، لكنه الذي خطر على بالي.

للكاتب ألكسندر جرين رواية بعنوان «البرِمة» (أو قليلة الصبر)، كتبها قبل وفاته ولم تنشر بعد. تتطابق أوضاع وتفاصيل الرواية مع ما ذكره بلوك عن حياته في بريتاني (فرنسا)، في ميناء أبر فراك الصغير. تعرّف بلوك هناك للمرّة الأولى على حياة البحر. أثارت هذه الحياة لديه انبهاراً طفولياً. كل شيء كان مثيراً وأسطورياً.

يكتب بلوك عن والدته: «نحن نعيش محاطين بالإشارات البحرية. تضيء المنارة الرئيسية جدراننا، تومض كل خمس ثوان. وفي المرفأ فرقاطة خالية من الأسلحة من عشرينيات القرن الماضي، كانت تشارك في الحرب المكسيكية، وهي الآن مركونة في المرسى. في مقدمتها تمثال أبيض يندفع نحو البحر».

مقطع آخر نموذجي من الرسالة: «مؤخراً، توفي حارس عجوز في إحدى المنارات الدوارة، ولم يسعفه الوقت لتجهيز المحرك للمساء. فقامت زوجته وطفلاه الصغيران بإدارة المحرك بأيديهم طوال الليل. لهذا حصلت على وسام جوقة الشرف».

«أعتقد، يلاحظ بلوك، – أن الروس سيفعلون نفس الشيء».

لذلك، بالقرب من أبر فراك في الجزيرة كانت تقع قلعة سايزون الأثرية، التي باعتها الحكومة الفرنسية بثمن بخس لأنها كانت قديمة تماماً وغير ضرورية.

يبدو أنه كانت لبلوك رغبة شديدة بشراء هذه القلعة. حتى إنه حسب أن شراءها مع فلاحة الأرض وزراعة الحديقة والترميمات سيكلف 25 ألف فرنك.

كل ما في القلعة كان رومانسياً: الجسور المتداعية، مخازن البارود والمدافع القديمة.

أقنع الأقرباء بلوك بالعدول عن الصفقة. لكنه كثيراً ما كان يحدّث الأصدقاء والمعارف عن هذه القلعة، إذ لم يتراجع حلمه بسهولة أمام النصائح العاقلة.

سمع غرين هذه القصة وكتب رواية اشترى فيها رجل عجوز مع ابنة شابة جميلة، ملقبة بـ «البرِمة»، قلعة قديمة من الحكومة، واستقر فيها، وحوّل الأسوار المهجورة إلى غابة عطرة وأحواض زهور.

تحدث في الرواية مختلف الأحداث، لكن، ربما، أفضل ما فيها وصف القلعة نفسها – الطيبة (منزوعة السلاح منذ فترة طويلة)، المسالمة، الرومانسية، ووصف الحديقة مع تعريفات حية ممتازة أيضاً للأشجار والشجيرات والزهور.

يجب أن أعترف أن بعض قصائد بلوك دفعتني أيضاً إلى فكرة غريبة للوهلة الأولى – كتابة عدة قصص مرتبطة بهذه القصائد بالمزاج ذاته.

لا تفارقني هذه الفكرة حتى الآن. في غضون ذلك، كتبت قصة «فجر ماطر» المشتقة بالكامل من قصيدة بلوك «روسيا».

المستحيل، ممكن
الطريق الطويلة، سهلة
عندما يتضح الطريق بلمحة بصر
بنظرة من خلف النقاب...

لا أريد ولا أستطيع أن أقدّم تفسيري الخاص لحياة وشعر بلوك. وأنا لا أفهم حقاً الرعب النبوي والصوفي لبلوك في مواجهة معاناة روسيا والبشرية المتواصلة؛ أنا لست أشعر مثله بالوحدة القاتلة، والشكوك اليائسة والانهيار الكارثي، وتصوره المعقد للغاية للثورة. يجذبني بلوك ويأسرني في شعره الملموس قصائده الناضجة وحياته. إن ضباب الرمزية، المتعمد، الخالي من الصور الحية، والدم حي، بدون تجسيد - هذا مجرد هواية مدرسية طويلة الأمد.

أفكر أحيانا أن الكثير من شعر بلوك غير مفهوم من قبل الناس من الجيل السابق ومن الشبان المعاصرين.

من غير المفهوم، مثلاً، حبه لروسيا الفقيرة. كيف يمكن، من وجهة نظر جيل الشباب الحالي، أن نحب هذه البلاد حيث «لا يمكن إحصاء القرى الفقيرة المنخفضة ورؤيتها بالمنظار، وإشعال الحطب في الحقل البعيد في يوم معتم».

لا يفهم الجيل الشاب هذا لأن روسيا هذه لم تعد موجودة. لم تعد موجودة، تحديداً، بالكيفية التي عرفها وأحبها بلوك. فإن لم تزل هناك قرى معزولة، مستنقعات وأراض بور، فإن الإنسان الذي يعيش فيها قد اختلف. تبدّل الجيل ولم يعد الأحفاد يفهمون الجدود، وأحياناً لا يفهم الأبناء الآباء.

لا يفهم الأحفاد ولا يريدون أن يفهموا الفقر الذي يتباكون عليه في الأغاني، والذي يزينونه بالمعتقدات والأساطير في عيون الأطفال الخجولين الصامتين والرموش المنخفضة للفتيات الخائفات، المنزعجين من قصص الجوالة والمقعدين، الشعور الدائم بالعيش بقرب الغابات والبحيرات وجذوع الأشجار المتعفنة، وسط بكاء النساء المسنات، في الأسرار المتعبة داخل الأكواخ المغلقة والانتظار الدائم لحصول معجزة. «أنا أغفو، وخلف الغفوة سر، وفي السر ستنام روسيا».

كانت هناك حاجة إلى قلب كبير وقوي وحب كبير لشعبك من أجل الوقوع في حب هذه الأكواخ الرمادية، والرثة، ورائحة الرماد، والأعشاب، ولترى وراء كل هذا الفقر جمال روسيا الباهت المحاط بالغابات والمحاطة

بدورها بالبرية. رأى العديد من أسلاف بلوك ذلك. لكن روسيا هذه انقرضت. بكى عليها بلوك وأنشد:

لن ترقدي في نعش غني
يا روسيا الفقيرة!

روسيا الجديدة، «أمريكا الجديدة»[1] ستقام بالنسبة لبلوك في السهوب الجنوبية.

لا، غرّة الشعر لا تتطاير في الريح هناك،[2]
الصولجانات لا تبهر في السهوب
مداخن المصانع تتحول إلى اللون
الأسود هناك
هناك يئن صوت صفارة المصنع.

روسيا القديمة وروسيا الحديثة معروفتان بالتساوي تقريباً للجيل القديم. يكمن غنى هذا الجيل في معرفته الواسعة لروسيا. لا يمكن معرفة روسيا الجديدة دون معرفة القرى القديمة، دون معرفة الرحالة الأسلاف الرائعين، دون رؤية الغروب يسري في الدم فوق حقل كوليكوف.

قصائد بلوك عن الحب هي السحر. مثل كل أعمال السحر، هي غير قابلة للتفسير ومرهقة. وتقريباً لا يمكن الحديث عنها. تجب إعادة قراءتها، وتكرارها، والإحساس في كل مرّة بنبضات القلب، والتلوّع من نشيدها المتعب، والاندهاش إلى ما لا نهاية من أنها تنغرس في الذاكرة فجأة وإلى الأبد.

تبلغ المهارة الشعرية أقصى حدودها في هذه القصائد، وخاصة في «الغريبة» و«في المطعم». حتى إنها تخيف وتبدو غير قابلة للاستيعاب. من المحتمل أن بلوك، فيما كان يفكّر بهذه القصائد، قال مخاطباً إلهامه:

---

1- (عنوان قصيدة لبلوك)

2- إطالة الغرّة على شكل حبل مائل لليمين تقليد متوارث عند بعض القبائل في أوكرانيا - المترجم

أمكر من ليل الشتاء،
من نبتة الجلجل الذهبية
أقصر من الحب الغجري
كانت مداعباتك المرعبة...

تزداد قصائد بلوك قوة فقط بمرور الزمن، تُرهق الناس بصورها.

«وحريرها الناعم يعبق بالمعتقدات القديمة»، «أرى الشاطئ المسحور والأفق المسحور»، «وأعين زرقاء بلا قاع تتفتح على الشاطئ البعيد».

هذه ليست قصائد عن الأنوثة الأبدية بقدر ما هي تدفق للقوة الشعرية الهائلة التي تأسر القلوب الخبيرة وعديمة الخبرة.

ثمة «قوة غير مرئية» تحوّل قصائد بلوك إلى ما هو أبعد من الشعر وحده فقط، إلى التحام عضوي بين الشعر والموسيقى والأفكار، والتوافق مع نبضات كل قلب إنساني، ضمن ظاهرة الفن تلك، التي لم تعثر بعد على تحديد ناجح لها إلى حد ما.

يكفي قراءة مقطع واحد مشهور للاقتناع بهذا:

اندفعتِ مسرعة
مثل طير خائف،
مررتِ مثل حلمي
بخفة...
تنهدت العطور، غفت الرموش،
همس الحرير قلقاً.

قطع بلوك طريقاً طويلاً في التاريخ الروسي في شعره وفي نثره بدءاً من تسعينات القرن الثامن عشر الخالدة، وصولاً إلى الحرب العالمية الأولى، إلى التداخل المعقّد بين المدارس الفلسفية والشعرية والسياسية والدينية، وأخيراً، إلى ثورة أكتوبر «في إكليل من زهر أبيض». كان حارساً للشعر، منشده، خادمه وعبقريه.

قال بلوك إن العبقري يُشع النور إلى مسافات زمنية لا يمكن قياسها. ينطبق هذا الكلام عليه أيضا. إن تأثيره على مصائر كل منّا، كتّاباً وشعراء، ربما، لا يُلاحظ بسهولة، لكنه مهم بشكل غير عادي.

حتى إنني فهمت منذ شبابي مغزى كلماته العظيمة واقتنعت بها:

امحُ الصفات العرضية،
وسترى أن الحياة رائعة...

سعيت لأن أعمل بنصيحة بلوك هذه. وأنا أشكره بعمق على هذا. نحن نعيش في إشعاع عبقريته المضيئة، وستصل، وربما أكثر وضوحاً، إلى الأجيال القادمة في بلادنا..

# غي دي موباسان

أخفى حياته عنّا.
• (رينار عن موباسان)

كان موباسان يملك يختاً في شاطئ ريفيرا سمّاه «صديقي اللطيف». كتب في هذا اليخت أكثر أعماله حزناً وروعة – «على الماء». كان يعمل في هذا اليخت عند موباسان اثنان من البحّارة. البحّار الرئيس يدعى برنار. لم يكشف الاثنان لموباسان عن قلقهما عليه لا بالكلام ولا بالإشارات، على الرغم من أنهما لاحظا أنه يحدث شيء سيئ ما منذ زمن مع «السيد» وأنه قد يفقد عقله، إن لم يكن ذلك بسبب من الأفكار، فبسبب أوجاع الرأس التي لا تحتمل.

عندما مات موباسان أرسل البحّاران إلى أسرة تحرير إحدى الصحف الباريسية رسالة قصيرة ملأى بالأخطاء، مشبعة بالحزن الإنساني الشديد. ربما كان هذان الإنسانان البسيطان هما فقط الوحيدان اللذان يعرفان، خلافًا للرأي العام المسبق حول موباسان، أن سيدهما لديه قلب حساس وخجول.

ما الذي كان بإمكانهما فعله في ذكرى موباسان؟ فقط أن يسعيا بكل قواهما كي لا يقع يخته المحبوب في أيدي غرباء مهملين. وقد بذل البحّاران ما في وسعهما. أخّرا بيع اليخت قدر استطاعتهما. كانا شخصين فقيرين، والله وحده يعرف كم كان هذا صعباً عليهما.

توجها نحو أصدقاء موباسان، نحو كتّاب فرنسا، لكن بلا طائل. أخيراً انتقلت ملكية اليخت إلى النبيل الكسول بارتيليمي.

قال برنار لمن كانوا حوله حين كان يحتضر:

– أعتقد أنني لم أكن بحّاراً سيئاً.

لا يمكن التعبير ببساطةٍ أكثر عن الامتنان للحياة المعاشة، للأسف قلة من الناس من يستطيعون أن يملكوا الحق الكامل في أن يقولوا مثل هذا الكلام عن أنفسهم. هذه الكلمات هي الوصية التي تركها لنا موباسان على لسان بحّاره.

لقد تطوّر ككاتب بسرعة مدهشة ورائعة. قال: «دخلت إلى الحياة الأدبية كالنيازك، وسأخرج منها كالبرق».

مراقب بلا رحمة للقاذورات البشرية، عالم التشريح الذي أطلق على الحياة صفة «عيادة الكتّاب»، توصل قبل وقت قصير من نهايته، إلى النقاء، إلى تمجيد معاناة الحب وفرح الحب.

حتى في ساعاته الأخيرة، عندما بدا له أن دماغه قد تآكل بسبب نوع من الملح السام، فكر بيأس في مقدار العاطفة التي حرم نفسه منها في حياته المتعجلة والمتعبة.

إلى ماذا كان يدعو؟ إلى ماذا جرّ الناس وراءه؟ بماذا وعدهم؟ هل ساعد مجذاف القارب والكاتب بذراعيه القويين؟

كان يدرك أنه لم يفعل ذلك، وأنه لو أضاف التعاطف إلى الفضح، لاستطاع ان يكون عبقري الخير في ذاكرة البشرية.

كان يسعى للحنان مثل طفل مهجور، يعبس ويشعر بالخجل. لقد اعتقد أخيراً أن الحب ليس مجرد شهوة، بل هو أيضاً تضحية وفرح خفي، وهو شعر هذا العالم. لكن الأوان كان قد فات بالفعل، ولم يبق أمامه سوى لوم الضمير والندم الذي لا طائل منه. وشعر بالأسف، لأنه أزعج نفسه بشدة بسبب السعادة التي تم تجاهلها بلا مبالاة وسخرية. ثم تذكّر الفنانة الروسية باشكيرتسيفا، الشابة نوعاً ما، التي كانت مغرمة به. لقد قابل حبها بالسخرية، وردّ على هذا الحب بمراسلات ساخرة، بل وماكرة إلى حد ما. أرضى غروره كرجل. ولم يكن يريد أكثر من ذلك. وماذا يهمه من باشكيرتسيفا! كانت رغبته أشد بالعاملة الشابة في مصنع النسيج.

وصف الكاتب الفرنسي بول بورجيه ما جرى مع هذه العاملة. كان موباسان ساخطاً. من أعطى طبيب الصالونات النفسي الحق في التدخل في مأساة إنسانية حقيقية دون أن يُسأل؟ بالطبع، إنه هو نفسه، موباسان، هو المذنب في هذا. لكن كيف يمكنك المساعدة، ماذا يمكنك أن تفعل، عندما لا يكون هناك المزيد من القوة وطبقات من الملح تستقر في رأسه[1]! حتى إنه يسمع أحيانًا فرقعة بلوراته الصغيرة الحادة وهي تخترق دماغه.

العاملة! فتاة جميلة وساذجة! قرأت قصصه، رأت موباسان مرّة واحدة في حياتها ووقعت في حبه بكل ما في قلبها من حرارة - قلبها النقي مثل عينيها اللامعتين.

كانت تعرف أن موباسان غير متزوج ووحيد، فتولدت لديها فكرة جنونية في أن تمنحه حياتها، أن تعتني به، أن تكون صديقته، زوجته، عبدته وخادمته، فكرة ملحة بحيث لم تستطع مقاومتها.

كانت فقيرة وثيابها غير لائقة. حرمت نفسها من الشبع طوال العام وكانت تجمع الفرنك تلو الفرنك كي تخيّط لها ثياباً أنيقة وتظهر بها أمام موباسان.

أخيراً، صارت الثياب جاهزة. استيقظت في وقت مبكر من الصباح، عندما تكون باريس تغط في نومها، وتهيمن عليها الأحلام، مثل الضباب، وتبدأ الشمس تشرق شيئاً فشيئاً من خلال الضباب.

كانت هذه هي الساعة الوحيدة التي يمكن فيها سماع العصافير تزقزق في الشوارع فوق أشجار الزيزفون.

اغتسلت بالماء البارد، وبسرعة وحذر، بدأت ترتدي كنوزها الثمينة العطرة - الجوارب الناعمة والحذاء الصغير اللامع، وأخيراً ثوبها الرائع. نظرت في المرآة ولم تصدّق انعكاس شكلها فيها. كانت تقف أمامها امرأة جميلة رشيقة تشتعل فرحاً وتوتراً، ذات عينين غائرتين نتيجة الحب وفم قرمزي ناعم. أجل، هكذا ستظهر أمام موباسان وستعترف له بكل شيء.

كان موباسان يعيش في بيت ريفي خارج المدينة. قرعت الفتاة جرس

1- (المقصود مرض زيادة الأملاح أو بتعبير آخر احتباس الماء - المترجم)

البوابة. فتح لها الباب أحد أصدقاء موباسان، إنسان لعوب، ساخر ودون جوان. ضحك وعرّاها بعينيه وقال إن السيد موباسان ليس في البيت، وإنه سافر لعدة أيام برفقة عشيقته أتريتا.

صرخت الفتاة وابتعدت بسرعة، وهي تمسك بقضبان السياج الحديدي بيد صغيرة داخل قفاز ضيق للغاية.

لحق بها صديق موباسان، أجلسها في العربة واصطحبها إلى باريس. بكت، وتحدثت بشكل غير مترابط عن الانتقام، وفي ذلك المساء، على الرغم منها، على الرغم من موباسان، سلمت نفسها لهذا اللعوب.

بعد عام من ذلك ذاع صيتها في باريس كواحدة من المومسات الشابات. أما موباسان فلم يطرد صديقه عندما أخبره بهذه القصة، لم يصفعه على وجهه، لم يتحداه في مبارزة، بل اكتفى بأن ضحك. فقد بدت له هذه الحادثة ممتعة للغاية، وحتى إنها تصلح لتكون موضوعاً جيداً لقصة. كم هو مرعب أنه لا يمكن الآن العودة بالزمن إلى الوراء، عندما وقفت الفتاة أمام بوابة بيته، مثل ربيع مزهر، وهي تمسك بثقة قلبها الصغير بين يديها الممتدتين نحوه.

لم يكن يعرف حتى اسمها، والآن أطلق عليها أكثر الأسماء حناناً التي يمكن أن يفكر فيها. كان يتلوى من الألم. كان مستعداً لتقبيل آثار قدميها وطلب المغفرة، وهو، الذي يتعذر الوصول إليه، موباسان العظيم. لكن لا شيء يمكن أن يساعد. هذه القصة بأكملها كانت بمنزلة ذريعة لبورجيه لكتابة حكاية مضحكة أخرى عن المشاعر الإنسانية الغامضة. الغامضة؟ لا، إنها مفهومة جداً بالنسبة لموباسان! إنها مباركة، تلك المشاعر! إنها أقدس أقداس عالمنا غير المكتمل، وكان يمكن أن يكتب عن هذا الآن بكل قوته موهبته ومهارته لولا الأملاح التي في رأسه، على الرغم من أنه كان يبصقها بكميات كبيرة.

## إيفان بونين

مهما كان هذا العالم غير المفهوم محزناً،
فهو رغم كل شيء رائع.
• إ. بونين

بدأت أقرأ بونين منذ كنت في المدرسة. كنت أعرف القليل عنه في ذلك الوقت. عرفت بعض المعلومات من خلال يوميات السيرة الذاتية التي كتبها بونين نفسه خصيصاً لـ «قاموس الكتّاب». قرأت فيه أن بونين أمضى طفولته في قرية تقع في مكان ما بين إيلتس وبلدة يفريموف، ثم التحق بمدرسة إيلتس. في شهر نيسان البارد من عام 1916 سافرت إلى يفريموف لزيارة إحدى القريبات – امرأة عجوز وحيدة دعتني للإقامة عندها والراحة بعد تجوالي في الجنوب.

درّست المرأة العجوز في مدرسة مدينة يفريموف. مثل جميع المدرسين، غالباً ما كانت تعاني من التهاب في الحلق. لقد عولجت بجميع أنواع الطرق، حتى وفقاً «لطريقة بونين الطبية».

– أي بونين؟ – سألتها مندهشاً.

– يفغيني ألكسييفتش. أخو الكاتب. يعمل معنا في يفريموف في دائرة الضريبة. اكتشف طريقة لمداواة التهاب الحلق. يفرك الرقبة بقطعة جلد جافة وينتهي الالتهاب. لكن قطعة الجلد هذه لم تساعدني. يفغيني بونين سيد عملي وغير مريح إلى حد ما. أما أخوه، الكاتب، فيقولون عنه إنه إنسان ساحر ورائع. إنه يأتي إلى هنا أحياناً.

منذ تلك اللحظة التي عرفت فيها أن بونين يأتي إلى هنا تغيرت صورة يفريموف بالنسبة لي على الفور، على الرغم من أنها كانت بلدة مملة. أما الآن فقد بدت لي تجسيداً للراحة الريفية الروسية.

كانت جميع مدن المقاطعات تقريباً متشابهة بعضها مع بعض، حسب كلام تشيخوف، على شاكلة يفريموف – الفناءات الخلفية المهملة للأديرة، الوجوه المتربة للقديسين على البوابات الحجرية، وغير ذلك.

في ذلك الحين، في يفريموف، استوطنتني روسيا بونين وسيطرت عليّ لفترة طويلة. كانت يلتس قريبة. قررت أن أتوجه من هناك كي أشاهد مدينة بونين هذه. كان عندي منذ ريعان شبابي رغبة لا تقاوم لزيارة الأماكن المرتبطة بحياة الكتّاب والشعراء الذين أحبهم. اعتبرت (ولا أزال أعتبر) أن أفضل مكان على وجه الأرض هو الهضبة أسفل جدار الدير في بيسكوف حيث دُفن بوشكين. هذه الفضاءات الصافية والممتدة، كما تبدو من هذه الهضبة، قليلة في روسيا. من يفريموف إلى يلتس كان هناك قطار يسمى «مكسيم غوركي». ركبته إلى يلتس.

داهمني فجر بارد في عربة قطار قديم يهتز. كنت أجلس تحت شمعة وأقرأ في مجلّد قديم باهت لمجلة «العالم المعاصر» قصة بونين «إيليا النبي».

هذه القصة، بما يتخللها من إحساس بالمرارة، أحد أفضل الأعمال الأدبية الروسية. كل تفصيل، كل سمة من سمات هذه القصة (حتى «الشوفان، شاحب ككفن») توخز القلب بتوقع المحنة التي لا مفر منها، الفقر، اليتم، والتي أصبحت من نصيب روسيا في ذلك الوقت.

رغبت أن أهرب من روسيا ذلك الزمن بلا رجعة. لكني نادراً ما تجرأت على هذا. فالأم الفقيرة تبقى محبوبة حتى وهي في حالة من الذل المؤلم.

بونين أيضا ابتعد عن وطنه المحبوب الوحيد. لكنه ابتعد ظاهرياً، فهذا الإنسان الأبيّ القوي على نحو غير عادي، بقي حتى النهاية يعاني من أجل روسيا، وذرف من أجلها الكثير من الدموع الخفية في ليالي الغربة في باريس وغيرها – دموع الإنسان الذي نفى نفسه بإرادته من وطنه.

سافرت إلى يلتس. كانت الخضرة الكثيفة تتتالى خلف نافذة عربة القطار.

كانت الريح تصفّر مثل مروحة من الصفيح وتدفع السحب المنخفضة. أعدت قراءة «إيليا النبي»، أعدت قراءة القصة المريرة عن سيمون نوفيكوف، وهو فلاح من يلتس في منطقة بريدتشينسكايا. وحاولت أن أفهم: كيف، وبأي كلمات، بأي سحر، أنجز هذه المعجزة الحقيقية؟ معجزة تأليف قصة قصيرة وقوية مفعمة بالشعور بالمرارة ورائعة.

لم أنزل في فندق في يلتس. كنت فقيراً جداً، لذا، طوال اليوم حتى وقت متأخر من المساء، عندما غادر القطار العائد إلى يفريموف، كنت أتجول في جميع أنحاء المدينة، وبالطبع كنت متعباً للغاية.

كان يوماً رمادياً. تساقطت ثلوج متأخرة بشكل غير متوقع، ودفعتها الريح من فوق الجسور، وكشفت عن الحجارة وآثار حدوات الخيول.

كانت المدينة بكاملها مبنية من الحجارة. بدت لي بمظهرها الحجري شبيهة بقلعة. أشعرني بهذا فراغ شوارعها وهدوؤها. سمعت أن يلتس كانت دائماً مدينة تجارية ضاجة، وأثار استغرابي هدوء المدينة وقلة عدد سكانها، إلى أن عرفت أن هذا من آثار الحرب.

كانت يلتس فعلاً قلعة. كتب بونين عنها في «حياة أرسينيف»:

«... مدينة، تفخر بقِدمِها وتملك كل الحق في ذلك: كانت حقاً واحدة من أقدم المدن الروسية، وتقع بين حقول الأرض السوداء العظيمة، التي امتدت وراءها ذات يوم «الأراضي البرية وغير المعروفة»، وفي ذلك الوقت كانت إماراتا سوزدال وريازان تنتميان إلى أهم معاقل روسيا، وبحسب المؤرخين فهما أول من تنفستا العاصفة والغبار والبرد أسفل الغيوم الآسيوية الهائلة ...».

تقريباً، كل كلمة في هذا المقطع تُبهج ببساطتها ودقتها وتصويرها. كم هي قيمة تعبير من نوع تنفستا العاصفة.

وقفت فترة طويلة أمام مبنى مدرسة الذكور ذات الباحة الحجرية. درس بونين في هذه المدرسة. كانت هادئة في الداخل، كانت الدروس تقام خلف النوافذ.

ثم مشيت في ساحة السوق، وتعجبت من كثرة الروائح. تفوح منها رائحة

عشبة الشبت وروث الخيل وبراميل سمك الرنجة القديمة والبخور الخارج من أبواب الكنيسة المفتوحة حيث كانت تجري مراسم دفن أحدهم؛ تفوح منها رائحة الأوراق المتخمرة الساقطة من الحدائق خلف الأسوار الرمادية الطويلة.

شربت الشاي في الحانة. كانت فارغة وباردة. ذهبت من الحانة إلى ضواحي المدينة. كان لا يزال هناك الكثير من الوقت قبل القطار.

في الضواحي - مرعى فسيح يمتد إلى الأراضي المنخفضة. دوّت ضربات الحدادين على السندان. وكانت السماء صافية فوق المرعى. كان سور المقبرة قريباً، فدخلت إلى المقبرة.

حرّكت الرياح شظايا الورود الخزفية المهشمة والقصدير الملتف حول أكاليل الورود فصدر عنها صرير خافت. في بعض الأماكن، تقشّر الطلاء الزيتي على الصلبان الحديدية، كانت الصور بنية اللون متجعدة داخل الإطارات المعدنية بفعل المطر.

ذهبت في المساء إلى محطة القطار. غالباً ما عانيت من الشعور بالوحدة في حياتي، لكنني نادراً ما عانيت من شعور مرير بعدم الراحة مثل ذلك المساء في يلتس.

في مكان ما قريب مني، خلف جدران البيوت، كانت الحياة تسير. جلست في صالة الدرجة الثالثة الخفيفة الإضاءة، حيث تفوح رائحة الكاز ويتسرب الهواء البارد إلى الأقدام.

في حياة كل إنسان مصادفات غريبة، تكون أحياناً مفرحة، وأحياناً حزينة. وقد حدث هذا معي أيضاً. حدثت هذه المصادفة المثيرة للعجب في ذلك المساء في محطة القطار في يلتس.

اشتريت من كشك الصحف طبعة جديدة من جريدة «الكلمة الروسية». كان من الصعب القراءة في صالة الدرجة الثالثة المعتمة. عددت نقودي من جديد. كانت تكفي لشرب كأس من الشاي في بوفيه المحطة المضاء جيداً، وحتى منح بعض الفكّة للنادل الثمل. جلست في البوفيه خلف طاولة قرب دلو فارغ توضع فيه الشمبانيا وتصفحت الجريدة...

انتبهت إلى نفسي فقط بعد ساعة عندما كان حارس المحطة يدق

الجرس ويصرخ بصوت أجش متعمّد: «الصفارة الثانية إلى يفريموف، فولوفو، تولا!». قفزت واندفعت إلى العربة وجلست قرب النافذة المعتمة حتى يفريموف.

كل ما في داخلي كان يرتعش من الحزن والحب. تجاه من؟

تجاه تلك الفتاة العذراء، المقتولة هنا في هذه المحطة، تلميذة المدرسة أولا ميشيرسكايا. كانت قصة بونين «نفس خفيف» منشورة في الجريدة. لا أعرف إن كان يجوز تسمية هذا الشيء قصة. إنها ليست قصة، بل إضاءة على الحياة نفسها. الخوف منها وحبها، تأمل حزين وهادئ من قبل الكاتب، رثاء للجمال العذري.

كنت واثقاً من أنني مررت في المقبرة بقرب قبر أولا ماشيرسكايا، وأن الرياح أزّت خجلى فوق الإكليل القديم، كما لو أنها تدعوني للتوقف. غير أنني تابعت السير دون أن أعرف شيئاً! آه لو كنت أعرف! لو أنني استطعت! لكنت غمرت هذا القبر بكل الورود التي يمكن أن تزهر على هذه الأرض. فقد أحببت هذه الفتاة. أصابتني الرعشة بسبب استحالة تعديل مصيرها.

خلف النوافذ، كانت أضواء القرى النادرة والهزيلة تنطفئ. نظرت نحوها وهدأت نفسي بأن أوليا ميشيرسكايا – مجرد ابتكار لبونين، وأن الميل لتقبّل العالم برومانسية هو ما يجبرني على المعاناة بسبب هذا الحب المفاجئ لهذه الفتاة القتيلة.

ربما أنني في هذه الليلة الباردة، داخل عربة القطار، وسط حقول روسيا السوداء والرمادية، وسط حفيف الرياح الليلية على أشجار البتولا، أدركتِ تماماً ولأول مرّة، ما هو الفن وما هي قوته السامية الخالدة.

تصفحت الجريدة عدة مرّات وتحت ضوء الشمعة المتخافت، ثم بعد ذلك، تحت ضوء ينهال من فجر متشرد، أعدت قراءة جميع الكلمات ذاتها عن النفس الخفيف أو عن ماشيرسكايا، وعن أن «هذا النفس الخفيف قد تشتت مرة أخرى في العالم، في هذه السماء الملبدة بالغيوم، في رياح الربيع الباردة هذه».

***

استقبل المؤتمر الثاني للكتّاب السوفييت بحماس الخطابات التي طالبت بضرورة إعادة بونين إلى الأدب الروسي. وقد أُعيد. أُعيدت أشياء بونين الثمينة إلى الوطن، ومن ضمنها قصته الطويلة «حياة أرسينيف».

صعبة هي الكتابة عن هذه القصة الطويلة، ومستحيلة تقريباً، وكذلك الكتابة أيضاً عن بونين نفسه. إنه غني جداً، وكريم جداً، ومتنوع جداً، لذلك ينظر بصرامة وبدقة إلى أي شخص سواء أكان رجلاً نبيلاً من سان فرانسيسكو أم نجاراً أفريقياً، ويرى كل إيماءة بسيطة وكل حركة للروح بشكل مدهش للغاية، وفي نفس الوقت بشكل صارم ودقيق، يتحدث عن الطبيعة التي لا يمكن فصلها عن تدفق الحياة اليومية البشرية، الكتابة عنها بـ «يد غريبة»، كما يقال، غير مجدية وبلا معنى تقريباً.

يجب قراءة بونين والتخلي إلى الأبد عن المحاولات البائسة للسرد بكلمات رتيبة لا تنتمي لبونين حول ما كتبه بقوة كلاسيكية ووضوح. لا يمكن أن نسرد بكلماتنا الخاصة قصيدة بوشكين التي مطلعها «هدأ اليوم العاصف...» أو لوحة ليفيتان «وسط الهدوء الأزلي» أو «السفينة الفضائية» لليرمونتوف. هذا لا يجدي نفعاً مثلما لا يجدي نفعاً أن نقوم باختبار الهارمونيا في موسيقى موزارت وبقية الموسيقيين العظام بواسطة قوانين الجبر الجامدة.

المعاصَرة، كمفهوم، لا يمكن أن تكون موجودة من دون أن ترتبط أشد الارتباط بكل ما كان موجوداً قبل زمننا، وحدّده إلى حد ما.

كتب بونين رائعة، لأنها، بمجملها – ابنة زمنها، وهي في نفس الوقت ترتبط بشكل حي بماضي شعبنا.

يتميز نثر وشعر بونين بوضوح بحضور الإحساس بالحياة باعتبارها طريقاً طويلاً ورائعاً من ولادة الإنسان إلى موته. نعثر على أفضل تعبير عن هذا الإحساس في قصته الطويلة «حياة أرسينيف».

هذه القصة ليست مجرد مدح لروسيا، وليست محصلة حياة بونين فقط، وليست تعبيراً عن حبه العميق والشاعري لبلده فقط، تعبيراً عن الحزن والبهجة أمامها، تتلألأ أحياناً من صفحات الكتاب بدموع هزيلة، على غرار النجوم المبكرة النادرة في السماء. إنها شيء آخر.

هذه ليست فقط سلسلة من الشعب الروسي – فلاحون، أطفال، متسولون، ملاك أرض قساة، طلاب، حمقى مقدسون، فنانون، نساء جميلات – كثير من الناس كانوا حاضرين على جميع مسارات الكاتب ومفترق طرقه وكُتبوا بطريقة قاسية ومذهلة أحياناً بقوتها.

تذكرنا «حياة أرسينيف» في بعض صفاتها بلوحتي الفنان ناستيروف «روسيا المقدسة» و«في روسيا». هاتان اللوحتان هما أفضل تعبير عن وطنهما وشعبهما وفق فهم الفنان.

الأحراش والتلال، الكنائس الخشبية التي اسودت، وساحات كنائس وقرى منسية. وعلى خلفيتهما – كل روسيا! القيصر القديم وهو يرتدي الديباج الثقيل والذهب المسكوب، الفلاحون الخجولون من رعيته، والأتباع ذوو السياط، والمتجولون المتسكعون، الفتيات ذوات الرموش المتدلية الكثيفة، التي تلقي بظلالها اللطيفة على وجوههن الباهتة المضاءة بنوع من الضوء الداخلي العفيف، الحمقى، المتسولون، كبار السن المتهمون، الشيوخ الرائعون مع عصيّهم، الأطفال ذوو الرؤوس البيضاء. بين الحشد – ليف تولستوي، وليس بعيداً عنه – دوستويفسكي. جنباً إلى جنب مع من يبحثون عن الحقيقة، يذهبون إلى مسافات واضحة، ولكن لا تزال بعيدة، لم يتعبوا من التحدث عنها طوال حياتهم.

ثمة قاسم مشترك بين هاتين اللوحتين وكتب بونين. مع فارق واحد فقط، وهو أن الوطن الأم عند بونين أكثر تواضعاً وفقراً مما عند ناستيروف. يظهر وسط روسيا عند بونين وسط سحر الأيام الرمادية، وهدوء الحقول والأمطار والضباب، وأحياناً في وهج الشعاع الشاحب، في غروب الشمس الممتد الملتهب.

من المناسب هنا أن نذكر أن بونين يتمتع بإحساس نادر لا يخطئ بالألوان والضوء.

يتكون العالم من مجموعة هائلة متشابكة من الألوان والضوء. والإنسان الذي يستطيع أن يلتقط بسهولة ودقة هذا التشابك هو – إنسان محظوظ، خاصة إن كان كاتباً أو رساماً.

كان بونين، من هذا المنطلق، إنساناً محظوظاً. كان يرى كل شيء بنفس الرؤية الثاقبة: صيف روسيا الوسطى، والشتاء الغائم، و«نهارات الخريف القصيرة والرصاصية والهادئة»، والبحر، «الذي نظر إليّ فجأة من وراء التلال الحرشية البرية، بكل صحرائه المعتمة الهائلة».

وفي يوميات بونين جملة واحدة قصيرة. جملة تتعلق ببداية صيف عام 1906. «بدأت مرحلة الغيوم الجميلة»، كتب بونين، كأنه بهذا كشف لنا أحد أسرار حياته ككاتب. هذه كلمات عن اقتراب العمل اللطيف الذي لا مفر منه والمرتبط بموسم الصيف، و«أحياناً بالغيوم»، و«أحياناً بالمطر»، و«بالأزهار أحياناً».مكتبة سُر مَن قرأ

يحدد بونين بهذه الكلمات الأربع بداية عمله المرتبطة بملاحظة السماء، بدراسة الغيوم، الغامضة دائماً والجذابة.

في كل مرة تقرأ فيها سطور بونين عن الصيف، تتذكر هذه الجملة. الكلمات عن الصيف دائماً ما تكون مؤلمة له، حتى لو كانت تستغرق سطرين فقط.

«أزهرت الحديقة واكتست بملابسها، وغنى العندليب في الحديقة طوال اليوم، ورُفعت الإطارات السفلية للنوافذ طوال اليوم ...».

رأى بونين بنفس الدقة والوضوح كل ما أتيح له أن يراه في حياته. وهو رأى أشياء كثيرة، وقد رأى الكثير، منذ صغره، أصيب بمرض التجول والقلق والعطش الأكيد لرؤية كل ما لم يسبق له رؤيته. اعترف بأنه لم يكن يشعر بالسعادة قط مثلما يشعر عندما تلوح أمامه طريق جديدة.

هناك صلة وثيقة ما بين ظواهر من نوع الضوء، الرائحة، الصوت واللون. من أين تأتي هذه الصلة؟ على الأقل من كونك، وأنت تنظر إلى أشياء مجهولة لك، مثل نبتة الزعفران الضخمة، الزهور في لوحة فان غوغ، تنظر إلى الضوء الكثيف، الذي يذكرنا بالعصير الشفاف لبعض الفواكه، تستنشق فجأة رائحة حلوة محيرة لهذه الفاكهة ورائحة منعشة وتشعر بأنفاس رائحة رمال البحر الرطبة. كأن هذه الرائحة تنقل من لوحات المعرض رياحاً مشابهة من جزر غريبة.

غالباً ما تتفاجأ، عندما تقرأ بونين، بمشاعر من هذا النوع. تولّد الألوان الرائحة، والضوء – الألوان، ويعيد الصوت إنشاء سلسلة من الصور الدقيقة بشكل ملحوظ.

يولّد كل هذا حالة روحية خاصة، أحياناً حالة من التركيز والحزن، وأحياناً الخفة والفرح بالحياة، برياحها الدافئة، بضجيج الشجر، بهدير المحيط اللامحدود، برائحة الأطفال والنساء اللطيفة.

يحكي بونين عن إحساسه الخاص بالألوان، عن علاقته باللون في الطبيعة في قصته الطويلة «حياة أرسينيف»:

«يرتعش جسدي من مجرد نظرة واحدة إلى علبة الألوان، ألوّث الورق من الصباح إلى المساء، أنتصب لساعات، وأنا أتأمل هذه السماء المتحولة إلى اللون البنفسجي، المزرق، التي تصعد مواجهة للشمس في يوم حار فوق قمم الأشجار، كأنها تسبح وسط الزرقة، ويغمرني للأبد إحساس صادق عميق بمعنى وأهمية الألوان السماوية. أرى، في محصلة هذا الذي منحني الحياة، أن هذا هو المحصلة الأهم. أموت وأنا أتذكر هذه السماء البنفسجية الزرقاء المنبثقة عبر الأغصان وأوراق الشجر...».

عندما يتحدث بونين عن الصبي على متن السفينة الذي يدرس الشؤون البحرية في آسيا الصغرى ومصر وفلسطين، فإن الألوان المطفية نوعاً ما، وهي صفة مميزة في روسيا الوسطى، تكتسب كثافة وحرارة.

عاش بونين في العام 1912 في جزيرة كابري الإيطالية وتحاور زمناً طويلاً مع ابن أخيه نيكولاي ألكسييفيتش بوشيشنيكوف. حُفظت سجلات بوشيشنيكوف لهذه المحاورات. وهي تدلنا على أن بونين – الإنسان المتحفظ – كان في ساعات انفتاح نادرة. قال بونين وهو ينظر من نافذة العربة إلى ظل بخار القطار المتطاير في الهواء:

يا لها من سعادة – أن تكون حيّاً! فقط أن تستطيع أن ترى، على الأقل، أن ترى فقط هذا الدخان وهذا الضوء. لو لم يكن لي ذراعان وقدمان لاستطعت أن أجلس على المقعد وأراقب غروب الشمس، ولكنت سعيداً بذلك.

المطلوب شيء واحد فقط – أن ترى وأن تتنفس. لا شيء يمنح هذه

المتعة مثل الألوان. أنا اعتدت على أن أرى. علّمني الرسامون هذا الفن... لا يملك الشعراء القدرة على وصف الخريف لأنهم لا يصفون الألوان والسماء. توصل الفرنسيان إيريديا ولوكونت دو ليل – إلى إتقان غير عادي للوصف.

وفي سجلات بوشيشنيكوف مقطع مدهش يكشف «سر» مهارة بونين.

قال بونين إنه عندما يبدأ الكتابة عن أي شيء مهما كان، فعليه قبل كل شيء أن «يعثر على الصوت». «ما إن أعثر عليه بسرعة حتى تنساب البقية من تلقاء نفسها».

ما المقصود بـ «العثور على الصوت؟». من الواضح أن بونين ضمّن هذه الكلمات أهمية أكثر مما قد يبدو للوهلة الأولى.

«العثور على الصوت» – هو العثور على إيقاع النثر والعثور على جرسه الأساسي. ذلك أن النثر يمتلك لحنه الداخلي، مثل الشعر والموسيقى.

هذا الإحساس بإيقاع النثر وجرسه الموسيقي، كما هو واضح، إحساس عضوي ومتجذر أيضاً في المعرفة الرائعة والإحساس المرهف باللغة الأم.

شعر بونين بهذا الإيقاع بحدة حتى في طفولته. كان لا يزال فتياً عندما لاحظ في قصيدة بوشكين «روسلان ولودميلا»[1]، حركة دائرية خفيفة للأبيات («سحر الحركة الدائرية المتواصلة»):

«في النهار – وفي الليل – القط – العالم –
يدور – يسير – بالسلاسل»

كان بونين في مجال اللغة الروسية أستاذاً ماهراً لا يضاهى. يختار للقصة من دون خطأ، من بين عدد لا يحصى من الكلمات، الكلمة الأكثر بلاغة، الأقوى، التي ترتبط برباط غير ملحوظ، خفي تقريباً بالسرد، وتكون الوحيدة الضرورية لهذا السرد.

تشبه كل قصة وكل قصيدة لبونين المغنطيس الذي يجذب من أي مكان جميع الأجزاء الضرورية لهذه القصة.

---

1- (أول قصيدة لبوشكين. كتبها عام 1820 وعمره خمسة عشر عاماً) – المترجم

لو يوجد الآن حكواتي، من مثل كريستيان أندرسون، لربما كتب حكاية عن كيف تتدفق على الكاتب المالك لمغنطيس سحري، كل الأشياء غير المتوقعة، وصولاً إلى شعاع الشمس وسط شجيرة مغطاة بالصقيع، ونتف من الغيوم في ثياب الحداد الرمادية، فيضعها الكاتب ضمن نظامه الخاص، يرشها بالماء الحي، وهكذا يعيش في العالم عمل جديد – قصيدة أو شعر أو قصة – ولا شيء يمكن أن يقتله. إنه خالد ما دام الإنسان يعيش على الأرض.

لغة بونين بسيطة، متقشفة تقريباً، صافية ومعبّرة. لكن في الوقت نفسه، فهي غنية بشكل غير عادي بالعلاقات التصويرية والصوتية – من رنين الصنج إلى صوت مياه الينابيع، ومن الطرق على النحاس إلى النغمات اللطيفة بشكل مدهش، ومن الهمسات الخفيفة إلى العقاب التوراتي الصارخ[1]، ومنها – إلى لغة فلاحي منطقة أوريول الدقيقة المنمقة.

وصفت «حياة أرسينيف» بأنها قصة طويلة. هذا، بالطبع، غير صحيح. إنها ليست قصة طويلة وليست رواية. إنها شيء جديد، نوع لم يُسمّ بعد. إنه نوع مذهل، فريد، يأسر القلب الإنساني وفي نفس الوقت يضيئه.

من المتعارف عليه أن «حياة أرسينيف» سيرة ذاتية. نفى بونين هذا. فيما يخص السيرة الذاتية فإن «حياة أرسينيف» كتبت بحرية تامة.

إنها ليست سيرة ذاتية. إنها سبيكة من الأحزان الأرضية، من الخيبات، من التأملات والأفراح. إنها خلاصة حياة إنسانية واحدة، تجوال، دول، مدن، بحار، لكن روسيانا الوسطى تحتل المكان الأول وسط هذه الأراضي المتنوعة. «بحر جليدي بلا حدود في الشتاء، وفي الصيف، بحر الخبز، العشب والورود... وهدوء أزلي في الحقول، إنه صمتها الغامض...».

استطاع بونين في «حياة أرسينيف» أن يجمع حياته داخل كريستال سحري، لكن مختلف عن كريستال بوشكين، منح هذه القصة الطويلة، منحها حياة الكاتب بدقة شديدة وأضاءها حتى أعمق أعماقها.

أواصل تسمية «حياة أرسينيف» «قصة طويلة»، مع أنني أملك نفس الحق في أن أسميها قصيدة أو حكاية. «حياة أرسينيف» – إحدى ظواهر الأدب

---

1– في نصوص التوراة الكثير من الأقوال التي تطالب المؤمن بمعاقبة الخطاة – المترجم

العالمي الرائعة. ومن المفرح جداً أنها تنتمي للأدب الروسي بالدرجة الأولى.

انصهر النثر مع الشعر في هذا الكتاب المدهش في وحدة واحدة، انصهرا عضوياً، وأسسا نوعاً أدبياً جديداً ورائعاً. في هذا الانصهار للإدراك الشعري للعالم بتعبيره الخارجي الظاهر، هناك شيء صارم، وأحياناً شديد. هناك شيء توراتي في أسلوب هذا الكتاب.

لا يمكن في هذا الكتاب أن نفصل بين الشعر والنثر، في حين تستقر كلماته في القلب مثل ختم بالشمع الأحمر.

يكفي أن نقرأ بضعة سطور مما كتبه عن الأم كي ندرك أن بونين عثر، لكل ما أراد أن يقوله، على التعبير الضروري الوحيد والممكن. لا يمكن قراءة هذه السطور من دون الإحساس بصدمة عاطفية:

«في أرض الوطن البعيدة، وحيدة، منسية من كل العالم للأبد، فلترقد بسلام وليكن مقدساً للأبد اسمها الذي لا يقدّر بثمن. وهل يمكن حقاً أن تكون تلك التي جمجمتها بلا عيون، وعظامها الرمادية الآن ملقاة في مكان ما هناك، في بستان مقبرة مدينة روسية غير طبيعية، في أسفل قبر مجهول، هل يمكن أن تكون هي التي هزهزتني ذات يوم بين ذراعيها؟».

إن قوة اللغة وقوة الصورة الدقيقة في «حياة أرسينيف» هي من النوع الذي يولّد الحزن والإثارة وحتى الدموع. تلك الدموع النادرة التي يثيرها الجمال.

تتجلى حداثة «حياة أرسينيف» أيضاً في حقيقة أن جميع أشياء بونين تكشف بإشباع عن الظاهرة التي نطلق عليها، بسبب ندرة لغتنا، «العالم الداخلي» للإنسان. كما لو كان هناك حد واضح بين العالم الداخلي والعالم الخارجي؟ كما لو أن العالم الخارجي ليس واحداً مع العالم الداخلي.

كل ما يتحدث عنه بونين في هذا الكتاب مرئيّ ومسموع وملموس ومادي ويسعدنا أو يحزننا لفترة طويلة. سوف أقتبس عدة مقاطع من هذا الكتاب. على سبيل المثال، هذا هو أول لقاء لطفل صغير مع المدينة:

«كل شيء... كان يزداد إدهاشاً في مدينة الشمع. لم أشعر بهذا طوال حياتي، – وأنا رأيت الكثير! – تجاه الأشياء التي اختبرتها على وجه الأرض،

بهذا الفرح، هذه السعادة، كما شعرت في سوق هذه المدينة، وأنا أحمل بيدي علبه الشمع. كانت العلبة المستديرة مصنوعة من لحاء عادي. لكن يا له من لحاء، وبأي مهارة فنية لا مثيل لها جرى صنع هذه العلبة! أما الشمع نفسه! فأسود، كثيف، ذو لمعان باهت ورائحة كحولية لذيذة».

وصف بونين منطقته الفقيرة بعبارات مقتضبة.

«ما الذي رأيته حيث ولدت ونشأت؟ لم أر الجبال، ولا الأنهار، ولا البحيرات، ولا الغابات، – فقط شجيرات في البساتين، وأحياناً، ما يشبه الغابة في أماكن متفرقة هنا وهناك، وشجرة بلوط، وأحياناً تكون الحقول مثل محيط لا نهاية له من القمح... حيث الأخاديد، والمنحدرات، والمروج الضحلة، حيث يبدو أن القرى والسكان أوغاد قد نسيهم الله – فهم متواضعون للغاية، بسيطون وبدائيون».

يستخدم الكتّاب مصطلحاً مستعاراً من النحت – «نحت الناس». يوجد عند عدد قليل من الكتّاب مثل هذا «النحت للناس»، الذي يكون أحياناً صحيحاً من دون أخطاء، وأحياناً قاسياً لا يرحم، وأحياناً مؤثراً، مثلما هو عند بونين.

وهذا مثال عن الراعي:

«الصبي الراعي... كان مثيراً للاهتمام على نحو غير عادي: كان قميصه الرقيق وغياره الداخلي القصير ممتلئين بالثقوب، والجفاف يبدو على ساقيه ويديه ووجهه الذي احترق بفعل الشمس وتقشّر، وتحولت شفتاه إلى اللون الأبيض، لأنه دائماً ما يمضغ قشور الشوفان الحامضة، وأحياناً أوراق الخبيزة، وأحياناً النبات الحاد الطعم الذي يسبب قرحة للشفاه، مثل هذه العنزة نفسها التي تأكل إلى أن تتقرح شفتاها، وعيناها الحادتان تجريان كاللصوص: بعد كل شيء، لقد فهم جيداً كل جريمة صداقتنا معه، وأنه طردنا. والله أعلم. لكن كم كانت هذه الصداقة الإجرامية حلوة! كم كان حريصاً بكل ما أخبرنا به سراً، إذ كان فجأة يتلفت حوله باستمرار فيما يتحدث. إضافة إلى ذلك، كان يصفّق بطريقة مدهشة، يسوط بسوطه الطويل مسبباً ألماً لنفسه في طرف أذنه، ويقهقه عندما نحاول أن نصفق له...».

المشهد الروسي بنعومته، وينابيعه الخجولة، الذي لا يمكن وصفه، والذي يتحول بعد فترة قصيرة إلى جمال حزين هادئ، وجد أخيراً الشخص المعبّر عنه، الذي لم يحاول قط تجميله. لم يكن هناك حتى أصغر تفاصيل في المشهد الروسي الذي لم يكن بونين قد لاحظه ووصفه.

«مررنا ببركة من الطين، كانت تتلألأ بحرارة مكتئبة بسطحها المستطيل في جوف بين سفوح التلال التي دمرتها الماشية. هنا وهناك جلست الغربان مستغرقة في التفكير بطريقة ما، بلا مأوى أعلى الجبل».

ثمة فصل قصير في «حياة أرسينيف». يبدأ بالكلمات التالية:

«كل ما عشت فيه في فترة المراهقة كان روسياً للغاية.». ثم تحدث بونين عن الطريق السريع بالقرب من قرية ستانوفايا، عن اللصوص، والخوف، والليالي، ولكن يا لها من صورة مذهلة لروسيا الحديثة مرسومة هنا: «الطريق الطويل بالقرب من ستانوفايا يتجه إلى واد عميق، في رأينا، إلى الأعلى. وكان هذا المكان دائماً يوحي بالخوف الخرافي تقريباً لكل مسافر متأخر... وأكثر من مرة في شبابي عانيت من هذا الخوف الروسي البحت، وأنا نفسي اختبرت في شبابي هذا الخوف الروسي الخالص عندما مررت بالقرب من ستانوفايا... استعدت المشهد كله: تراهم، يسيرون نحوك مباشرة غير مسرعين والفؤوس متدلية بين أيديهم متلاصقة بجانب الخاصرة، بقبعاتهم المنسدلة فوق العيون الحادة، وفجأة يتوقفون ويأمرون بصوت منخفض وهادئ زيادة عن اللزوم: «انتظر دقيقة، يا تاجر...».

هناك الكثير من المقاطع الرائعة في هذا الكتاب. لا أجد في نثرنا مثل هذا الوصف لفصل الشتاء كما سأورده أدناه:

«وأتذكر أيضاً العديد من أيام الشتاء الرمادية والقاسية، والكثير من الأوحال الداكنة والقذرة، عندما تصبح حياة المقاطعات الروسية مؤلمة بشكل خاص، عندما تصبح وجوه الجميع مملة وغير ودية - فالشعب الروسي يخضع في الأساس للمؤثرات الطبيعية! - وكل شيء في العالم، فضلاً عن وجوده، يعذبه بلا جدواه ...

أتذكر كيف كانت هناك أحياناً عواصف ثلجية آسيوية غير مسبوقة تستمر

لأسابيع كاملة، بحيث كانت أبراج جرس المدينة ترتج بضعف. أتذكر صقيع عيد الغطاس الذي يشير إلى روسيا القديمة العميقة، ذلك الذي يشقق الأرض:

ثم فوق المدينة البيضاء، الغارقة تماماً وسط تساقط الثلوج، يشتعل في الليل كوكب الجوزاء الأبيض بشكل مخيف وسط السماء ذات اللون الأزرق الغامق، وفي الصباح تشع شمسان قاتمتان بشكل ينذر بالسوء، وينتشر دخان كثيف من المداخن في كل أرجاء المدينة، ويُسمع صرير دراجات المارة، وزحافات المتزلجين...».

بالحديث عن بونين، تصبح شخصاً متحمساً بشكل لا إرادي. أريد طوال الوقت أن أظهر للقارئ الذي أتحدث معه المقاطع الرائعة من كتب بونين واحداً تلو الآخر. قد يبدو أن كل كتاب هو الأخير. لكن يتضح بعد ذلك – أن هناك المزيد، وما من قوة تجبرني على البقاء صامتاً حيال ذلك. على سبيل المثال، ما كتبه عن الشباب والحب الطفولي نوعاً ما.

«الجميع يفكر في الشباب المنصرم بحزن. في ذلك الوقت كنّا نحب الحب وكل ما يسببه لنا» و«نجمة ذات سبعة ألوان، تتلألأ بهدوء في الشرق، بعيداً عن الحديقة، وراء القرية، وراء الحقول الصيفية، حيث يُسمع بخفوت من هناك أحياناً قتال طيور السمان البعيدة، وبالتالي يبدو ساحراً على نحو خاص» و«أنفاس الحبيبة النائمة»، – «كيف أصف تلك المشاعر التي أحسست بها وأنا أرى هناك بعقلي ليزا النائمة في هذه الغرفة وسط حفيف أوراق الشجر، والمطر المتدفق بهدوء خارج النوافذ المفتوحة، التي تدخل الرياح الدافئة منها القادمة من الحقول بين حين وآخر، وفرحة بحلمها الطفولي الذي لا يوجد أصفى وأروع منه على وجه الأرض بكاملها!».

***

كلما قرأت أكثر لبونين، يصبح من الواضح أن بونين يكاد لا ينضب. على أي حال، يستغرق الأمر وقتاً طويلاً للتعرف على كل ما كتبه والتعرف على بونين العاصف، على الرغم من سوداوية المؤلف، والقلق والتهور في حياته المتحركة.

وصف بونين جزءاً من حياته بنفسه في «حياة أرسينيف» وفي العديد من قصصه التي ترتبط جميعها إلى حد ما مع سيرته الذاتية، ووصفتها زوجته فيرا نيكولايفنا موروميتسيفا – بونينا، التي نشرت كتابها «حياة بونين» في باريس عام 1958 الذي تضمّن حصيلة قيّمة للغاية من ذكريات ومواد عن بونين.

كانت حياة بونين حتى أيامه الأخيرة مكرسة للتجول والإبداع. كان بونين شجاعاً، صادقاً في كل معتقداته. إنه واحد من الأوائل الذين عرّوا في «القرية» زيف الأسطورة حول سعادة الفلاح الروسي الحامل لصليب الله.

توجد عند بونين، إضافة إلى قصصه الكلاسيكية الرائعة، كتابات في أدب الرحلات استثنائية في دقة تصويرها وفي قدرتها الرائعة على الملاحظة، وبالإحساس بالبلدان البعيدة، مثل آسيا الوسطى، تركيا، اليونان ومصر.

كان بونين شاعراً من الدرجة الأولى. لم تقيّم قصائده كما يجب حتى الآن. ومن بينها تحف حقيقية من حيث براعة التعبير عن أشياء يصعب التقاطها. انتظر بونين السعادة طوال حياته، كتب عن السعادة الإنسانية، وبحث عن الطرق إليها. وقد وجدها في شعره ونثره، في حب الحياة وحب وطنه.

عاش بونين حياة معقدة وأحياناً حياة متناقضة. رأى الكثير، عرف الكثير، أحب وكره الكثير، عمل كثيراً، أخطأ مراراً، لكن حبه الأعظم الأرق والدائم كان لوطنه الأم، روسيا.

والأزهار والنحل والعشب والسنابل،
...واللازورد، وحرارة منتصف النهار،
وسيحين الأوان – ويسأل الرب
الابنَ الضال:
«هل كنت سعيداً في الحياة الأرضية؟»
وسأنسى كل شيء – سأتذكر فقط
هذه الطرق وسط الحقول
بين السنابل والعشب –
وبسبب الدموع الحلوة
لن أتمكن من الرد على الرحيم

مكتبة
t.me/soramnqraa

## مكسيم غوركي

لقد كُتب الكثير عن أليكسي مكسيموفيتش غوركي لدرجة أنه لولا مكانته المرموقة، يمكن للمرء بسهولة أن يشعر بالحرج، ويتراجع ولا يضيف سطراً واحداً لما كُتب عنه بالفعل.

يحتل غوركي حيزاً كبيراً في حياة كلّ منّا. حتى إنني أجرؤ على أن أقول إنه يوجد «إحساس بغوركي»، إحساس بحضوره الدائم في حياتنا. غوركي يمثّل بالنسبة لي روسيا كلها. وكما أنني لا أستطيع أن أتخيل روسيا من دون نهر فولغا، كذلك لا أستطيع أن أفكر بأن غوركي غير موجود فيها.

كان غوركي يمثّل التجسيد الكامل للشعب الروسي الموهوب إلى ما لا نهاية. كان يحب روسيا ويعرفها تماماً، ويعرفها، كما يقول الجيولوجيون، في جميع «أقسامها» وفي المكان والزمان. ما من شيء تجاهله في هذه البلاد ولم يره بطريقته الخاصة، بطريقة غوركي.

كان هذا هو الرجل الذي حدّد العصر. من أشخاص مثل غوركي، يمكن أن يبدأ التسلسل الزمني.

عندما التقيت به للمرة الأولى، أذهلتني أولاً وقبل كل شيء هيئته الخارجية غير العادية، على الرغم من انحناءته الطفيفة وصوته المكتوم. كان في تلك المرحلة من النضج الروحي عندما يطبع الكمال الداخلي غير المرئي بصمته على العالم الخارجي، على طريقة التصرف، على طريقة الكلام، على الملابس – على كل هيئة الإنسان. كانت هذه الأناقة، جنباً إلى جنب مع القوة الواثقة، ملحوظة في يديه العريضتين، في نظرته اليقظة، في مشيته وفي البذلة، التي كان يرتديها بشكل فضفاض وحتى بطريقة فنية إلى

حد ما. غالباً ما أراه في أفكاري بالشكل الذي حدثني عنه أحد الكتّاب الذين عاشوا عند غوركي في القرم، في تيسيلي.

استيقظ هذا الكاتب ذات صباح في وقت مبكر جداً ومشى نحو النافذة. اندلعت عاصفة متسارعة فوق البحر. هبّت من جهة الجنوب رياح هوجاء وصدر صرير من دوّارات الرياح في البساتين.[1]

بقرب المنزل الذي عاش فيه الكاتب، نمت شجرة حور ضخمة. شجرة حور سماوية، كما قد يقول غوغول عنها. شاهد الكاتب غوركي وهو يقف بالقرب من شجرة الحور، رافعاً رأسه ومتكئاً على عصا، كان يحدق بثبات بالشجرة العظيمة. كانت أوراق أغصان شجرة الحور الكثيفة تهتز وتصدر صوت حفيف بفعل الريح.

وقف غوركي بلا حراك لفترة طويلة جداً وهو ينظر إلى الحور، وخلع قبعته. ثم قال شيئاً ودخل في عمق الحديقة، لكنه توقف عدة مرات ونظر إلى الوراء باتجاه الحور.

تجرأ الكاتب أثناء العشاء وسأل غوركي عما قاله بجانب شجرة الحور. استغرب غوركي وأجاب:

طالما أنك تراقبني فيجب عليّ أن أعترف. قلت – يا لها من عظَمة!

كنت ذات يوم في زيارة لألكسي مكسيموفيتش في بيته في أطراف المدينة. كان ذلك في يوم من أيام الصيف تنتشر فيه غيوم خفيفة تلقي بظلالها الشفافة على النباتات المزهرة خلف نهر موسكو. هبت ريح دافئة عبرَ الغرف.

كان غوركي يتحدث معي عن قصتي الطويلة الأخيرة «بلدة كولخيدا»، – كما لو أنني خبير بالطبيعة الاستوائية. أزعجني هذا كثيراً. لكنا على الرغم من هذا تجادلنا حول هل تمرض الكلاب بالملاريا، وفي نهاية المطاف استسلم غوركي، وتذكر بطيبة خاطر وهو يبتسم، حادثة جرت معه، عندما شاهد في جيورجيا الدجاج يزعق حول مرضى الملاريا.

تحدّث بطريقة لا يستطيع أحد منا أن يتحدث بمثلها الآن، – لغة جذابة مكثفة.

---

1- أعمدة عليها صفائح معدنية تلتف وتدور حسب اتجاه الريح – المترجم

في ذلك الحين كنت قد انتهيت للتو من قراءة كتاب نادر جداً لأحد البحّارة، القبطان جيرنيت. كان عنوانه «الطفح الجليدي».

كان جيرنيت في وقت ما القنصل البحري السوفييتي في اليابان، وهناك كتب كتابه، صف حروف الكتاب بنفسه لأنه لم يعثر في اليابان على فني صف أحرف يعرف اللغة الروسية، وطبع من هذا الكتاب ما مجموعه خمسمائة نسخة فقط على ورق رقيق.

أوجز الكابتن جيرنيت في الكتاب نظريته الذكية حول عودة المناخ شبه الاستوائي الميوسيني إلى أوروبا. خلال العصر الميوسيني، نمت غابات الماغنوليا والسرو على طول شواطئ خليج فنلندا، وحتى في شبيتسبيرغن.

لا أستطيع أن أتحدث هنا بالتفصيل عن نظرية جيرنيت – فهذا قد يستغرق حيزاً كبيراً جداً. لكن جيرنيت أثبت بشكل قاطع أنه إذا كان من الممكن إذابة القشرة الجليدية في جرينلاند، فإن العصر الميوسيني سيعود إلى أوروبا وسيبدأ عصر ذهبي في الطبيعة.

تكمن نقطة الضعف الأساسية لهذه النظرية في استحالة إذابة الجليد. أما الآن، وبعد اكتشاف الطاقة الذرية، ربما من المفيد التفكير بها.

حدّثت غوركي عن نظرية جيرنيت. بدأ يدق بأصبعه على الطاولة، واعتقدت أنه يستمع لي فقط من باب التهذيب. لكن تبين أنه كان مأخوذاً بهذه النظرية التي يصعب دحضها، بل التي يمكن حتى الاحتفاء بها نوعاً ما.

تابع غوركي الحوار لفترة طويلة، وهو يزداد حيوية، ثم طلب أن أرسل له هذا الكتاب من أجل إعادة نشره على نطاق واسع في روسيا. وتحدث لفترة طويلة عن عدد المفاجآت الذكية والجيدة التي تنتظرنا في كل خطوة.

لكن أليكسي مكسيموفيتش لم ينجح في نشر كتاب جيرنيت – فقد مات بعد فترة وجيزة.

# فيكتور هوغو

أُقيم نصب تذكاري لفيكتور هوغو في جزيرة جيرسسيه قرب قناة المانش حيث عاش منفياً.

أُقيم النصب على جرف يقع فوق المحيط. قاعدة النصب ليست مرتفعة كثيراً، نحو عشرين أو ثلاثين سنتمتراً فقط. وقد نمت عليه الأعشاب بكامله، لهذا يبدو أن هوغو يقف مباشرة على الأرض.

يظهر هوغو وهو يمشي في مواجهة الريح منحنياً مرتدياً معطفاً متطايراً. يتمسك هوغو بقبعته كي لا تطير. إنه يكافح بكل قواه ضد ضغط العاصفة. النصب التذكاري مقام في منطقة برية ومهجورة، يمكنك منها رؤية الصخرة حيث مات روس جيليات وهو من «كادحي البحر»[1].

حول المكان، وعلى مدّ النظر، يهدر المحيط المضطرب، وتمتد الأمواج الثقيلة تحت المنحدرات، فتتأرجح وتهتز غابة من الأعشاب البحرية، ومع هدير ثقيل تندفع إلى المغارات الموجودة تحت الماء.

يُسمع وسط الضباب كيف تعلو أصوات الصفارات بكآبة من المنارات البعيدة. وفي الليل، تبرز أضواء المنارة في الأفق على سطح المحيط. وغالباً ما تغور في الماء.

يضع سكان جيرسييه في الذكرى السنوية لوفاة فيكتور هوغو بعضاً من غصون نبتة الهدال[2]، ويختارون أجمل فتاة في الجزيرة لتضع الهدال عند قدمي هوغو.

---

1- (رواية بنفس العنوان لفيكتور هوغو - المترجم

2- (نبتة دائمة الخضرة تنتج ثمراً أبيض اللون - المترجم)

أوراق الهدال بيضاوية الشكل كثيفة جداً بلون الزيتون. الهدال، حسب المعتقدات المحلية يجلب السعادة للأحياء ويطيل من ذاكرتهم للأموات. يتحقق الأمل. وتتجول روح هوغو الثائرة بعد موته في أنحاء فرنسا.

كان إنساناً متحمساً مندفعاً. بالغ في كل ما رآه في حياته وفيما كتب عنه. هكذا كانت تتشكل وجهة نظره. كانت الحياة بالنسبة له تتكون من عواطف عظيمة، رفيعة ومعبرة بشكل بوضوح.

كان قائداً عظيماً لأوركسترا الكلمات، المكونة من آلات الروح وحدها. الأبواق النحاسية المبتهجة، دقات الطبول، أصوات آلات النفخ الصاخبة والحزينة، صيحات المزمار الباهتة. هكذا كان عالمه الموسيقي.

كانت موسيقى كتبه بنفس قوة هدير عواصف المحيط. كانت تجعل الأرض ترتج. وترتج القلوب البشرية الضعيفة.

لكنه لم يشفق عليها. كان مصراً على سعيه في أن يُعدي البشرية بغضبه، بفرحه وبحبه الضاج.

لم يكن فارساً للحرية فقط. كان رسولها ومغنيها الجوّال وصوتها المدوّي. كأنه كان يصرخ عند تقاطعات كل طرقات الكرة الأرضية: «إلى السلاح أيها المواطنون!».

اقتحم العصر الكلاسيكي الممل مثل إعصار، مثل الرياح التي تحمل دفقات المطر والأوراق والسحب وبتلات الزهور ودخان البارود والأوسمة المنزوعة من القبعات.

تدعى هذه الرياح الرومانسية.

لقد اخترق الهواء الراكد في أوروبا وملأه بأنفاس حلم لا يقهر.

كنت مذهولاً ومسحوراً بهذا الكاتب المتحمس منذ طفولتي، عندما قرأت خمس مرات على التوالي «البؤساء». كنت أنهي هذه الرواية وأعيد قراءتها من جديد في نفس اليوم.

حصلت على خارطة باريس وعلّمت عليها كل الأماكن التي جرت فيها

أحداث الرواية. كأني أصبحت مشاركاً فيها، وحتى الآن، اعتبر في أعماق روحي أن جان فالجان وكازيت وغافروش من أصدقاء الطفولة.

أصبحت باريس ليس وطن فيكتور هوغو فقط، بل ووطني أيضاً. أحببتها على الرغم من أنني لم أكن قد رأيتها على الإطلاق. ازداد هذا الإحساس قوة بمرور الزمن.

ثم انضمّت إلى باريس هوغو باريس بالزاك، موباسان، ألكسندر دوما، فلوبير، إميل زولا، جول بالانس، أناتولي فرانس، رولان، دودي، ميرميه، ستاندل، باربوس وبيرانجيه.

جمّعت قصائد عن باريس ونسختها في دفتر خاص. وقد فقدته للأسف، لكني حفظت عن غيب بعض أبيات هذه القصائد. أبيات مختلفة، الصعبة والسهلة.

سترى مدينة رائعة
هي التي صلّوا فيها عبر العصور،
وتنسى الروح الملامة،
وترتجف اليد المتعبة.

في حدائق لوكسمبورغ، بجوار النافورة،
سوف تمشي
بموازة الحافة البعيدة
تحت أوراق الشجر العريضة
المتطايرة من الأشجار،
مثل ميمي من رواية مورجيه...

ألهم هوغو معظمنا هذا الحب الأول لباريس، ونحن نشكره على هذا. خاصة منّا أولئك الذين لم يسعدوا برؤية هذه المدينة الرائعة بأم أعينهم.

# وردة صغيرة في عروة
# (يوري إليوشا)

كانت لي لقاءات كثيرة مع يوري كارلوفيتش إليوشا. بقي كل لقاء منها فترة طويلة في ذاكرتي. سأحدثكم الآن عن أحد هذه اللقاءات.

جرى هذه اللقاء في بداية الحرب، في تموز من العام 1941. وصلت إلى أوديسا قادماً من الجبهة، من منطقة تيراسبول، على متن شاحنة عسكرية. قفزت منها بالقرب من المحطة وتوجهت إلى فندق «لندن». سرت في شارع بوشكين الخالي من الناس. بدأ الضوء يطلع. انهمر المطر.

دهن سكان أوديسا بيوتهم في الأيام الأولى من الحرب بطبقة كثيفة من السخام الأسود الخفيف. كان الاعتقاد السائد أن البيوت السوداء لن تكون مرئية من السماء، مثل البيضاء.

تبين أن عملية دهن البيوت المعقدة هذه، التي أطلقوا عليها تسمية رنانة «كاموفلاج» (التمويه)، كانت بلا جدوى على الإطلاق. كان الصيف ماطرا. تحلل دهان البيوت بعد أول مطر وامتلأت الجدران ببقع قذرة.

سرت في شارع بوشكين ولم أتعرف على هذه المدينة العزيزة التي كنت أعرفها منذ زمن. كانت أوديسا ولم تكن هي في الوقت ذاته على الإطلاق. كأني كنت أشاهد المدينة في نفس الوقت في الصحو وفي الحلم.

كان الماء القذر يسيل من مواسير الماء. لم يكن يُسمع أي صوت من حولي باستثناء نقرات المطر المتسارعة على الأسطح الحديدية. ربما أن رائحة الأكاسيا الرطبة وحدها التي تُذكّر بأيام الصيف المشمسة المنصرمة.

لسبب ما، كنت في ذلك الوقت واثقاً من أن الحرب جلبت معها هواء جديداً. انتزعت من الأرض طبقة الهواء القديمة – الخفيفة، الدافئة، المعتمة

من حين إلى آخر – واستبدلت بها هواء قاسياً، فارغاً، غيّر مظهر كل الأماكن والأشياء. كان الهواء الجديد شبيهاً بنتروغليسيرين سائل. تذكّرنا رائحته بالقطران الممزوج بدواء حارق.

ربما أنني شعرت، بسبب هذا الهواء الغريب، بسبب الشوارع الخالية، بوحدة مطلقة، كما لو أنني جئت إلى مدينة خالية من الناس كلياً.

لذا تنفست براحة عندما رأيت، في بهو فندق «لندن» المعتم، رجلاً مسناً غير حليق الذقن يرتدي سترة ليلكية وقميصاً مجعداً.

كان يجلس خلف الكاونتر ويقرأ «الملكة مارغو» لألكسندر دوما. أمامه شعلة صفراء تحترق من دون حركة. تكدست أبخرة زرقاء باهتة فوق اللهب مثل السحب.

– هل أنت موظف الاستقبال؟ – سألته متردداً؟

– لنفترض أنني هو.

– هل يمكن أن أنام عندكم الليلة؟

– سؤال عجيب! غضب العجوز. وأضاف:

– لا يوجد أي كائن في الفندق. اختر أي غرفة. مع كوّة أو من دون كوّة. إذا كنت ذا طبيعة منطلقة فيمكنك النوم في غرفة أو غرفتين معاً. أو ثلاث. وبالمناسبة، من دون دفع. «مجاناً»!

– مجاناً! كرر العجوز. ما من أحد هنا تدفع له. شركة السياحة أجلَت الجميع. وأنا هنا حارس.

– هل حقاً لا يوجد أي كائن في الفندق؟ – سألته، وأنا أسمع أصوات زجاج يتحطم في الممر.

– كيف لا؟! – صرخ العجوز مستغرباً. – ألا تحسب يوري كارلوفيتش إليوشا؟

– أهو هنا؟

– أكيد. وأين سيكون، قل لي، إن لم يكن في أوديسا. أنا أعرف يوري كارلوفيتش من قديم. نشأ وعاش عندما كانت أوديسا تدور على مدى

الأيام، مثل الدوارة[1]. كل شيء يتقافز أمام الأعين: السفن، النساء الأنيقات، الغرباء، القباطنة، الدخلاء، السيدات الإيطاليات، الأطباء الشهيرون وعازفو الكمان وآخرون. والآن حلّت مصيبة على أوديسا. كان إليوشا هنا يجلس وحيداً في الغرفة. بعد المرض. أركض إلى عنده في كل مرّة بعد صفارات الإنذار كي أحثه على النزول للقبو. لكنه لا ينزل أبداً. ومن مكانه يبدأ في المزاح. «سيمون شايفتش، – يقول لي، – انتبه كي لا تدمّر الغارات الألمانية المصابيح التي وصفتها في «البدناء الثلاثة». بماذا يمكن أن أجيبه؟ فأنا أيضاً أمزح. أقول له، لو كان الأمر بيدي لكنت غلّفت الفوانيس بالفضة كي تتذكر أوديسا هذا الكتاب إلى الأبد.

صعدت إلى غرفة إليوشا. كان يجلس منحنياً على الطاولة ويكتب بخطه الكبير غير المرتب.

تبادلنا القبل. كان نحيلاً جداً وشعر ذقنه طال بشكل مزعج – كان قد عانى مؤخراً من الديزنطاريا. غطتِ وجنتاه بقع صفراء جافة. لكن عينيه، كما دائماً، تكونان ثاقبتي النظر، مع ابتسامته اللطيفة. وكما دائماً، مستعدتين لأن تشتعلا بنار الفكرة المبتكرة، الملتقطة على الفور من الإلهام، وببريق المقارنات الدقيقة غير المتوقعة. تصير الحياة في الحال مثيرة عندما يبدأ في الحديث، كأنها تشع. بماذا؟ بشعاع مرحه، شِعره، وإدراكه الدقيق والفوري للنفوس البشرية.

اعتقدت دائماً (وربما كان هذا هو الحال في الواقع)، أن يوري كارلوفيتش كان طوال عمره يتحدّث بصوت غير مسموع مع العباقرة والأطفال، مع النساء المرحات وغريبي الأطوار الطيبين. يجادل بشجاعة وإصرار. يواجه محاوره باعتراضاته الجريئة المقنعة.

كان لإليوشا حياة خاصة، تتكاثف أحياناً، وتتناثر أحياناً أخرى، يختارها بعناية من الواقع المحيط ويزينها بخياله المجنح. كانت هذه الحياة تدور حوله مثل غصن شجرة مثقل بالزهور والأوراق، ذاك الغصن الذي وصفه في كتابه «الحسد».

---

1- (قاعدة دوارة على عجلات في مدينة الملاهي – المترجم)

كان في إليوشا شيء من بيتهوفن، مدوٍ وقوي. حتى في صوته. رأت عيناه الثاقبتان العديد من الأشياء الرائعة والباعثة على الطمأنينة. كتب عنها باختصار، بدقة، وهو يعرف القانون الذي يقول إن كلمتين معاً تستطيعان أن تكونا مسموعتين بقوة غير عادية، أما أربع كلمات فهي أضعف أربع مرّات.

انتصب في زاوية الغرفة مشجب مصنوع يدوياً. عُلّقت حقيبة في أعلاه.

– إذن، – قال إليوشا وأومأ برأسه نحو الحقيبة، – عندما تحين الساعة الأخيرة، اللحظة الأخيرة، سأذهب سيراً على الأقدام إلى مدينة نيكولاييف، ثم إلى هيرسون. للوصول إلى هناك، لا تحتاج إلى التفكير في أي شيء، ولكن ما عليك سوى المشي، والمشي، والمشي، بينما تمسك ساقيك... بالمناسبة، أحضروا لي بعض الخرائط، على الأقل من أطلس مدرسي. سيكون من الصعب عليّ المشي من دون خريطة.

كنت أستمع إليه وأغفو وأنا جالس. كنت بحاجة إلى النوم ولو لساعة، للاسترخاء. سار معي إليوشا عبر ممر الفندق الفارغ كي نختار الغرفة الأفضل. كانت معظم النوافذ محطمة بفعل الانفجارات المتتالية، والهواء يتسلل من خلال الستائر المغبّرة. وكانت أوراق الشجر الجافة تتطاير.

لم أعد أشعر بالنعاس. سرنا من غرفة إلى أخرى كي نختار إحداها، رافضين الغرفة تلو الأخرى. إحداها بسبب رائحة الصابون، والأخرى بسبب زجاج النافذة المكسور، والثالثة بسبب لوحة «احتفال النبلاء»، المغبرة بالجير نتيجة الانفجار الأخير.

اخترنا أخيراً الغرفة الأصغر والأكثر عتمة. تطل نوافذها على الباحة الداخلية التي نمت فيها منذ دهور أشجار ضخمة.

– مخبأ! – قال إليوشا. – أأمن غرفة بالفندق.

نمت على الفور دون أن أخلع ملابسي. أيقظني صوت هدير راجمات الصواريخ البعيدة. لمع ضوء الغروب الذهبي على زجاج النافذة المفتوحة القديمة المغبّش. نهضت وذهبت إلى إليوشا. لم أجده في الغرفة. عثرت عليه في صالة مطعم الفندق الضيقة المعتمة.

كان مطعماً تاريخياً. وكما اعتادوا القول في الصحف، «رأت جدرانه» العديد من الأشخاص المشهورين. قبل زمن قريب كانت هذه الصالة تتلألأ

بالكريستال والفضة والقيشاني والنحاس. كانت مفارش المائدة الزرقاء الصلبة متمزقة على الطاولات. الثريات على شكل كرمة كانت تشتعل تحت السقف الجصي المتقن. والثلج البلوري يلمع في الدلاء. أما قائمة الطعام فكانت سرية وفاخرة.

الصالة الآن فارغة، معتمة، تتدلى من السقف لمبة وحيدة من زمن الحرب ضوؤها شاحب. لم يطفئها أحد قط. يذرع أرجاء الصالة نادلان عجوزان، مثل أوديسا نفسها، من معارف إليوشا، يرتديان أردية بيضاء مجعدة، يقدمان للرواد شاياً ثقيلاً وشعيرية سوداء لزقة.

كان إليوشا جالساً على طاولة مع رجل أسود حزين صامت - ممثل في «استوديو فيلم» أوديسا.

انتهت الغارة للتو، - قال لي إليوشا. - فاتتك بسبب النوم. إذن، ماذا تقول عن أوديسا؟

أجبته أن المدينة تغيرت منذ بداية الحرب، تجمدت، ويبدو أن أهالي أوديسا فقدوا حيويتهم التقليدية.

هـ... ر... ا...ء! - قال إليوشا بصوت متقطع وواضح. الأوديسيون لن يستسلموا ولن يموتوا. ذكاؤهم يمتزج بجرأتهم. شجاعتهم تزيد بكلامهم الحاد. لديك تصور عن الأوديسيين. يشبه تصورك، لنقل، عن ديوجين[1].

بالطبع، فهمت أن الأمر لا يتعلق بي، وأنني لم أقم قط بالتعبير عن رأيي حول ديوجين أمام إليوشا، وذلك فقط لأنه لم يكن لدي رأي. كان ديوجين مجرد مبرر لفكرة مختلقة ما.

مثلاً، - قال إليوشا، - الجميع، بمن فيهم أنت، يعتبرون ديوجين زعيم الكلبيين[2]. ويا له من كلبي! إنه رجل عجوز خجول وغبي. بالمناسبة، كان يعيش في برميل! أيضاً بسبب الغباء. والبرميل، مع ذلك، برميل وغير برميل، ساحة للسكن. ويجب دفع أجرتها. ومن المعروف أنه لم يكن مع ديوجين

---

1- (مفكر يوناني من القرن الثالث قبل الميلاد اشتهر بأنه كان يعيش داخل برميل ويحمل مصباحاً معه)

2- (الكلبية، فلسفة يونانية تدعو إلى البساطة في العيش وفق قوانين الطبيعة وكان ديوجين من أتباعها - المترجم)

أي كوبيك أو دراخما. كان مالك البرميل يهدد دائماً بإلقاء العجوز في الشارع بسبب الديون. حينها كان ديوجين يذهب إلى أصدقائه ويبدأ يهمهم بوجه محمرّ: «أعطوني النقود من أجل البرميل». إلهي، يا له من صراخ يعلو: «نقود من أجل البرميل؟»، «وغد!»، «شكّاك».

ضحك الزنجي الصامت فجأة. ألقى إليوشا نحوه نظرة خاطفة وقال:

– الأوديسيون، وإلى الآن، لا يزالون شجعاناً ومرحين وساخرين كما هم دائماً. تعال معي لنتجول في المدينة، وأستطيع أن أؤكد لك أننا سنشاهد في مكان ما أوديسيين قدامى لن يستسلموا أمام أي شيء. وهذا أيضاً نوع من البطولة.

خرجنا من الفندق. تحول لون الهواء النقي إلى اللون الوردي بسبب غروب الشمس. كان الشارع صاخباً.

حلقت أسراب الطائرات الفاشية فوق البحر باتجاه أوتشاكوف. أطلقت المدافع البحرية المضادة للطائرات النيران بكثافة وبصوت عالٍ على الطائرات.

اتجهنا نحو السوق اليوناني. هناك، حسب كلام إليوشا، لا يزال مشرب الشاي، حيث يبيعون جبنة بيضاء مولدافية، يعيش أيامه الأخيرة. لكنا لم نتمكن من الوصول إلى السوق اليوناني. فاجأتنا غارة جوية. أطلق رجال الشرطة رصاص مسدساتهم في الهواء (من الواضح، من أجل الذين لم يسمعوا صفارات الإنذار عبر السماعات). إضافة إلى ذلك، دفعوا جميع المارة العابرين إلى أفنية المنازل.

دخلنا إلى أول فناء. كان فناء يونانياً نموذجياً. من المستحيل تقريباً وصف مثل هذا الفناء. تجب مشاهدته، وحتى العيش فيه عدة أيام، لإدراك كل روعته. إنه فناء مستطيل محاط من جميع الجوانب بمنازل قديمة من طابقين. المخرج الوحيد من هذا الفناء هو بوابة الشارع. تطل جميع الغرف والشقق من جميع طوابق المنازل اليونانية على الشرفات الخشبية الخارجية القديمة والسلالم القديمة. تمتد الشرفات على طول جدران البيوت. ترتجّ ويصدر عنها صرير. إنها بمنزلة الملحق الأكثر حيوية الذي تحبه الغرف والشقق.

في الشرفات، يجري قلي السمك المفلطح على مواقد الكاز، ويجري

تحضير الكافيار الأزرق الشهير، ويستحم الأطفال، والغسيل، والتشاجر (الطابق مع الطابق)، والاستماع إلى الجراموفونات، وحتى الرقص.

دخلنا إلى فناء من هذا النوع. كان خالياً. غارت القاذفات الألمانية مصحوبة بصرخات حديدية وهدير. ودوت الانفجارات وسقطت شظايا القذائف المضادة للطائرات على حجارة الفناء. وقفنا تحت أسفل الشرفة العليا محتمين من الشظايا. كان حارس الفناء العجوز يجلس نائماً بجانبنا فوق صندوق وعلى كتفه قناع الغاز. كان مستغرقا بالنوم على الرغم من الهدير والصفير والغبار الذي كان يهبّ من الشارع إلى الفناء بغزارة.

مقابلنا مباشرة، رأينا مدخلاً ذا باب ضخم. من الواضح أنه يؤدي إلى شقة منفصلة. تتصدره صفيحة نحاسية منقوش عليها «عيادة طبيب الأسنان ا. س. فانتراوب»، ويتضح من طريقة كتابة أحرفها أن الطبيب استقر هنا منذ زمن منسي.

– منذ ما قبل الثورة! – لاحظ إليوشا. – يبدو الآن أنه «قبل ولادة المسيح» أو «قبل الطوفان».

بجانب المدخل كانت توجد نافذة ذات ستائر مفتوحة.

ازداد هدير الطائرة. دوّت انفجارات صواريخ المضادات مثل كتل حديد تساقطت بعضها فوق بعض. ثم رأينا مشهداً بسيطاً لم ننتبه إليه من قبل. بالمناسبة، ما زلت لا أفهم لماذا ضحكنا أنا وإليوشا لفترة طويلة بعد ذلك، حين تذكرناه.

سحب شخص ما ستائر النافذة بغضب، ضرب الإطار بقبضته ما أدى إلى أن يرتج بقوة، وارتدت مصاريع النافذة نحو الحائط. انحنى من خلال النافذة يهودي عجوز، غير حليق الذقن، يرتدي حمالات مرخيةً وقميصاً مجعداً. من الواضح أنه كان الدكتور فانتراوب ذاته. كان يحمل جريدة بين يديه. ومن المحتمل أنه كان نائماً وغطى وجهه بالجريدة حماية من الذباب. أيقظته الانفجارات وهدير الطائرات.

أطلّ من النافذة متكئاً براحتيه على عتبتها. نظر بعين محمرّة من الغضب إلى الطائرة التي عبرت على ارتفاع منخفض من فوق الفناء مصدرة هديراً شيطانياً وصرخ محتجاً:

- ما هذا؟ سكارى؟ صعاليك!

بصق بغضب في إثر الطائرة، صفق النافذة بقوة وأغلق الستائر. حينها استيقظ على الفور الحارس، الذي لم توقظه حتى الانفجارات. تثاءب وقال بحزن:

الساكن الأكثر يأساً في فنائنا بأكمله: نابليون!

انتهت الغارة. خرجنا إلى الشارع، وقد سادت العتمة.

- هل ترى؟ - قال إليوشا، - كنتُ محقاً. ها هي أوديسا. مدينة قديمة لن تستسلم أمام أي شيء.

- أنت، ببساطة، محظوظ، - قلت له.

ذهبنا إلى فندق «لندن». بالقرب من دار الأوبرا كانت شجرة أكاسيا مقطوعة من الجذور. كانت بعض جذوعها التي علقت في الطابق الثاني من منزل قديم تتشبث بقضبان الشرفة.

وقفت عربة إسعاف سريع بقرب المدخل. كان دم شديد اللمعان يسيل ببطء على الرصيف من حافة النافذة في الطابق الثاني.

تطاير الدخان على دفعات فوق البحر. بانت من بعيد بعض الأضواء، ومن المحتمل أن القمر كان يصعد خلف الأفق.

بقيت مصابيح «البدناء الثلاثة» سليمة، وقد أسعدني هذا لا أقل مما أسعد إليوشا.

أستطيع أن أقول المزيد عن إليوشا، لكن الأمر لا يزال صعباً. فلم يمض وقت على موته. ولا يمكن نسيان وجهه الجميل - وجه رجل يفكر بهدوء أمامنا. كما لا يمكن نسيان الوردة الحمراء الصغيرة في عروة سترته القديمة. لقد رأيت هذه السترة عليه لسنوات عديدة.

# ميخائيل بريشفين

لو استطاعت الطبيعة أن تشعر بالامتنان للإنسان لأنه تغلغل في جسمها ومجّدها، فسيكون هذا الامتنان من نصيب ميخائيل بريشفين.

ميخائيل ميخائيلوفيتش بريشفين - كان هذا هو اسمه في المدينة، أما في تلك الأماكن التي شعر فيها بريشفين بأنه في البيت - في أكواخ العاملين في الدوريات، في فروع الأنهر الضبابية، تحت السحب والنجوم في فضاء السماء الروسية - فيطلقون عليه ببساطة اسم «ميخاليش». ومن البديهي أن الناس كانوا يحزنون عندما كان هذا الرجل يختفي في المدن، حيث كانت طيور السنونو التي تعشش تحت أسقف حديدية تذكّره بـ «وطن الزرافة»[1].

تجسد حياة بريشفين مثالاً للإنسان الذي نأى بنفسه عن كل وسط لا يحبه، أو مفروض عليه، وبدأ يعيش فقط «وفق نداء قلبه». يدل هذا النمط من الحياة على أعظم تفكير سليم. إن الإنسان الذي يعيش «وفق نداء قلبه»، بالتوافق مع عالمه الداخلي، - هو دائما خلاّق، مثرٍ وفنان.

من غير المعروف ما الذي كان سيفعله بريشفين في حياته لو ظل مهندساً زراعياً (كانت هذه مهنته الأولى). في كل الأحوال، من المشكوك فيه أنه كان سيكشف لملايين الناس عن الطبيعة الروسية باعتبارها عالماً من الشعر المرهف والراقي. قد لا يكون لديه ما يكفي من الوقت لهذا. تتطلب الطبيعة عيناً ثاقبة وعملاً داخلياً مستمراً لتخلق في روح الكاتب نوعاً من «العالم الثاني» من هذا النوع الذي يغنينا بالأفكار ويمنحنا جمالاً يراه الفنان.

لو قرأنا بدقة كل ما كتبه بريشفين، فسنصل إلى قناعة بأنه لم يسعفه الوقت

---

1- (محمية طبيعية قرب موسكو للطيور. أطلق بريشفين هذا الاسم عليها - المترجم)

كي يحكي لنا ولو واحداً بالمائة مما رآه وعرفه بشكل رائع. بالنسبة لأساتذة مبدعين مثل بريشفين، بالنسبة لأولئك الأساتذة الذين يمكنهم كتابة قصيدة كاملة عن كل ورقة خريف تسقط من شجرة، فإن حياة واحدة لا تكفي. في حين أن هذه الأوراق التي تتساقط كثيرة. كم عدد الأوراق التي تساقطت، مصطحبة معها أفكار الكاتب غير المعلنة – تلك الأفكار التي قال بريشفين عنها إنها تتساقط مثل الأوراق دون أي جهد!

نشأ بريشفين في المدينة الروسية القديمة يلتس. ومن مثل هذه الأماكن جاء بونين، تماماً كما بريشفين القادر على أن يُكسي الطبيعة بألوان الأفكار والأمزجة البشرية.

كيف يمكن تفسير هذا؟ من الواضح أنه يمكن تفسيره بأن طبيعة الجزء الشرقي من منطقة أرلوفشينا، الطبيعة المحيطة بيلتس – روسية جداً، بسيطة وفقيرة جداً. إذن، من هذا المنطلق يمكن حل لغز رؤية بريشفين ككاتب الثاقبة في هذه الخاصية، وإلى حد ما، حتى في قسوتها. تصبح رؤية الأرض الأم أكثر وضوحاً من خلال هذه البساطة، والنظر يصبح ثاقباً أكثر، والأفكار أشمل.

تخاطب البساطة القلب بطريقة أقوى وأكبر من اللمعان المبهر للعين، – ثروة من الألوان، أضواء غروب الشمس المتلألئة، توهج السماء المرصعة بالنجوم والنباتات المصبوغة بالألوان في المناطق المدارية، تذكرنا بالشلالات القوية، نياغارا كاملة من الأوراق والزهور.

من الصعب الكتابة بلغة بريشفين. يجب نسخ ما يكتبه في دفتر خاص، إعادة قراءته، واكتشاف قيم جديدة في كل سطر، والتوغل في كتبه كما نتوغل في غابة مدارية كثيفة بصحبة مفاتيح طريقته في الكلام وأنفاس العشب العطرة، والاستغراق في الأفكار والأوضاع المتنوعة المميزة لهذا الإنسان النظيف العقل والقلب.

اعتبر بريشفين نفسه شاعراً «مصلوباً على صليب النثر». لكنه كان مخطئاً. فنثره يمتلئ بخلاصة الشعر، وهو أقوى بكثير من العديد من الأشعار. إن كتب بريشفين، حسب كلامه، «فرح لا نهائي بالاكتشافات المتواصلة».

سمعت عدة مرات الكلمات ذاتها من أشخاص انتهوا للتو من قراءة كتاب له: «هذا سحر حقيقي!». اتضح لي من أحاديث لاحقة أن الناس الذين يقولون هذا فهموا ما يصعب شرحه، لكنه سحر يتميز به بريشفين فقط.

إين يكمن سره؟ أين يكمن سر هذه الكتب؟ ترتبط كلمة «سحر» في العادة بالحكايات الخرافية. لكن بريشفين ليس حكواتياً. إنه ابن الأرض، «أم الأرض الرطبة»، الشاهد على كل ما يحدث حوله في العالم.

سر جاذبية بريشين، سحره، يكمن على وجه التحديد في رؤيته الثاقبة. إنها رؤية ثاقبة يكشف في كل تفصيل فيها عما هو مثير للاهتمام ويرى محتوى عميقاً تحت غطاء الظواهر المحيطة به. كل شيء عند بريشفين يتلألأ بالشعر، مثل العشب الندي. تعيش ورقة الحور حياتها الخاصة.

أحمل كتاب بريشفين وافتحه وأقرأ:

«انقضى الليل تحت قمر صافٍ كبير، وفي الصباح استقر الصقيع الأول. كان كل شيء رمادياً، لكن البرك لم تتجمد. عندما أشرقت الشمس واشتعلت درجة حرارتها، تشربت الأشجار بالندى القوي، وكانت أغصان أشجار التنوب تطل من الغابة المظلمة بأشكال مضيئة بحيث لم يكن الألماس الموجود على الأرض بأكمله كافياً لهذه الزخرفة». وفي هذه القطعة الماسية حقًا، كل شيء بسيط ودقيق ومليء بالشعر الذي لا يفنى.

ستتفقون عند التمعن في كلمات هذا المقطع مع غوركي عندما قال إن بريشفين امتلك «القدرة المطلقة على أن يثير بواسطة تركيبات مرنة من الكلمات البسيطة إحساساً فيزيائياً بكل شيء تقريباً».

لكن هذا غير كاف. لغة بريشفين – لغة شعبية. لا يمكن أن تتطور إلا من خلال التواصل الوثيق بين الإنسان الروسي والطبيعة، عبر العمل، عبر بساطة وحكمة الشخصية الشعبية.

بضع كلمات: «انقضى الليل تحت قمر صافٍ كبير» – تصف بوضوح تام جلال مسار الليل الصامت في بلد نائم. و«استقر الصقيع»، و«تشربت الأشجار بالندى» – كل هذا شعبي، حي، لم يؤخذ ولم يقتبس قط من الكتب المنشورة، بل هو خاص، خاص به. لأن بريشفين كان ابن الشعب، وليس

مراقباً فقط لهذا الشعب بصفته «مادة لكتاباته»، وهذا، للأسف، غالباً ما يحدث مع الكتّاب.

لدى علماء النبات مصطلح – التنوع العشبي. يشير عادة إلى المروج الغنية بالنباتات المزهرة. التنوع العشبي عبارة عن نسيج متشابك من مئات الأزهار المختلفة والمبهجة، المنتشرة حول البحيرات وفروع الأنهر.

يمكن بثقة تامة وصف النثر عند بريشفين بأنه التنوع العشبي للغة الروسية. تُزهر كلمات بريشفين وتتألق. إنها أحياناً تُصدر حفيفاً كالأعشاب، وأحياناً خريراً كالينابيع، وأحياناً تغرد كالطيور، وأخيراً تستقر في ذاكرتنا في تتابع بطيء، مثل تتالي بروز النجوم.

يمكن تفسير سحر النثر عند بريشفين بمعلوماته الواسعة. يتوفر أي مجال من مجالات المعرفة الإنسانية على كمّ لا يحصى من الشعر. كان على الشعراء أن يعرفوا هذا من زمان.

كم سيكون موضوع السماء المرصعة بالنجوم، الموضوع المحبوب من الشعراء، أكثر فخامة، لو كانوا يعرفون علم الفلك جيداً. الليل غير المحدد، وبالتالي السماء غير موصوفة بوضوح كاف – هذا شيء، وشيء آخر – الليل ذاته عندما يكون الشاعر عارفاً بقوانين حركة النجوم في الفضاء، وعندما ينعكس في مياه البحيرات ليس مجرد نجم صغير ما بل كوكب الزهرة المتألق.

يمكن إيراد أمثلة على أنه حتى المعرفة الضئيلة يمكن أن تكشف مجالات جديدة للجمال. لكل إنسان تجربته الخاصة في هذا المجال.

لكني أستذكر الآن واقعة فسّر لي فيها سطر واحد من بريشفين ظاهرة كانت تبدو لي حتى ذلك الوقت ظاهرة عرضية، ولم يفسّرها فقط بل أضفى عليها جمالاً طبيعياً.

لقد لاحظت منذ فترة طويلة في المروج التي غمرتها المياه في أوكا أنه في بعض الأماكن التي يبدو فيها أن الزهور تجمعت كما لو في أحواض منفصلة، وفي أماكن أخرى، وسط الأعشاب العادية، ينمو فجأة صف واحد من الزهور المتشابهة. يمكن ملاحظة هذا بخاصة عند النظر من الطائرة.

راقبت لسنوات عديدة صفوف الزهور الطويلة العطرة هذه، وأعجبت

بها، لكني لم أعرف كيف أفسر هذه الظاهرة. وأعترف أنني لم أحاول التفكير فيها. وإذا بي أعثر أخيراً عند بريشفين في كتابه «أوقات السنة» على تفسير لها من خلال سطر واحد من مقطع قصير تحت عنوان «أنهار الزهور»: «هناك، حيث جرت جداول الربيع، في كل مكان الآن جداول الزهور».

قرأت هذا وأدركت على الفور أن صفوف الزهور نمت بالضبط حيث اندفعت المياه الجوفية في الربيع، تاركة وراءها طمياً خصباً. كانت مثل خريطة من زهور لجداول الربيع.

يجري نهر دوبنا بالقرب من موسكو. يعيش الناس حوله من مئات السنين، شهرته واسعة، وهو على الخارطة. يتدفق بهدوء بين البساتين بالقرب من موسكو، الممتلئة بالشجر المثمر، بين التلال والحقول الزرقاء، مروراً بالمدن والقرى القديمة – دميتروف، فيربيلوك، تالدوم. عاش آلاف الناس عند هذا النهر. كان من بينهم كتّاب، رسامون وشعراء. ولم يلحظ أي واحد منهم أي شيء مميز في هذا النهر يستحق الكتابة عنه. لم يتجول أي أحد في ضفافه، مثلما في بلد غير مكتشف. بريشفين فعل هذا.

... وقد تألق نهر دوبنا المتواضع بواسطة قلمه وسط الضباب وغروب الشمس المشتعل، مثل لقية جغرافية، مثل اكتشاف، مثل أحد أكثر الأنهار إثارة للاهتمام في البلاد – بحياته الخاصة، ونباتاته، ومناظره الطبيعية الفريدة الخاصة به فقط، وطريقة حياة سكان النهر وتاريخه الخاص.

كان عندنا علماء – شعراء، من أمثال تيميريازوف، كلوشيفسكي، إيغارودوف، فيرسمان، أبروشيف، وأرسينيفن المهندس الزراعي الذي توفي وهو شاب، والذي ألّف كتاباً علمياً جاداً وممتعاً في نفس الوقت حول الربيع والخريف وتأثيرهما على حياة النباتات. وكان عندنا كتّاب قادرون على أن يضيفوا العلم إلى رواياتهم وقصصهم، – باعتباره نوعية ضرورية للنثر، من أمثال ميلنيكوف بيشيرسكي، أكساكوف، غوركي، بينيغين وآخرين. لكن بريشفين يحتل مكانة خاصة بين أولئك الكتّاب. معرفته الواسعة ومجالات الإثنوغرافيا والفينولوجيا وعلم النبات وعلم الحيوان والهندسة الزراعية والأرصاد الجوية والتاريخ والفولكلور وعلم

الطيور والجغرافيا والتاريخ المحلي والعلوم الأخرى مدرجة عضوياً في حياته الأدبية. وهي لا تشكّل عبئاً ثقيلاً عليه. إنها تحيا في داخله وتغني خبرته باستمرار، قدرته على الملاحظة، وخاصيته المفرحة في رؤية الظواهر العلمية بكل ما فيها من إمكانية التعبير الشعري، من خلال نماذج، قلّت أم كثرت، لكنها تحمل المفاجآت.

ترك لنا بريشفين عدداً كبيراً من الملاحظات واليوميات. تحتوي العديد من ملاحظات بريشفين على تأملاته حول براعة الكتابة، وهو كان ثاقب الرؤية في هذا المجال، كما في علاقته بالطبيعة.

يبدو لي أن قصة بريشفين عن بساطة النثر نموذجية من حيث صحة أفكاره. عنوان القصة «المؤلف». في القصة هناك حوار بين الكاتب ومرشد في مجال رعاية الأطفال حول الأدب. وهذا هو الحوار. يقول المرشد لبريشفين:

«– لو اكتفيت بكتابة الحقيقة، لكنك، على ما يبدو، اخترعت كل شيء؟

– ليس كل شيء، – أجبته، – لكن يوجد القليل.

– وأنا كنت سأكتب هكذا!»

«– هل كله حقيقي؟

– كله. خذ مثلاً، ما كتبته حول كيف أقضي الليل عند المستنقعات؟

– حسناً، كيف؟

– هكذا! ليل. شجيرة كبيرة. أنا جالس تحت الشجيرة، وصوت صغار البط – نق، نق، نق».

توقفت. فكّرت – إنه يبحث عن الكلمات أو ينتظر تشكّل الصور. انتبهت إلى نفسي، أخرجت الناي وبدأت أثقب فيه فتحة سابعة.

– حسناً، وماذا بعد ذلك؟ – سألته. – أنت بالفعل رغبت في تصوير الليل

– وقد صورته، – أجابني، – كله بواقعية.

– أما أنا فقد تخيلت، – كل شيء كما في الحقيقة. جذع كبير، كبير! الآن أنا أجلس عليه، وطوال الليل تنقنق صغار البط.

– هذا مختصر جداً.

– ما بك، مختصر، استغرب المرشد، – تنقنق طوال الليل.

قلت له وأنا أتخيل هذه القصة:

– جيد!

– ربما هي سيئة، ردّ عليّ.

كان بريشفين دائماً المنتصر في عمله الأدبي. أتذكر رغماً عني كلماته: «... إذا كانت المستنقعات البرية وحدها شهدت انتصارك، فإنها ستزدهر بجمال غير عادي – وسيبقى الربيع لك إلى الأبد، ربيعاً واحداً، ونصراً مجيداً!»

يكتب بريشفين عن الإنسان، كما لو كان يحدق قليلاً به ببصيرته. إنه غير مهتم بما هو سطحي. إنه مشغول بذلك الحلم الذي يعيش في قلب الجميع، سواء كان حطّاباً أو صانع أحذية أو صياداً أو عالماً مشهوراً.

تكمن المهمة في إخراج حلم الإنسان المخبأ داخله إلى العلن. وهذا عمل صعب. لا يخفي الإنسان أي شيء في داخله أكثر من الحلم. ربما هذا لأنه لا يستطيع تحمل أدنى سخرية، حتى مزحة، وبالطبع لمسة يد غير مبالية. الذي يمكن أن يصدّق حلمك هو فقط من يفكر مثلك. بريشفين كان واحداً من الذين يفكرون مثلنا، المشاركين في أحلامنا الخفية.

فقط تذكروا قصته «الأحذية» عن صانع الأحذية، الذي قرر صنع الأحذية الأكثر أناقة وأخف وزناً في العالم للمرأة في المجتمع الشيوعي.

أجل، سيبقى ربيع نثر بريشفين إلى الأبد في حياة شعبنا وأدبنا الروسي.

# ألكسندر غرين

في أيام صباي، كنا، نحن تلاميذ المدرسة الثانوية، نقبل على قراءة أعداد «المجلة العالمية». كانت عبارة عن كتيبات صغيرة ذات غلاف ورقي أصفر، مطبوعة بحروف صغيرة.

كانت رخيصة الثمن جداً. يمكن لقاء عشرة كوبيكات قراءة «تاتارين» دودي أو «ألغاز» هامسون، ولقاء عشرين كوبيكاً – «دافيد كوبرفيلد» تشارلز ديكنز أو «دون كيشوت» سيرفانتس.

كانت «المجلة العالمية» تنشر كتب المؤلفين الروس في حالات استثنائية فقط. لذا، اعتقدت عندما اشتريت العدد الدوري من المجلة بعنونته الغريبة «شلال تيلورا الأزرق» ورأيت على الغلاف اسم المؤلف – ألكسندر غرين، أن غرين أجنبي.

احتوى الكتاب على عدّة قصص. أذكر أنني فتحت الكتاب وأنا أقف عند الكشك الذي اشتريته منه وقرأت بطريقة عشوائية:

«لا يوجد ميناء أكثر فوضى وروعة من «ليس» ... المدينة المتعددة اللغات التي من المؤكد أنها تشبه المتشرد الذي قرر أخيراً الانغماس في دهاليز الحياة المستقرة. بنيت المنازل بشكل عشوائي وسط إشارات غامضة توحي بالشوارع، لكن الشوارع، بالمعنى الحرفي للكلمة، لا يمكن أن تكون موجودة بالفعل في ليس لأن المدينة نشأت على مقاطع من الأرض الصخرية والتلال التي تتصل فيما بينها بالأدراج والجسور والممرات الضيقة. كل هذا ممتلئ بالخضرة الاستوائية الكثيفة التي تلمع وسط ظلالها عيون النساء التي تشع مثل عيون الأطفال.

الحجر الأصفر والظل الأزرق وشقوق الجدران القديمة الخلاّبة؛ في

مكان ما في فناء جبلي - قارب ضخم، تم إصلاحه بواسطة رجل عاري القدمين وهو يدخّن الغليون؛ غناء يصل من بعيد ويتردد صداه في الوادي؛ السوق مكتظ بأكوام من البضائع المكدسة تحت المظلات والخيم الضخمة؛ لمعان الأسلحة، والملابس الزاهية، ورائحة الزهور والمساحات الخضراء، ما يؤدي إلى حنين شفيف، كما في الحلم - للحب والمواعيد؛ الأشرعة المطوية، أجنحة الصباح المفرودة، المياه الخضراء، فضاء المحيط؛ أضواء النجوم المغناطيسية في الليل، قوارب أصواتها مضحكة - هذه هي ليس».

كنت أقرأ، وأنا أقف في ظل شجرة كستناء كييف المزهرة، أقرأ دون توقف، إلى أن أنهيت قراءة هذا الكتاب الغريب، غير العادي، مثل الحلم.

شعرت فجأة بالحنين إلى روعة الرياح، إلى رائحة مياه البحر المالحة، إلى ليس، إلى أزقتها الحارة، إلى عيون الناس الحارقة، إلى الحجارة الصفراء الخشنة وبقايا رماد القذائف، إلى دخان السحب الوردي الذي يطير مسرعاً في السماء الزرقاء.

لا، على الأغلب، لم يكن هذا حنيناً، بل رغبة محمومة في رؤية كل هذا مباشرة والانغماس بدون قلق في الحياة الحرة قرب البحر.

وهنا تذكرت أنني رأيت بعض صفات هذا العالم المشرق. إذ جمعها فقط الكاتب المجهول غرين في صفحة واحدة. لكن، أين رأيت كل هذا؟

تذكرت بسرعة. بالطبع، في سيباستوبل، في المدينة التي تبدو كأنها صعدت من أمواج البحار الخضراء نحو الشمس الساطعة التي تغشي البصر والتي تتخللها ظلال خطوط زرقاء مثل السماء.

كانت كل فوضى سيباستوبل المرحة في صفحات غرين.

تابعت القراءة واصطدمت بإحدى أغاني البحّارة:

«يلمع الصليب هناك في الجنوب البعيد
وستوقظ الريح الأولى البوصلة.
احفظنا يا ألله
يا حامي السفن
وارحمنا»

لم أكن أعرف في ذلك الحين أن غرين كان يبتكر الأغاني بنفسه من أجل قصصه.

يثمل الناس من النبيذ، من ألق الشمس، من الفرح الخالي من الهموم، من كرم الحياة، ولا يتعبون أبداً من الكشف لنا عن جمال وبرودة زواياهم المخادعة، وأخيراً، عن «مشاعرهم السامية».

كل هذا موجود في قصص غرين. إنها تُثمل مثل هواء عطر يجعلنا نقفز على أقدامنا بعد جو المدن الخانق الفاسد.

هكذا تعرفت على غرين. ولم أشعر بالدهشة عندما علمت بأن غرين روسي، وأن اسمه ألكسندر ستيبانوفيتش غرينيفسكي. ربما ذلك لأنه كان واضحاً لي في ذلك الوقت أن غرين من مواطني البحر الأسود الأصيلين، وممثل لأدب تلك القبيلة من المؤلفين أبناء البحر الأسود، التي ينتمي إليها باغريتسكي وكاتاييف والعديد من الكتاب الآخرين.

لقد فوجئت عندما عرفت سيرة غرين، وعرفت عن حياته الصعبة التي لم أسمع بها من قبل كمنشق ومتشرد لا يهدأ.

كان من غير المفهوم كيف امتلك هذا الرجل المنعزل والمنهك من الشدائد خلال وجوده المعذب موهبة عظيمة من الخيال القوي والنقي والإيمان بالإنسان والابتسامة الخجولة.

ليس عبثاً أنه كتب عن نفسه أنه «رأى دائماً منظراً طبيعياً غائماً فوق أوساخ ونفايات المباني المنخفضة».

كان يملك كل الحق في أن يصف نفسه بكلمات الكاتب الفرنسي جول رينار:

«وطني – هناك حيث تسبح أروع الغيوم»

لو أن غرين مات، تاركًا لنا فقط قصيدته النثرية «الأشرعة القرمزية» وحدها، لكان هذا كافياً لوضعه في صفوف الكتاب الرائعين الذين يثيرون قلق قلب الإنسان بالدعوة إلى الكمال.

كتب غرين كل ما لديه تقريباً لتبرير الحلم. يجب أن نكون ممتنين له على هذا. نحن نعلم أن المستقبل الذي نسعى إليه ولد من صفة بشرية لا تقهر – القدرة على الحلم والحب.

# إدوارد باغريتسكي

يمكن مسبقاً تحذير كاتبي السيرة الذاتية لإدوارد باغريتسكي من أنهم سيضطرون إلى أن يعانوا من الكثير من الحزن أو، كما يقال، «أن يعرفوا ثمن رطل من المصائب»، لأن سيرة باغريتسكي يصعب تحديدها.

روى باغريتسكي الكثير من الحكايات المدهشة الخرافية عن نفسه.حكايات اندمجت بقوة مع حياته، بحيث لا يمكن أحياناً التفريق بين ما هو حقيقي وما هو خرافي. يستحيل التأكد من الحقيقة «الحقيقة، ولا شيء غير الحقيقة».

هذا إضافة إلى أنني غير واثق من أن الانشغال بهذا الجهد غير المشكور يستحق العناء.

كانت الحكايات التي اختلقها باغريتسكي جزءاً مميزاً من سيرته الذاتية. هو نفسه آمن بها بصدق. من دونها، لا يمكن للمرء أن يتخيل هذا الشاعر بعيونه الضاحكة الرمادية وصوته اللاهث ولكن الرخيم.

على ساحل بحر إيجه، تعيش قبيلة رائعة من «الطائفة اللاتينية» وهم شعب مبتهج ونشط. توحّد هذه القبيلة ممثلين عن شعوب مختلفة – يونانيين وأتراك وعرب ويهود وسوريين وإيطاليين. وعندنا في الاتحاد السوفييتي «لاتينيونا» الخاصون بنا. إنهم سكان «البحر الأسود» هم أيضاً قبيلة من مختلف الشعوب، لكنهم متشابهون في فرحهم بالحياة، ساخرون، شجعان وعاشقون لبحرهم الأسود، والشمس اللاهبة، وحياة المرفأ، و«أوديسا – الأم»، والمشمش والبطيخ، وغليان الحياة عند الشاطئ. كان إدوارد باغريتسكي ينتمي إلى هذه القبيلة.

من هذه الصفات التي تبدو غير متجانسة، إذا أضفنا إليها حباً غير

أناني للشعر ومعرفة شاعرية هائلة، تتكون الشخصية المتكاملة والساحرة لهذا الإنسان.

التقيت باغريتسكي لأول مرة قرب الأمواج في ميناء أوديسا. كان قد كتب للتو قصيدة عن بطيخة – قصيدة حقيقية، مدهشة في كثافة الأحاسيس والكلمات، كما لو كانت تنثرها موجة عاصفة من البحر الأسود.

كنا نصطاد سمك البوري الأحمر وغيره ونلقي في البحر سناراتنا المربوطة بخيوط طويلة. مرت قربنا قوارب تحمل صفوفاً من خشب البلوط وعليها أكوام من البطيخ المخطط. هزّت ريح قوية القارب فتحركت الأخشاب، وسقطت حبات من البطيخ في الماء مثيرة رغوة حولها.

لعق باغريتسكي شفتيه المالحتين وبدأ يقرأ بسرعة وهو يلهث «بطيخ».

تعثر فتاة عند الشاطئ على بطيخة ألقتها الأمواج عليها رسمة قلب –
من الواضح أنه لا يوجد هنا من يخبرها
أنها تحمل قلبي بين يديها!

كان يلقي من الذاكرة عن طيب خاطر قصائد أي شاعر. كانت ذاكرته استثنائية. في إلقائه، حتى للقصائد المشهورة، يظهر لحن غنائي جديد فجأة. لم أسمع مثل هذا الإلقاء، لا قبل باغريتسكي ولا بعده. تصل جميع الخواص الصوتية لكل كلمة وكل مقطع إلى تعبيرها الكامل والمؤثر. بغض النظر عما كان يلقيه باغريتسكي من المستحيل سماعه دون أن تشعر بالإثارة.

لم نتناول أي طعام في الصباح الباكر، لأننا ذهبنا مباشرة من المرفأ إلى السوق اليوناني. كان هناك مشرب للشاي يقدمون فيه الشاي مع السكرين، وشريحة من الخبز الأسود والجبنة البيضاء.

كان يعيش في أوديسا في ذلك الوقت متسول عجوز. كان يثير الرعب في كل المدينة لأنه كان يطلب الصدقة بطريقة مختلفة عما هو شائع. لم يكن

يتذلل، لم يكن يمد يده المرتجفة وينادي بصوت كئيب: «يا سادة يا كرام، أشفقوا على عاهتي!».

لا، كان طويلاً، أشيب اللحية، عيناه حمراوان حادتان، وكان يذهب فقط إلى مشارب الشاي، وحتى قبل أن يتخطى العتبة يبدأ بصب اللعنات بصوته الأجش على رؤوس الرواد.

إن إرميا، أكثر أنبياء التوراة قسوة، الذي اشتهر بصفته سيد اللعنات الذي لا يُنازع، يمكن، كما يقول سكان أوديسا، أن «يصبح هباء منثوراً» أمام هذا المتسول.

«أين ضميركم، بشر أنتم أم لستم بشراً؟!» - كان يصرخ هذا العجوز ويجيب فوراً بنفسه على سؤاله المتكرر: - أي بشر أنتم عندما تجلسون وتأكلون الخبز مع الجبنة الدسمة بدون أيما اهتمام، بينما الرجل العجوز يمشي جائعاً خاوي البطن منذ الصباح مثل البرميل الفارغ! لو عرفت أمهاتكم ما الذي أصبحتم عليه، لربما شعرت بالسعادة لأنها لم تعش لترى هذه الحقارة. وأنت يا رفيق، لماذا تدير وجهك عني؟ فأنت لست أطرش؟ الأفضل لك أن ترضي ضميرك الأسود وتساعد الرجل العجوز الجائع!

كان الجميع يتصدقون على هذا المتسول. لا يستطيع أحد أن يصمد أمام هجومه. قيل إنه كان يستخدم النقود التي يجمعها للمتاجرة بالملح في السوق السوداء.

قدموا لنا الشاي في المشرب مع جبنة بيضاء حادة الطعم ملفوفة بقماشة رطبة جعلتني أشعر بحرقة في اللثة. دخل المتسول في هذه اللحظة وبدأ يصب لعناته.

- آها، قال باغريتسكي بغضب. - يبدو أنه تورط. فليقترب منا فقط. فليجرؤ على أن يقترب منا!

- وماذا سيحدث؟ - سألته.

- الويل له، - ردّ باغريتسكي. - آه، الزيل له! فقط لو يقترب من طاولتنا.

تقدّم المتسول بثقة. توقف المتسول أخيراً قرب طاولتنا، نظر بضع لحظات نحو الجبنة بعينين ملتهبتين، وصدرت حشرجة ما من حلقه، ربما،

كانت تعبّر عن غضب شديد، بحيث لهث العجوز وعجز عن النطق. مع ذلك، سعل وصرخ:

- متى أخيراً سيستيقظ ضمير هؤلاء الناس! يجب أن نشاهدهم من الجانب وهم يسرعون لالتهام الجبنة، كي لا يقدموا ولو ربعها، ولا أقول النصف، لهذا العجوز التعيس.

نهض باغريتسكي، وضغط يده على قلبه وبدأ يتحدث بهدوء وعاطفة، دون أن يرفع عينيه عن الرجل العجوز المتشنج، - تحدث وصوته يرتج، وعيناه تدمعان، وبألم مأساوي:

صديقي، أخي، أيها المتعب،
يا من تعاني،
مهما كنت، لا تيأس...

ترنح المتسول. حدق في باغريتسكي. أصبحت عيناه غائمتين. ثم بدأ يتراجع ببطء، وهو يقول: «صدقوا، سيحين الوقت وسيهلك بعل»، ثم استدار وركل الكرسي وركض مهرولاً إلى مخرج المشرب.

- أترى، حتى متسولو أوديسا لا يصمدون أمام نادسون![1].

ضحك جميع من في المشرب بصوت عال.

اختفى باغريتسكي عدة أيام في السهوب حيث كان يصطاد الطيور بواسطة الفخاخ. كانت هناك العشرات من الأقفاص التي تحتوي على طيور منفوشة الأجنحة في غرفة باغريتسكي المطلية باللون الأبيض. كان يتفاخر بها كثيراً.

كانت قشور البذور تتساقط طوال الوقت من الأقفاص على رؤوس الضيوف ورأس باغريتسكي، وقد أنفق باغريتسكي آخر ما لديه من مال على إطعام هذه الطيور.

كانت الصحف في أوديسا تدفع له الفتات: عشر روبلات لقاء قصائد رائعة.

---

1- (سيميون نادسون شاعر روسي - المترجم)

بعد عدة سنوات كان جميع الشبان يعرفون ويحفظون هذه القصائد عن غيب.

من الواضح أن باغريتسكي كان يعتبر هذا عادلاً. لم يكن يعرف قيمته الحقيقية وكان يرتبك أمام الأمور العملية. عندما جاء إلى موسكو في المرّة الأولى لم يكن يذهب إلى دور النشر ومكاتب التحرير وحده ويصطحب معه أحد أصدقائه ليتشجع. كان صديقه يدير النقاش فيما يهز باغريتسكي رأسه ويبتسم.

سكن باغريتسكي عندي في موسكو في القبو في شارع أبيدينسكي. خرج إلى المدينة خلال شهر كامل مرتين فقط، أما الوقت الباقي فكان يمضيه جالساً على السرير متربعاً على الطريقة التركية يكاد يختنق من نوبات سعال الربو. كان محاطاً بالكتب، بمخطوطات لغيره من الشعراء وعلب السجائر الفارغة. كان يكتب قصائده عليها. كان يفقدها أحيانا لكن غضبه يزول بسرعة.

سرعان ما انتقل إلى موسكو نهائياً وأحضر معه الأحواض المليئة بالسمك بدلاً من الطيور. كانت غرفته تشبه عالم أعماق البحار. كان يستطيع أن يجلس على الأريكة ساعات عديدة يفكر ويتأمل الأسماك المتنوعة.

تقريباً، كان يُرى نفس عالم أعماق البحار الغامض تحت الماء من حاجز أمواج أوديسا – سيقان من العشب الفضي تحت الماء، على غرار الشعاب المرجانية، تتمايل بالطريقة نفسها، وقنديل البحر الأزرق يسبح ببطء، ويقفز من مياه البحر.

مات باغريتسكي مبكراً، ولم يكن قد نضج بعد، ولم يكن جاهزاً، كما قال، لأن يسيطر على بعض قمم الشعر الصعبة.

سار سرب من سلاح الفرسان خلف نعشه، وكان يتردد بصوت عال وقع حدوات الخيول على رصيف الجرانيت.

# صندوق الشاحنة

سافرت في شهر تموز من عام 1941 في شاحنة عسكرية من ريبنتسي قرب دنيستر إلى تيراسبول. جلست في المقصورة الأمامية بجانب السائق الصامت.

ثار غبار حار بفعل الشمس تحت عجلات السيارة. كل شيء حولنا – الأكواخ وعبّاد الشمس والأكاسيا والعشب الجاف – كان مغطى بهذا الغبار الخشن... نشرت الشمس أشعتها في السماء الناصعة. سخن الماء في مطرَة الألمنيوم وانبعثت منها رائحة المطاط. دوّت أصوات المدافع خلف دنيستر.

ركب بعض الضباط الشبان في صندوق الشاحنة الخلفي. كانوا أحياناً يدقون بقبضاتهم على سقف الصندوق ويصرخون: «غارة!». حينها يوقف السائق الشاحنة ونقفز منها ونركض مبتعدين عن الطريق وننبطح فوق الأرض. وعلى الفور تبدأ الطائرات الحربية الألمانية بقصف الطريق محدثة دوياً مزعجاً.

كانت الطائرات الحربية تلاحظنا أحياناً فتبدأ بملاحقتنا بالرشاشات. لكن، لحسن الحظ، لم يُصب أي منا. كان الرصاص يثير زوابع من الغبار.

اختفت الطائرات الحربية، واستمرت الحرارة في سائر الجسم بسبب الأرض المحروقة، والضجة في الرأس، والعطش الذي لا يرتوي.

توقف السائق بعد إحدى الغارات وسألني فجأة:

– بماذا تفكر وأنت منبطح تحت الرصاص هل تتذكر؟

– أتذكر، – أجبته.

– وأنا أتذكر، – صمت السائق ثم قال، – أتذكر غاباتنا في كوستروسك، إن بقيت حياً، سأعود إلى الوطن – سأقطن في الغابة. سأصطحب معي زوجتي – إنها امرأة هادئة، جميلة، وكذلك ابنتي، وسنعيش كحرّاس. هل تصدّق، ما إن أفكر بهذا حتى يضطرب قلبي، وهذا لا يجوز للسائق.

– وأنا أيضاً، أجبته. – أتذكر غاباتي.

– أهي جيدة؟ سأل السائق.

– جيدة.

أخفض السائق قبعته العسكرية وضغط على البنزين. ولم نتحدث بعد ذلك.

على الأغلب، لم أتذكر أماكني المفضلة، كما تذكرتها وسط الحرب.

انتبهت إلى أنني، وأنا مستلق في صندوق شاحنة مغطى بمعطف، أنتظر بفارغ الصبر، اللحظة التي سأتمكن فيها من العودة بأفكاري إلى تلك الأماكن وأن أتمشى فيها ببطء وهدوء وأتنشق هواء الصنوبر. قلت لنفسي: «سأذهب اليوم إلى البحيرة السوداء، وغداً، إن بقيت حياً، إلى شاطئ بري أو تريبونتو». وتوقف قلبي عن الخفقان من توقع هذه الجولات المتخيلة.

هكذا استلقيت ذات مرة تحت معطفي الرائع وتخيلت بتفصيل كبير الطريق إلى البحيرة السوداء. بدا لي أنه لا يمكن أن تكون هناك سعادة أكبر في الحياة من رؤية هذه الأماكن مرة أخرى والسير فيها، متناسياً كل الهموم والمحن، مصغياً إلى مدى سهولة خفقان القلب في صدري. في أحلامي هذه، كنت دائمًا أغادر منزل القرية في الصباح الباكر وأسير على طول الشارع الرملي متجاوزاً الأكواخ القديمة.

أشم رائحة نبتة البلسم المزروعة في علب الأطعمة المحفوظة على عتبات النوافذ. لا بد أن السبب هو أن جذع البلسم السميك يضيء باللون الأخضر في مواجهة الشمس، وفي بعض الأحيان تظهر فقاعات الهواء فوقه.

بعد البئر، حيث الفتيات الثرثارات اللواتي يقرقعن بالدلاء طوال اليوم

ويتحدثن حافيات القدمين مرتديات فساتين كالحة، يجب عليك أن تميل نحو الزقاق.

يعيش في الكوخ الأخير ديك جميل مشهور في كل الناحية. وغالباً ما يقف على ساق واحدة تحت الشمس ويضيء ريشه مثل كومة من الفحم المتوهج.

تنتهي الأكواخ بعد كوخ الديك، وتمتد الغابات البعيدة. من المدهش أنه لا توجد أزهار تنمو حولها. تقف غابة صنوبر صغيرة خلف سكة حديدية ضيقة مع حاجز غير سالك. يبدو أنه لا يمكن عبوره إلا بحذر. يمكنك دائماً المرور فيه، لكن بالطبع، سوف تخزك أشجار الصنوبر الصغيرة بالإبر وتترك بقعاً لزجة من القطران على أصابعك. تبدأ غابة عالية خلف غابة الصنوبر. يمتد طريق متضخم على طول حافتها. تحت أول شجرة صنوبر، من الجيد الاستلقاء والاستراحة من الغابة الصغيرة. استلقِ على ظهرك، اشعر بالأرض الباردة من خلال قميصك الرقيق وانظر إلى السماء. وربما تغفو، لأن الغيوم البيضاء الساطعة عند أطرافها تجعلك تشعر بالنعاس. هناك كلمة روسية معبّرة «الاسترخاء». لقد نسيناها تماماً مؤخراً، ولسبب ما نخجل من نطقها. ولكن لا توجد كلمة أخرى يمكن أن تحدد بشكل أفضل حالة الهدوء والنعاس الخفيف الذي يسيطر عليك عندما تستلقي في غابة الصباح الدافئة وتنظر إلى سلاسل السحب التي لا تنتهي. والتي تولد في مكان ما على امتداد الفضاء الأزرق وتسبح باستمرار دون أن يعرف أحد إلى أين.

غالباً ما أتذكر قصيدة بروسوف وأنا مستلق في طرف هذه الغابة:

... أن تكون حراً، وحيداً،
أن تشق طريقك وسط الهدوء البهيج
للحقول الممتدة،
منطلقاً بلا هدف،
من دون الأيام اللاحقة والسابقة
أن تقطف الأزهار،

أن تغرق في أشعة الشمس، مثل
الحب الأول،
أن تقع، وتموت، وتغرق في الظلام،
من دون فرح مرير لتُبعث من جديد مراراً
وتكراراً!

امتلأت هذه الأبيات وعلى الرغم من ذكر الموت، بخلاصة الحياة الكاملة، بحيث لم أعد أرغب إلا بأن أستلقي لساعات وأفكر ناظراً إلى السماء.

تقود الطريق المحاطة بالأعشاب إلى غابة صنوبر قديمة. ينمو الصنوبر فوق كثبان رملية. تغمر الشمس الغابة فوق الكثبان فتبدو مرئية من بعيد. تمتد هذه الغابة في شريط ضيق (كيلومترين، لا أكثر)، وخلفها ينفتح سهل رملي، حيث تنمو سنابل القمح وتلمع وتتحرك مع الريح. ما وراء هذا السهل تمتد، على مد البصر، غابة كثيفة. تطفو الغيوم الخفيفة بشكل خاص فوق السهل. ربما يبدو الأمر كذلك لأن السماء كلها مرئية على نطاق واسع. يمكن عبور السهل فقط عبر الفراغات مّا بين سنابل القمح.

تخيلت كل هذا بأفكاري الآن.

(أفكر في كل هذا مستلقياً في صندوق شاحنة في وقت متأخر من الليل. تُسمع من جهة محطة رزدلنايا انفجارات مدوية – هناك قصف. نجم أزرق مقذوف. أدركت أنني أتابعه بشكل لا إرادي: متى سينفجر؟ لكن النجم لا ينفجر، بل ينطفئ بصمت فوق الأرض. كم تبعد المسافة من هنا إلى شجرة البتولا المألوفة، إلى الغابات! في الليل، ولكن بصمت، تتوهج أنوار الأبراج، لا تفوح منها رائحة أبخرة البنزين ودخان البارود).

أتفحص الخارطة اليدوية الصنع – بقيت ثمانية كيلومترات إلى البحيرة. تحتوي هذه الخريطة على جميع العلامات – شجرة صنوبر جافة بجانب الطريق، وعمود تحديد الحدود، وغابة من شجيرات «طاقية الراهب» (من نبات الزينة)، وكومة نمل، ومرة أخرى أرض منخفضة، حيث تتفتح دائماً

أزهار «آذان النمل» (أو لا تنساني)، وخلفها شجرة صنوبر بحرف O محفور على اللحاء - يشير إلى بحيرة. من هذا الصنوبر، عليك الانعطاف يميناً إلى الغابة واتباع المسارات التي تم تحديدها في عام 1932. كل عام تنمو وتملأها الأعشاب. هي بحاجة إلى التجديد. بالقرب من البحيرة، في وسط الغابة، تبدأ المنخفضات العميقة بحيث لا داعي للتفكير في الدخول إلى أعماق هذه المنخفضات. يجب أن تكون هذه بحيرات صغيرة سابقة. الغابة تنتهي. يوجد في الأسفل مستنقعات جافة - طحالب، مع غابات صغيرة: شجر البتولا، وغيره.

هنا آخر توقف. صار النهار في منتصفه. يُسمع أزيز متواصل يشبه أزيز سرب من النحل غير المرئي. هناك في مكان ما، على بعد كيلومترين من هنا، بين المستنقعات الجافة، تختبئ البحيرة السوداء - مملكة المياه المظلمة وزنابق الماء الصفراء الضخمة.

يجب السير بحذر وسط المستنقعات الجافة: تبرز وسط الطحالب جذوع مقطوعة من أشجار البتولا التي صارت أطرافها حادة بمرور الزمن بحيث يمكن أن تجرح القدم.

من الأفضل الذهاب إلى البحيرة في وقت متأخر من الشفق، عندما يكون كل شيء حولك - لمعان الماء الخافت والنجوم الأولى، وهج السماء المحتضرة، وقمم الأشجار الثابتة - كل هذا يندمج بقوة مع الصمت الحذر الذي يبدو أنه ولد منه. الجلوس بجوار النار، والإصغاء إلى طقطقة الأغصان، والتفكير في أن الحياة جيدة بشكل غير عادي إذا لم تخف منها وتقبلتها بعقل متفتح...

هكذا تجولت في الذكريات عبر الغابات، ثم على طول ضفاف نهر نيفا أو على طول التلال الزرقاء في كثبان أرض بسكوف القاسية.

فكرت في كل هذه الأماكن بمثل هذا الألم الشديد، كما لو أنني فقدتها إلى الأبد، كما لو أنني لن أراها مرة أخرى في حياتي. ومن الواضح أنها اكتسبت من هذا الشعور في وعيي سحراً غير عادي.

سألت نفسي لماذا لم ألاحظ هذا من قبل، وخمنت على الفور أنني،

بالطبع، رأيت كل هذا وشعرت به، ولكن فقط، في حالة الفراق، ظهرت ملامح المناظر الطبيعية الأصلية أمام نظري الداخلي بكل جمالها الذي يأسر قلبي. من الواضح أنه يجب على المرء أن يندمج بالطبيعة، كما تندمج جميع الأصوات، حتى أضعف صوت، في الصوت العام للموسيقى.

ستؤثر الطبيعة فينا بكل قوتها فقط عندما نشعر بداخلها بإنسانيتها، وعندما تصبح حالتنا الذهنية أو حبنا أو فرحنا أو حزننا في توافق تام مع الطبيعة ولن يكون من الممكن بعد ذلك فصل نضارة الصباح عن رؤية العين المحِبة، وضجيج الغابة الرتيب عن التأملات حول الحياة التي عشناها.

المنظر الطبيعي ليس ملحقاً بالنثر وليس زخرفة. تحتاج إلى الانغماس فيه، كما لو كنت تغرق وجهك في كومة من الأوراق المبللة من المطر وتشعر ببرودتها المنعشة ورائحتها وأنفاسها.

باختصار – يجب حبّ الطبيعة، وهذا الحب، كما أي حب آخر، سيجد طريقه الصحيح للتعبير عن نفسه بأشد قوة.

مكتبة
t.me/soramnqraa

# في وداعي

بهذا أنهي الكتاب الأول من ملاحظاتي حول الكتابة بشعور واضح بأن العمل قد بدأ للتو، وأن أمامي طريقاً لا نهاية له. هناك الكثير لأقوله - حول جماليات أدبنا، معناه الأعمق كوسيلة تعليم لشخص جديد ببنيته الغنية والرفيعة من الأفكار والمشاعر، حول الحبكة والفكاهة ونمذجة الشخصيات البشرية في اللغة الروسية، والجنس الأدبي، حول الرومانسية والذوق الراقي، وتحرير المخطوطات - لا يمكنك قراءة كل شيء.

يشبه العمل في هذا الكتاب رحلة عبر بلد غير مألوف، عندما تُفتح أمامك مسافات وطرق جديدة في كل خطوة. إنهم يقودونك ولا أحد يعرف إلى أين، لكنهم يعدون بالكثير من الأشياء غير المتوقعة التي تعطي غذاء للتفكير. لذلك، لا يزال فهم التشابك المعقد لهذه الطرق، ببساطة، أمراً مغرياً وضرورياً، على الأقل، ولو بشكل غير كامل، وكما يقال، تقريبياً. 1864-1955

«الوردة الذهبية» - محاولة لاكتشاف أسرار الإبداع الأدبي استناداً إلى خبرته في إبداع أعماله الأدبية، وتأملاته حول الأعمال الإبداعية لعظماء الكتّاب، ليس من خلال التنظير، بل تحديداً من خلال سرد قصص كان شاهداً عليها أو رويت له، يستخلص منها أفكاره حول الأدب وكيف يجب العمل على كتابته، ويضيف إلى ذلك في الفصول الأخيرة من الكتاب تعريفات شيقة جداً ببعض أشهر كتاب الرواية والقصص القصيرة والشعر في زمنه، من الروس والأوروبيين بعامة، مثل الدنماركي كريستيان أندرسون أشهر كتّاب قصص الأطفال والروائي والقاص الفرنسي غي دو موباسان، والقاص الروسي والمؤلف المسرحي أنطون تشيخوف، وغيرهم ممن تركوا بصمتهم على خارطة الأدب العالمي، رابطاً بين شخصياتهم وأدبهم، سواء فيما بينها من انسجام أو تناقض. يتوصل المؤلف من خلال هذا الكتاب القصصي إلى تأملات استمرت على مدى سنوات طوال تتعلق بالمشاكل المعقدة لسيكولوجية الإبداع ومهارات الكتابة وعناصرها المتنوعة، وإلى استنتاجات لا تخلو من عبر، مفيدة، حتى في عصرنا الحالي الذي تسود فيه الأساليب الحديثة في الكتابة النثرية أو الشعرية المتمردة على الأساليب والمدارس الأدبية السابقة.

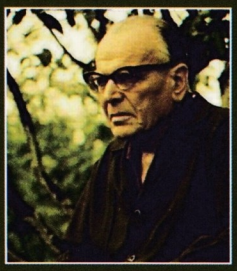

يروي باوستوفسكي قصصه ويصف الأشياء التي يتحدث عنها بأدق ما يمكن من التفاصيل، يروي ويستفيض في السرد، بما قد يوحي للوهلة الأولى بأنه يبتعد عن هدفه، أو يخرج عن الموضوع، لكن، لا شيء مجانياً فيما يكتبه، فالقارئ المتمهل، الصبور، سيشعر بكيف تتغلغل في أعماقه، شيئاً فشيئاً، بهدوء، الأفكار التي يرغب المؤلف، بطريقة غير مباشرة، أن يوصلها إليه.

مكتبة
t.me/soramnqraa

470 يوم
غزة

لوحة الغلاف: Stanislav Zhukovsky